

B E N I T O M U S S O L I N I



مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية



مذكرات موسوليني

Mussolini

مكتبة النافذة

مذكرات موسولينبي

عرض وتحليل
هشام خضر

الناشر
مكتبة النافذة

مذكرات موسولينى

هشام خضر

الطبعة الأولى 2008

رقم الإيداع: 2008/15608

الطبعة

دار طبعة للطباعة - الجيزة

كل الحق
محفظة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787

Mob: 012 3595973

Email: alnafezah@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نافذة الكتاب

تعتبر قصة حياة الدوتشى بنيتو موسولينى تجسيدا حيا لكفاح رجل عاش بين أحضان الفقر وافترش البؤس والتحف الآمال والأحلام رغم غائلة الجوع وأنيابه المفترسة.

ربما نختلف مع هذا الرجل الأسطورة الذى استطاع بكفاحه أن يبرهن على أن من جد وجد ومن زرع حصد، بغض النظر عن مفاهيمه الإلحادية والثورية والاشتراكية الجريئة والصارمة.

صحيح أن نشأة الدوتشى لم تكن أبداً مدعاة للتفاؤل ومبعثاً للآمال، بل على العكس كانت تؤكد يوماً بعد آخر أن مصير هذا الطفل المشاكس المشاغب حتماً سيكون رئيساً لعصابات المافيا الإيطالية الشهيرة، أو سيكون قوادة للنساء أو لصاً محترفاً.

لكن أن يتحول هذا الفوضوى العرييد الثمل العنيف من مجرد شاب ساخط ناغم حاقد إلى زعيم إيطاليا وأسطورتها ورئيسها وحديث أوروبا فهذا ما يستحق أن يروى ويحكى حتى يعتبر من أراد أن يعتبر، ويتعلم من ابتغى العلم، ويسعى من قاض صبره وضاق صدره من السعى والنضال دون أن يجنى ثمار عمله الشاق.

بنيتو موسولينى كان شابا مفعما بالحوية زاخراً بالآمال مبشراً بما سوف تحصده يده بعد سنوات طويلة، ومن ثم لم يكن مستغرباً حين قال مقولته الشهيرة لوالدته بعد أن ضاقت به السبل ونضبت فى رأسه الحيل أنه سوف يثير دهشة العالم يوماً ما.

أما المثير للانتباه حقاً . . أن والدته الدوتشى الأم الرائعة «روزا» لم تكن تسخر من أقوال ولدها أو تستخف بما يتفوه به، بل على العكس كانت تتأمله وهى تربت على كتفيه، وتؤكد أمامه أنها بالفعل فى انتظار هذا اليوم الذى سيثير فيه دهشة العالم أجمع، بيد أن القدر لم يمهل هذه الأم العظيمة أن تبقى على قيد الحياة لترى ما صنعه ابنها الدوتشى بنيتو موسولينى.

والواقع أن هذا الرجل المستبد الذى أشاع الظلم والطغيان والفساد فى إيطاليا لم يكن مجرد بائس فقير لا يجد قوت يومه فحسب بل كان يتضور جوعاً ويكاد يموت من شدة البرد القارص حين هاجر بمفرده إلى سويسرا ولم يجد ملاذاً له سوى أحد الجسور التى تمتد على أعشابها مزاحماً جردانها وقوارضها وأفاعيها أملاً فى استقطاع ساعة يلتمس خلالها راحة واسترخاء بعد عناء يوم شاق من العمل فى مجال المعمار.

صحيح أن أغلب الزعماء ولا سيما الطغاه قد كابدوا وعانوا من نكد الدنيا عليهم، وربما لم يكن الدوتشى منفرداً بتلك النشأة البائسة بل سبقه إليها الزعيم محمد على ونابليون بونابرت وهتلر وغيرهم من الذين سطوروا بكفاحهم أروع الانتصار.

لكن الأغرب من ذلك أن نهاية هؤلاء جميعا تشابهت كما توحدت نشأتهم حيث لم يكن منهم من اتعظ واعتبر ممن سبقه، ومنذ متى يتعظ الطغاة؟ وأين فطن هؤلاء لما هو قادم بعد أن زينت الدنيا في أعينهم بزخارفها ومباهجها وغوايتها فظنوا أن لن يقدر عليهم أحد.

تأمل نهاية الدوتشى المأساوية المؤلة المفجعة حين علقه الإيطاليون من رجله فتدلت رأسه فى مشهد رهيب ومثير لا يزال محفوراً فى ذاكرة الأمم الحية تأمل كيف انتهت حياة نابليون وهتلر وغيرهم من الطواغيت والذين أثاروا فزع شعوبهم من أجل سلطة ظنوا أنها خالدة وأبدية بعد أن أسكرتهم وأعمتهم عن رؤية الحق وإدراك العدل واستشراف آفاق المستقبل.

هشام خضر

الفصل الأول

من الطفولة إلى الصبا

تنحدر عائلة بنيتو موسولينى إلى جذور ذات أصالة وعراقة مضروبة فى أعماق التربة الإيطالية القديمة قدم الحضارة والتاريخ والحياة.

ولم تكن قرية (دوفيا) إحدى قرى مقاطعة دوماننا تختلف عن بقية القرى الريفية، بيد أنها قد تجلت فى نهائيات القرن التاسع عشر حيث كانت على موعد مع القدر.

ففى ظهر يوم التاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٨٣ استقبل كوخ قارنا نودى كوسا الذى تقيم داخله أسرة موسولينى طفلها الوليد بنيتو الذى صار مع مرور الزمن رجلاً يافعاً سرعان ما تحول إلى أسطورة فلما تشهد إيطاليا المعاصرة لها مثيلاً

ولو كانت قرية «دوفيا» قد أنجبت مجرد رئيس اعتلى عرش السلطة الحاكمة لهان الأمر، لكنها ودون أدنى قدر من المبالغة قد أنجبت من أمسى فى عيون الأمة زعيماً تحيط به هالة من القداسة ألقت بظلالها على الشعب الذى كان مسحوراً مبهوراً يصيح إعجاباً وذهولاً مقاطعاً خطبه النارية قائلاً دوتشى... دوتشى... دوتشى.

وفى خضم تلك الأجواء الساخنة التى كان يطل خلالها الدوتشى على جماهير أمته بطلعته البهية وطلته الندية وسحته الشجية تدمى الأكف من حرارة

التصفيق، وتفيض الدموع من المهاطل وتنطلق الصيحات والصرخات والآهات من الحناجر لفرط سحره وقوة بيانه.

كانت الجماهير الغفيرة تنساق وراءه كالعميان في تجسيد جلى يبرهن للقاصي والداني مدى خضوع جماهير الأمة الإيطالية وإيمانها المطلق وثقتها العمياء بهذا الذي كان يترجل متشياً منتفخاً مزهوا كالطاوس حتى كان يظن من علو عيلائه أنه قد بلغ برج بيتراً طويلاً وروما عرضاً.

ومن ثم لا أرانى مستغرباً صيحته التى أطلقها ذات مرة لمن حوله وهو مختال بنفسه فخور بمجده قائلاً: «كم أؤثر أن أكون زعيماً مهاباً على أن أكون قائداً محبوباً!!»

وظنى أن الدوتشى قد استطاع بفضل حنكته أن يسكن القلوب، ولجسارته تعمق فى عيونها فألقى الرعب فيها، فكم كان يطمع ويتطلع أن يكون مهاباً ومحبوباً، أو إن شئت الدقة - مرهوباً ومعبوداً، شأنه فى ذلك شأن الطواغيت وذوى العروش والتيجان المستبدة أمثال نابليون بونابرت ومحمد على وأدولف هتلر وجوزيف شتالين وجمال عبد الناصر وصدام حسين ومعمار القذافى وفيدل كاسترو.



الشاهد أن فتانا نيتو قد نشأ ونما وترعرع فى كنف أسرة فقيرة بائسة متواضعة تشكو سوء الحال وندرة المال حيث كان الكوخ الذى يلفها ويحتضنها وكأنه متواطئ مع الفقر والشقاء يهرب شباح الثراء فكان علامة مسجلة لدى أهالى القرية بوصفه أشهر أكوأخها بؤساً وضياعاً.

فى تلك السنوات الجاقة القاسية التى شهدت قدوم بنيتو كان والده ويدعى إلساندرو يعمل حداداً لكنه كثيراً ما أهدر أوقات عمله فى مطالعة الصحف والانكباب على قراءة الكتب والنشرات الثورية والاشتراكية حتى وجد نفسه غارقاً حتى أذنيه فى بحار السياسة العتيقة فتقاذفته أمواجها المتلاطمة حتى خيم شبح الإفلاس والجوع على محيط أسرته .

كان الرجل يعشق السياسة، ويهوى الاشتغال بها وتبادل أحاديثها مع من حوله غير عابء بالحدادة التى كانت مصدر رزق أسرته الوحيد، حتى ضاقت الأم روزا ذرعاً بما اتصف به زوجها من إهمال وعث ولا مبالاة .

الأمر الذى دفعها قسراً للعمل فى مجال التدريس لأطفال قربتها مقابل حفنة من الفرنكات لمواجهة أعباء الحياة المتزايدة يوماً بعد آخر لعلها تفلح فى إطعام أطفالها الثلاث بنيتو وأرنال وشقيقتهما إيدفيج الصغيرة التى ولدت عام ١٨٨٨ ميلادية .

كانت الأم «روزا» قد تميزت بين نساء القرية بقدرتها على القراءة والكتابة ومطالعة الصحف والكتب وكأنها تقتفى خطى زوجها، ولولا أنها تتصف بالجدية والطيبة والشعور بالمسؤولية إزاء بيتها لكانت أسرة موسولينى قد هبت عليها ريح عاصفة .

ومن ثم تمكنت الأم بذكائها وشجاعتها من أن تحمل على كاهلها أعباء أفراد أسرتها دون أن تتوكل على عصا الأب البلاستيكية فأطعمتهم بعد أن كاد الفقر يعصف بهم ثم تذرّوا بمشاعرها الدافئة من غيلة البرد القارص، حيث كان

الأب الذي جرفته أمواج السياسة قد ارتقى في أحضان بعض غانيات القرية اللعوب ينفق عليهن ما تكسبه يداه.

ويروى المؤرخون أن الأب قد أطلق اسم بنيتو على أكبر أبنائه تيمنا به وإعجابا بسيرة الزعيم الثورى المكسيكى بنيتو خواريز المناضل الشهير الذى تصدر ثورة الأمة المكسيكية ضد الإمبراطور المستبد مكسمليان حتى تولى بدعم الشعب المكسيكى رئاسة جمهورية المكسيك عام ١٨٥٨ بعد حياة مريرة من الكفاح والنضال حافلة بالصعاب والتحديات.

كان الأب أليساندور قد تنبأ بمستقبل باهر ينتظر طفله الأول بنيتو ومن ثم لم يدخر جهداً فى أن يطلق عليه اسم الزعيم الثورى وأحد ألمع دعاة التحرر والاستقلال.

وكان لافتاً للانتباه ومثاراً لدهشة المؤرخين أن يتصدر بنيتو المشهد السياسى فى إيطاليا ليصبح رئيسها، بل أهم وأبرز وأخطر وأشهر رؤسائها على وجه الإطلاق ودون أن ينازعه أحد فى ذلك حتى كتابة تلك السطور.

أما فيما يتعلق بشأن لقب العائلة موسولينى فيعود إلى اشتغال أسرة بنيتو بالعمل فى الحرير الموسولينى، حيث أكدت تحريات المؤرخين وعلماء الأنساب أنه لا يوجد من بين أجداده من يحمل اسم موسولينى، وهو ما دفع المؤرخين إلى نسبة اللقب إلى «الموسولين».

وللتأكيد على ما سبق قوله فقد توفى أحد أجداده الأوائل عام ١٧٢٧ فى مدينة كسابولى، وكان هذا الجد يدعى فرنسيسكو، ثم مات الجد الثانى عام

١٧٧٩ فى مدينة كابولى ويدعى باولو، فيما توفى الجد الثالث جياكومو أنطونيو فى مدينة مونتيما جيورى وذلك عام ١٨٢٢، أما شقيقه لويجى فقد لحق به فى عام ١٨٢٩ ثم رحل الجد لويجى أجوسيتوجاسبارى فى مطلع عام ١٩٠٨، بينما رحل والد بنيتو عام ١٩١٠، وهكذا يتبين من شجرة العائلة أنه لا أحد من أجداده لقب موسولينى، مما يعزز قول المؤرخين بأن الأسم مستق من حرير الموسولينى.



فى كوخ فارانو عاش بنيتو حياة اتسمت بالقسوة والغلظة والجفاف والخشونة حيث كان الكوخ البائس يتكون من غرفتين؛ اتخذت الأم غرفة منهما حولتها إلى مدرسة خاصة لتعليم أطفال القرية بينما احتوت الغرفة الأخرى والد بنيتو ووالدته وشقيقته.

أما فتانا بنيتو فقد كان يفرش أرض المطبخ مستلقيا على ظهره وبجانبه يتمدد شقيقه الصغير أرنالدو.

ومع مرور الوقت انخرط الطفل بنيتو فى العمل مع أبيه داخل ورشة الحدادة لمساعدته ودعمه بعد أن وهن عظمه، وخط الشيب شعر رأسه وتقوس ظهره وبات فى حاجة لمن يشد من أزره ويقوى عزيمته.

وكان بنيتو رائعاً فى أداء المهام التى يكلفه بها والده من حين لآخر رغم شدتها وقسوتها وحدثها، وهو ما أكسب بنيتو صفات الرجولة المبكرة التى ميزته رغم حدائته بين أقرانه وزملائه من الأهل والجيران.

ورغم امثال بنيتو لاوامر والده وبراغته فى إجادة عمله فكثيرا ما استقبل وجهه أعنف اللطمات واللكمات والصفعات التى كان يسدها له والده الذى كان يتميز غيظا إذا ما قصر بنيتو ابنه فيما هو موكول إليه، أو لمح شروده وذيق نظراته، وكان الدمع ينساب ساخنا على وجتية ألما وحرنا من قبضة الأب المتوحشة والطائشة.

كانت الحياة حيثئذ فى عيون الطفل بنيتو تخلو من النعومة والرفاهية والتلذذ بخيراتها حيث تعذر على أسرته تناول ألد المأكولات وأشهاها، وكأنهما من المحرمات والممنوعات، بيد أن حساء الخضار المصحوب ببعض فصوص الثوم البرى والبقلة والخبز الجاف من أهم الوجبات الأساسية التى اعتمدت عليها الأسرة اعتماداً كلياً.

وما من شك أن لتلك النشأة المتواضعة أبلغ الأثر فى تكوين الطفل بنيتو الذى عانى الجوع والحرمان، حتى كانت ثيابه الرثة والمهلهلة كثيرا ما تدعو للشفقة والثناء.

وللإنصاف لم يكن أفراد تلك الأسرة ممن يستجدون عطف الآخرين أو يقبلون صدقاتهم ومساعدتهم، بل على العكس اتصفت الأم روزا بالثقة والاعتزاز بالنفس، ومن ثم تحلى بنيتو بالشموخ والعزة والرفعة والكبرياء منذ نعومة أظفاره، وكأنه على يقين مما يتظره مستقبلاً.

صحيح أن شظف العيش وندرة الموارد كانت لها تداعيات سلبية ألقت بظلالها القائمة على بنيتو الذى كان قد نما بداخله شعور جارف بالسخط

والضيق، وكان التذمر قد استقر في نفسه وتمدد بها واستولى على سلوكه وتصرفاته التي كانت مدعاة لضيق الآخرين واستفزازهم.

الحاصل أن بنيتو الذي كان يموج في صراعات نفسية عنيفة قد اكتظ صدره وفاض بحقد دفين وكره لا نظير له لكل من كان له نصيب من العيش الوافر ومن ثم امتلأ صدره بالغل والنفور من كل الذين يجاورونه فكان ناقما على الفقراء الذين يتشابهون معه، وحاقدًا على الأغنياء الذين كانوا يترفعون عليه، فعاش كالحديد المنصهر بين هؤلاء وأولئك ينتظر اللحظة.

والواقع أن بنيتو الناقم الحاقد كان يتصف دون أقرانه بفصاحته وذكاءه وعبقريته وبلاغته ورصانته وقوة بيانه وروعة ذرائعه ومنطقية حججه، الأمر الذي ساعده على التأثير المباشر على زملائه فانساقوا من ورائه يهتفون بحياته ويصفقون لخطبه التي اشتهر بها مبكرًا.

في تلك الأثناء كانت الأم روزا تترقب خطى فتاها الحالم وكأنها تشاطر أباه فيما ينتظره بعد عقد من الزمان، ومن ثم كانت تصدق ما يتفوه به ابنها، وتتجاذب معه أطراف حديث حالم لتقف على حقيقة أحلامه وآماله وتطلعاته.

وكان الابن بنيتو لا يدخر وسعا في الإفصاح لوالدته عما يكتنفه ويحلم به، حيث كثيرا ما كان ينبئها إذا ما ضاقت به السبل وتكالت عليه الهموم وحاصرته الصعاب وأثقلته المحن أنه سوف يثير دهشة العالم وإعجابه يوما ما!!

وكان هذا الصبي العنيد قد منحه الله القدرة على قراءة الغيب، وهو ما جرى لبعض العباقة والعظام والأفذاذ الذين كانوا يتصفون بأحاسيس مرهفة تنير لهم طريق المستقبل.

وكانت والدته الفيلسوف الألماني العظيم شوبنهاور سيدة من سيدات المجتمع الألماني الراقى، وكثيراً ما استقبلت في صالون بيتها رموز الفكر والأدب والفلسفة الألمان وكان في طليعتهم الفيلسوف الأشهر جيته.

وما إن علم الابن شوبنهاور نبأ قدوم جيته إلى صالون والدته حتى بادر إليه حاملاً مؤلفاته وإبداعاته التي اطلع عليها جيته وأبدى إعجابه بها وتنبأ بأن لشوبنهاور مستقبلاً مرموقاً في العلوم الفلسفية، الأمر الذي أثار غضب والدته التي كانت تملكها مشاعر دفينه تملؤها الغيرة من ولدها شوبنهاور.

وحيث إن الغيظ قد استولى على الأم فقد نهضت من مكانها وطردت ابنها أمام ضيوفها دون أن تعبا بتداعيات هذا التصرف الأحق على مشاعر ولدها شوبنهاور ونظرات الاستنكار التي كانت تتناقلها عيون ضيوفها.

الشاهد أن شوبنهاور الجريح صاح بأعلى صوته قائلاً وهو يهبط درج سلم بيت والدته: «لن يكون لك شأن بدونى.. سوف تعيشين وتموتين على أنك أم الفيلسوف العظيم شوبنهاور!!»

وكان...

أما نابليون بونابرت فقد تنبأ عمه بأنه سوف يكون ذا شأن عظيم في فرنسا، حتى كان يقول لأبنائه وأشقائه نابليون وهو يحتضر اتبعوا نابليون، فسوف يكون زعمياً وكان.

وكان محمد علي باشا الكبير قد تنبأ له أهل مدينة قوله مسقط رأسه وشبابها بأنه سوف يتبوا مكانة رفيعة في مستقبل أيامه، حتى أطلق عليه لقب «الزعيم»

منذ صباه، وتوالت الأحداث ومرت السنوات وإذا بالبasha محمد على يتولى
زعامة مصر والعالم العربى، فكان.

وقس على ذلك نماذج وصوراً لا حصر لها ظهرت وتجلت طوال القرون
المنصرمة لتؤكد بأن ما استقر فى قلب بنيتو موسولينى لم يكن من قبيل الهذر
أو الدعابة أو مجرد إطلاق الكلام على عواهنه، بل يقين أودعه الله فى نفسه
فصارح به والدته، وكان.

* * * *

نهايته.. لقد استطاعت الأم «روزا» مع سنوات كفاحها وشقاها أن تدخر
مبلغاً من المال لتأمين مستقبل أسرتها والحرص على تعليم أولادها والإنفاق
عليهم.

لكن «روزا» التى تميزت بالذكاء وحسن التصرف تمكنت من اقتطاع جزء من
المبلغ الذى ادخرته لشراء مزرعة عنب صغيرة تتألف من حوالى ستة قرارىط.
وكان بنيتو يرافق والدته وشقيقه لزراعتها ورعايتها، وقد شهدت الأسرة
أجمل أيامها خلال تلك الفترة، وقد أتى يوم اجتمعت فيه الأسرة داخل
المزرعة وصاحت الأم تشدو بأعلى صوتها تغنى أغنية الجيش الإيطالى الشهير.

لقد نبه برىق السيوف الخاطف

عروشا وشعوبا

هيا أيها الإيطاليون إلى الميدان.. إلى

الميدان فقد دعانا الوطن

وكانت عائلة موسولينى سواء أشقاء والدته أو ولدته يمتلكون مزارع عنب داخل القرية، الأمر الذى كان يدعو موسولينى فيما بعد للتفاخر والمباهاة بأنه خرج من صلب الشعب، ومن ظهر العائلات الريفية البسيطة.

وقد ورد أنه كان كثيرا ما يقول فى خطبه: إننى أفهم ما الذى تتطلع إليه الجماهير وما تريده؛ لأننى ببساطة يا سادة واحد من أبناء هذه الأمة. ولكى يبرهن على أصالته وبساطة نشأته وتواضعه أمر أتباعه بوضع لافتة على مزرعة بمسقط رأسه تنتسب لعائلته، كتب عليها: «فى داخل هذه المزرعة عاش أجداد الزعيم بنيتو موسولينى من المزارعين البسطاء». ويبلغ بنيتو سن التاسعة قررت والدته روزا إيفاده للالتحاق بمدرسة فاينزا المقدسة الداخلية.

والواقع أن فتانا كان يضيق صدره من سماع التراتيل الإنجيلية كما كان يتقيا إذا ما شم رائحة بخور الكنيسة عندما تصطحبه والدته إلى الكنيسة لأداء صلاة الأحد.

بل الأدهى من ذلك أن ينيتو لم يكن يطبق رؤية رجال الكنيسة بشابهم السوداء، وكان يتحايل ويتذرع بالحجج الواهية للخروج أثناء الصلاة غير عابئ بالعيون التى كانت ترمقه بنظرات شذرة ساخطة.

وامعانا منه فى التعبير عن عدم ارتياحه للطقوس الدينية كان لا يكف عن إلحاق الأذى بأطفال قريته الذين كانوا يحرسون على الذهاب صباح كل أحد للكنيسة، وكان يقذفهم بالحجارة والطوب وهو يغتلى فروع الأشجار التى يتسلقها فى رشاقة وخفة ومرح.

ورغم غلظه الأب وقسوته مع بنيتو فقد أفلت زمام الابن من بين يديه، ولم يعد يقوى على تأديبه وتهذيبه وتعنيفه، حيث إن بنيتو قد توحش وبات حاد الطباع غليظ السلوك عنيف اللسان همجى التصرف.

ويقال أن والده الذى كان ملحداً لا يؤمن بالله استبد به اليأس فى أن يبعث به إلى المدرسة الدينية الداخلية للتخلص من مشاكله وأزماته التى كان يفتعلها مع جيران القرية ورواد الكنيسة.

ولولا أن حادثة قد أصابت بنيتو بجرح غائر فى كف يده لامتنع عن مرافقة أبيه فى الذهاب إلى المدرسة، حيث إنه قد تشاجر فى الليلة السابقة لذهابه إلى المدرسة مع أحد زملائه، وحين أراد أن يسدد له لكمة عنيفة فى وجه زميله أخطأ التسديد بعد أن تمايل زميله جهة اليسار ليجد قبضة يده قد هوت بكل ما أوتيت من قوة فى جدار حديدى أصابته بجرح نازف تداعى تضميده وحمايته بالمستحضرات الطبية.

ولأن بنيتو لم يكن ممن يقبلون الهزيمة ويلعنون مرارتها فقد أثر الانصباع لرغبة والده واستجاب لدعوته فى مرافقته إلى المدرسة لينخرط فى صفوفها حتى لا يرى أحد جرحه ويصبح على أثرها مسخة تتحاكى عنها الأفواه وتتضحك من حوله استخفافاً به وتشمئاً فيه.

وفى العشرين من شهر أكتوبر سلم الأب أليساندرو ابنه إلى مدير المدرسة بعد أن احتضنه وطبع قبله على جبينه فى عذوبة الأب ورقته.

وفى أعقاب انصراف الأب إليساندور اصطحب أحد الأساتذة التلميذ الجديد إلى فناء المدرسة كى ينخرط فى صفوف وحلقات اللعب واللهو التى لا يكف الطلاب عن ممارستها أثناء أوقات الراحة والاستجمام.

كان بنيتو ذو الطباع الجافة الخشنة ينظر إلى التلاميذ شذراً يتعجل الصدام معهم، ونصب مناصبتهم العداء السافر بسلوكه الاستفزازي الطائش.

لم يكن بنيتو على استعداد للاستذكار والتحصيل حيث كان يمقت المدرسة ويكره أساتذتها، ولا يطبق رؤية كهنتها، ولا يسعى إلى التعارف مع زملائه أو مشاركتهم المزاح واللهو والحفظ والاستذكار.

ويقال أن التلميذ الوحيد الذي توطدت العلاقة بينهما كان يتصف بضخامة بنيانه الجسدي ورأسه الكبير، وكان يسمح لبنيتو فقط بضربه بالعصا للترفيه عن نفسه وإهدار الوقت!!

كان موسولينى قد ضاق ذرعا بالمدرسة لما تميزت به من صرامة وانضباط ولم يكن هو من الذين يألفون ذلك، وفضلا عن مظاهر الثراء الفاحش البادى على ثياب ومأكولات ومصروفات طلابها فيما كان هو يتضور جوعاً ويشكو إفلاسا، الأمر الذى دفعه للبحث عن مهرب من هذا المكان على نحو عاجل.

لكن حالت القيود الصارمة والحراسات المشددة والرقابة الجادة فى دون نجاح مخططات بنيتو، ومن ثم ألزمته بالبقاء قسراً بداخلها يعتصر ألما ويكتوى من نيرانها الملهبة على أمل قدوم إجازة الصيف.

وحين ضاقت به السبل ولم يعد هناك بصيص أمل يدفعه لنجاح خطته فى الهرب قرر بنيتو المشاكس العنيف اللجوء إلى ممارسة الشغب وافتعال المشاجرات والمشكلات، وإشعال الخلافات لأسباب ساذجة لعله بذلك يدفع إدارة المدرسة إلى فصله وطرده منها، وكان أن تلقى ذات مرة صفعة على وجهه على يد

أحد الكهنة، الأمر الذى ألهب مشاعره وأجج أحاسيسه، وثار وفار، وراح يقذف الكاهن بإحدى المحابر رداً على صفعته!!

لكن إدارة المدرسة اضطرت إلى معاقبة الكاهن لما اقترفه فى حق الطالب وألحق به الأذى بين زملائه، ومن ثم برأت الإدارة ساحة بنيتو الذى تضايق، حيث كان يتطلع إلى فصله وشطبه من قائمة طلابها.

وبعد أسبوع من تلك الواقعة افتعل بنيتو مشاجرة مع أحد زملائه ربما تنتهى أحداثها بفصله، وكان أن أخرج موسى من سترته وطعن به زميله الذى سقط مدرجاً فى دمائه مما أثار الفزع والهلع فى أرجاء المدرسة.

كان الطلاب والأساتذة والكهنة قد اجتمعوا فى حلقات نقاشية يطالبون الإدارة المدرسية بفصل بنيتو والتخلص منه إلى غير رجعة، حيث إن أخلاقه السيئة وتصرفاته المشينة لم تعد تحمل بعد أن كثرت وتعددت.

وفى اجتماع عاجل قررت إدارة المدرسة فصل بنيتو واستدعاء أحد أبويه لشرح الأمر واستلام ابنهما، بيد أن سحابة من الحنان قد مرت على مدير المدرسة الذى وجد نفسه غير مطمئن لهذا القرار الخطير، لما له من تداعيات قد تدفع الطالب إلى ممارسة العنف والإجرام، وربما يتحول إلى شخص غير مسالم إذا لم يتكاتف الجميع ويتعاونوا معاً لمساعدته ومعاونته والقضاء على العوامل التى تدفعه لانتهاج هذه التصرفات الطائشة.

لكن بنيتو لم يكن لينصاع ويستجيب وينجذب لمن حوله، حيث كان عنيداً صلباً لا يميل إلى الهدوء والوداعة بل كان يتلذذ بممارسة كافة صور العنف

والبلطجة لافتاً بذلك أنظار الآخرين، وقد صار حدوته تتناقلها أفواه الطلاب ويريها الأساتذة بين مستغرب ومستاء.

ومضت أيام بنيتو على هذا النهج الشاذ القبيح حتى انتهى العام الدراسي فقررت الإدارة المدرسية عدم قبوله مرة أخرى، وتسليم ملف أوراقه لوالده الذى لم يكن ذلك القرار مفاجئاً له بل إنه استغرب تأخر صدوره!!

وكان خروج بنيتو من المدرسة مدعاة للبهجة ومصدراً للارتياح والشعور بالرضا بين صفوف المدرسين والطلاب على حد سواء، حيث اتفق الجميع على أن المدرسة لم تشهد لهذا الطالب مثيلاً من قبل منذ تأسيسها.

وعلى أثر القرار المدرسى حمل الأب المسكين أليساندرو ملف ابنه بنيتو وتوجه به إلى مدرسة أخرى تسمى جيوسوى كاردوسى (وهى تحمل اسم أشهر شعراء إيطاليا كاردوسى الذى نال جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٠٦) لكن مشاجراته ومعاركة التى مارسها وانتهت إحداها بطعن أحد زملائه بآلة حادة كادت تصرعه حتى أصدرت الإدارة المدرسية قراراً عاجلاً وصارماً يقضى بطرده وفصله نهائياً من المدرسة.

لكن توصلات الأب واستجداء عطف المسؤولين كان له أبلغ الأثر فى التراجع عن تنفيذ قرارها، ومن ثم عاد بنيتو يلتحق فى فصولها، بيد أن الإدارة اشترطت على الأب أن ينضم إلى الفصول النهارية، حيث كان وجوده ليلاً داخل المدرسة يشكل خطراً قادحاً على أرواح التلاميذ وأساتذتهم، وهو ما استجار له الأب ولم يجرؤ على إيداء رفضه واعتراضه.

أما الطريف فى كل هذه الأحداث التى مرت خلال مرحلة الدراسة أن بنيتو المشاغب العنيف كان يملك القدرة الفذة على سرعة التحصيل والحفظ، ومن ثم كان يحصل فى نهاية كل عام دراسى على درجات مرتفعة تثير الدهشة والاستغراب والذهول .

ولكن بنيتو كان يعرف ما يختزنه من مواهب ومعارف تعذر عليه البوح بها والكشف عنها أمام الآخرين رغم ما اشتهر به فى قريته منذ صغره بميله الشديد للوقوف طويلاً على رابية قريبة من قريتهم، حيث كان يلقي من خلالها خطبه الحماسية أمام أقرانه وزملائه.

كان بنيتو أيضاً يميل إلى القراءة والاطلاع لتثقيف نفسه، بل كان لا يمل من قراءة الشعر وحفظ أبياته سواء كانت وطنية أو حتى عاطفية بيد أن بنيتو كان رغم ما اشتهر به من عنف وغلظة فقد كان فى حاجة ماسة لمن ينفذ عنه غبار سلوكه ويميط اللثام عن مواهبه الخطابية وميوله الأدبية التى تسكنه منذ صغره .

صحيح أن أفراد أسرته وبعضاً من أهالى قريته كانوا يرقبون مواهبه وينشدونه فى إخلاص ضرورة التعبير عنها لأساتذته إذا لاحت أمامه اللحظة المناسبة دون تردد أو تخوف من مردوداتها إذا أخفق أو حتى فشل .

وحدث أن جاءت اللحظة وتجلت الفرصة حين وقع عليه اختيار أستاذه لكى يلقي بصوته الجمهورى خطاباً حماسياً وبلغاً بمناسبة إحياء البلاد لذكرى وفاة الموسيقار العبقري الإيطالى الشهير جيوسى فيردى (١٨١٣ - ١٩٠١)، الذى قدم للمسرح الغنائى والموسيقى أروع وأجمل إبداعاته ومؤلفاته، والتى

تصدرها موسيقى أوبرا (عايدة) التى تعرضها مصر لجذب أنظار العالم للتاريخ المصرى القديم.

وبالطبع استطاع بنيتو توظيف هذه الفرصة وراح بملابسه الأنيقة، وطلاقة لسانه، وحلاوة بيانه يلقي خطاباً مطولاً استعرض خلاله تاريخ الموسيقى فريدى وأعماله الرائعة التى شغفت القلوب وأرهفت الأذان وسحرت الأبواب، حتى لاقت خطبته قبولاً واسع النطاق فى صفوف الحضور من الطلاب والأساتذة والمستولين.

وربما كان لهذه الواقعة أثو بالغ فى غرس بذور الثقة والطمأنينة فى رأس بنيتو الذى ذاع صيته واشتهر اسمه، ولمع نجمه بوصفه خطيباً مفوها لا يشق له غبار.



ما من شك أن ذلك النجاح قد أرغم بنيتو على أن ينحى منحى سلوكيا آخر، وأن يتمكن من لجم انفعالاته الطائشة والمزعجة، وإن كان قد تمسك بآلته الحديدية التى كان يخبئها فى طيات ملابسه بصورة دائمة تحسباً لأخطار قد تحدث به فى أى وقت.

ولكن هل تغير بنيتو وتبدلت أحواله؟! أغلب الظن أن ما طرأ على مظهره من هدوء وصفاء كان مصطنعاً وزائفاً ومكشوفاً حيث كانت أعصابه تتور رغم ادعائه التغير لائقه الأسباب، وكثيراً ما كان يشهر آلته الحديدية لطعن من أراد أو حاول الاشتباك معه.

لكن على الجانب الآخر للإنصاف فقد مضت سنوات دراسته رغم مشاجرته وانفعالاته وسلوكياته الفوضوية بصورة تدعو للدهشة، حيث كان يحصل على درجات جيدة في أغلب الأحوال، ومن ثم حصل على شهادة دراسية تضمنت درجات مرتفعة تؤهله للعمل مدرساً في إحدى دور التعليم. وهكذا حصل بنيتو على الشهادة الدراسية بعد نحو تسع سنوات من التحصيل الدراسي، حيث اجتاز الامتحان النهائي وهو في الثامنة عشرة من عمره.

* * * *

وفي أواخر عام ١٩٠٢ أعلن عن وظيفة شاغرة تنتظر من يشغلها إذا توافرت لديه الشروط، وحيث إن بنيتو كان قد حصل على الشهادة النهائية فقد أثر الالتحاق في تلك الوظيفة الشاغرة للبدء في صعود درجات السلم الاجتماعي والسياسي بعيداً عن حياة العبث والفوضى والمحسوبية التي استولت عليه، وألقت بظلالها طوال السنوات المنصرمة.

كانت أعداد غفيرة قد تقدمت بأوراقها لشغل هذه الوظيفة بيد أن أعضاء مجلس «كوميون» ببلدة جوالييتري قد وقع اختيارهم عليه لشغل وظيفة العالم في مدرسة بيبقي دي ساليستو إعجاباً منه وامتناناً بموقفه وإرادته وخطبه ومواقفه التي عبر عنها كثيراً بين أقرانه وزملائه حتى ذاعت شهرته وبلغت أسماع الغير ممن لا يعرفهم.

* * * *

الفصل الثانى

رسول العنف

لم يكن بنيتو ذاك الصبى العريد الهمجى الفوضى يتورع عن ممارسة أية سلوكيات إجرامية فجأة وسافرة، كالجنس وتعاطى الكحوليات، وافتعال الشجار، واللجوء إلى السلب والنهب والاحتياى، بل والاغتصاب إذا دعت الضرورة له متذرعاً بالفقر والإفلاس والجوع الذى ظل يطارده ويلاحقه طوال سنوات حياته الأولى.

الشاهد أنه أخفق فى أداء مهام عمله داخل مدرسة يبنى دى سالىستو لعجرفته وغروره، وضيق صدره، ونفاد صبره، وعصيانته وتمرده، وخروجه دوماً عن آداب اللياقة والذوق واحترام الآخرين، الأمر الذى دفع الإدارة إلى إقالته لإنهاء معاناة زملائه وطلابه الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً به.

والواقع أن بنيتو كان هو الآخر قد تملل وتسرب إليه اليأس حيث لم يكن ميالاً إلى الالتزام والانضباط والربط، والرضوخ للوائح والتعليمات ومسميات التشريعات الوظيفية المتنوعة، حيث كان أشبه بشور هائج أو حصان جامح لا يطيب لهما العيش داخل حظيرتهما، وينشد كل منهما الانطلاق والهرولة نحو آفاق بعيدة، وهو ما كان عليه بنيتو منذ نعومته.

وما من شك أن بنيتو عانى وكابد كثيراً سوء الأحوال، وقد روى فى مذكراته بعضاً من متاعبه ومصاعبه التى ظلت ساكنة فى نفسه لا تبارحها حتى

وهو على رأس السلطة فى إيطاليا لا سيما المرحلة التى كان يعمل فيها عاملاً فى مجال العمارة والمقاولات بعد أن ترك العمل المدرسى حيث يقول بالنص:

«نحن نعمل حوالى إحدى عشرة ساعة فى اليوم ونتقاضى ٣٢ ستما فى الساعة، وقد قمت بمائه وإحدى وعشرين رحلة أحمل مقطفا مليئاً بالحجارة أصعد به إلى الطبقة الثانية من بناء نقوم بتشيدته، وكنت أرى عضلات ذراعى وقد تورمت فى المساء، فأتناول عشائى من البطاطس المشوى فى الرماد، ثم أقذف بجسدى المنهك على فراشى الذى لا يعدو كومة من القش، وأفيق من نومى فى الخامسة من الصباح التالى لأعود إلى العمل، والغضب الرهيب يعصف بكيانى لعجزى عن أن أفعل شيئاً لإصلاح وضعى.

ولقد جنت من تصرف معلمى... فعندما حل مساء السبت... ذهبت إليه أطلب أجرى فقد قررت أن أترك عملى، ومضى إلى مكتبه وظللت أنتظره فى البهو... وسرعان ما دلف إليّ ثانية وخرج يلقي بشيء من الغضب الذى لم يحسن إخفائه بعشرين ليرة وبعض الستات فى يدي وهو يقول: «ها هى نقودك وإنك لتسرقها» وتصلبت فى مكانى وكأنى تمثال من الحجر، ماذا أفعل لهذا الرجل؟ هل أقتله؟ ولكن ماذا فعلت حقاً؟ لا شيء ترى لماذا؟ كنت جائعاً وكنت حافى القدمين فقد أتلفت زوجاً من الحذاء وأنا أصعد درجات البناء التى ورمت يدي وقدمى».

هكذا كان يعمل بنيتو فى مستقبل العمر وهى النشأة القاسية التى كانت لها مردودات خطيرة على مشاعره وعوظفه وأحاسيسه فتحول إلى وحش كاسر يبتغى على نحو أو آخر أن يتقم من الجميع.

تأمل مشاعره الجافة الحادة حين استولى عليه الجوع فانقض على سيدتين ينهب منهما الطعام قائلاً بالحرف: لم أستطع أن أمنع نفسي فهاجمت إحدى العجوزين وخطفت الطعام من يديها، وأؤكد لكما أنهما لو حاولتا المقاومة لخنقتهما، أجل لخنقتهما.

والحاصل أن هذه الحادثة الخطيرة قد وقعت في مدينة جنيف السويسرية حيث كان جائعاً مفلساً لا يقوى على مقاومة مواء معدته، فاضطر تحت ضغط الحاجة ووطأة الافلاس إلى أن يتهجم على سيدتين إنجليزيتين وقد هاجر إلى سويسرا عام ١٩٠٣ بعد أن ضاقت به السبل في بلاده لعله ينهض بمكانته وينطلق إلى آفاق أوسع وأرحب بدلاً من تلك الحياة القاسية الخشنة العنيفة.

وروى بنيتو موسولينى في مذكراته أنه كان يعمل مساعداً لأحد القضاة مقابل أجر بخس، ثم سرعان ما نشب بينهما خلاف حاد حول قيمة الأجر، ترك بنيتو على أثره العمل ليلتحق في وظيفة أخرى في محل خمر، وكانت تدور مهمته في توزيع زجاجات الخمر إلى المنازل وفق متطلبات الزبائن.

وكما جرت العادة لم يحتمل بنيتو متاعب العمل وأجوره الزهيدة فاضطر إلى افتعال أزمة مع صاحب محل الخمر وانصرف يبحث عن عمل آخر لعله يتمكن من سد حاجته وتلبية رغباته وأهوائه.

وكان أن حصل على وظيفة داخل مصنع شيكولاته وتخصص في نقل وتوزيع علب الشيكولاته على الشركات والمحلات والبيوت، بيد أنه انقطع عن مواصلة العمل بعد تزايد شكاوى العملاء ضده، لسوء سلوكه وسلطة لسانه وخشونة طباعه.

ولأن بنيتو الذى انتقل إلى سويسرا عام ١٩٠٣ كان وحيداً شريداً يعيش بمفرده بعيداً عن أفراد أسرته الذين كانوا فى حاجة لمن يمد لهم يد المساعدة فقد قاسى الأهوال فى غربته لا يدرى أين المفر حتى وجد نفسه مدفوعاً لممارسة التسول والبلطجة، ونهب ما يتطلع إليه، الأمر الذى اضطر السلطات السويسرية لإلقاء القبض عليه وايداعه السجن أكثر من مرة.

لكن بنيتو لم يكن من هذا النوع الذى يرهبه السجن والسجان، فقد كان يكره الدنيا ولم يعد هناك ما يبكى عليه فى هذه الغربة الموحشة الباردة التى دفعته فيما بعد ليكون أشبه بوحش أدمى والاما معنى تلك الواقعة الرهيبة التى أوردها فى مذكراته والتى تحكى قصة اغتصابه لإحدى الفتيات دون أن يهتز له رمش أو تتحرك فى رأسه شعرة لحسرة أو ندم عما ارتكبه فى حق تلك المسكينة وغيرها ممن اغتصبهن وهو فى شرح الشباب بمعاونة بعض رفاقه من البلطجية وعتاة المجرمين.

تأمل ماذا يقول الرجل فى تفسيره لتلك الواقعة المريعة: لم تكن تلك الفتاة من العاهرات، وكانت تدعى فرجينيا وهى فتاة فقيرة ولكنها ذات وجه جميل.. أجل كانت جذابة إلى حد كبير.. وفى ذات يوم صعدت معها درج المنزل وقذفت بها إلى الأرض ثم افترستها.. وعندما انتهى كل شئ.. كانت تبكى بحرقة.. وتنهال على بالسباب قائلة أننى انتهكت عرضها.. أنا لا أنكر ذلك.. ولكن أى عرض هذا؟!

هذه عينة قبيحة من حياة هذا الرجل الأرعن السكير البارد الذى لا يتورع فى الاستشهاد بمثلها فى فخر واعتزاز وتبرير لجوع قاتل كاد يفتك به لا سيما

حين قرر مغادرة إيطاليا متجها إلى سويسرا عام ١٩٠٣ ، وكان يحمل فى جيب سترته صورة من النيكل يتصدرها كارل ماركس ، وكان كما أشار فى مذكراته الخطيرة ينام على كومة القش الحشن المفروشة تحت أحد الجسور أو بجانب مبنى المرحاض العام بمدينة لوزان .

أضف إلى ما سبق استعراضه الفج فى علاقاته الغرامية العنيفة مع العاهرات والغانيات وبنات العائلات وطريقته الممجوجة فى التعامل معهن ، وكيف كانت تنتهى تلك العلاقة مع هذه النسوة الساقطات؟! كان الضرب المبرح من نصيبهن بالطبع وفق رواياته!



وينبغى أن نقر رغم مساوئه وعيوبه أنه كان شخصا مثيراً للدهشة والتأمل لثقافته وعشقه للقراءة والاطلاع ومتابعة الشأن السياسى ، صحيح أن سلوكياته المستفزة تتعارض بغير شك مع طموحاته السياسية التى راودته منذ صغره وتسكنه بل وتتمدد بداخله .

نهايته . . فيبدو أن هذا من شيم الطغاة المستبدين حيث كان محمد على باشا معروفا بقوته بين أبناء قولة ، وكثيرا ما كان يهرب أولادها ويثر فزعهم ومخاوفهم حتى كان أقرانه يسمونه الزعيم ، لما عرف عنه من قوة وبأس ويطش وعنف .

أما نابليون بونابرت فعلى الرغم من قصر قامته ونحافة جسده فقد تميز بالقسوة والغلظة والوحشية مع أطفال أجاكسو مسقط رأسه ، حيث كان عنيفا فى

شجاره، شجاعا فى عراقه، لا يتوانى فى إلحاق الأذى بأطفال جيرانه، وعلى الرغم من ذلك فقد كان نهم القراءة كثير الاطلاع، يعشق السياسة.

وهناك الزعيم النازى هتلر الذى لم يكن يكف عن الشجار والعراك فى شوارع فينا وغيرها، وكثيرا ما أفسد مؤتمرات سياسية ببطشه وغلظته، ورغم ذلك كان يميل إلى الشأن السياسى والانخراط فى صفوفه!!

أما جوزيف ستالينى فقد روت والدته أنه فى صباه كان قد اعترض ساعى البريد حين نما لعلمه أنه يحمل فى دراجته حوالات مالية فاعتدى عليه، وسدد له عدة لكمات، واستولى على دراجته وأمواله، الأمر الذى اضطرت معه والدته لإرساله إلى الكنيسة لعله يتعظ، دون جدوى.

وقس على ذلك صدام حسين الذى قتل فى بواكير شبابه العديد من خصومه الذين اختلفوا معه فى الأعمال الحزبية، وكان مصيرهم القتل على يديه عقابا لهم لجسارتهم على الاختلاف معه!!

إنها إذن من طبائع الطغاة والديكتاتورين المستبدين الذين يعانون جميعا صعوبات النشأة والتكوين فى سنوات الطفولة والصبا، وهو ما يبرهن على أن هؤلاء التعساء الذين يحكمون بلادهم بيد من حديد كانوا فى الأساس مرضى نفسيين يعانون مطاردة دائمة من شبح الجوع، وخوف لا ينتهى من الفقر والفلس والنوم على الأرصفة وتحت الجسور، وقد روى نابليون فى مذكراته التى كتبها فى منفاه بجزيرة سانت هيلانه أنه كان يتضور جوعاً ويعتصر ألماً من أجل عجزه عن الإنفاق على أشقائه اليتامى، وقد استبد به الفقر حتى اضطُر إلى أن يبيع ساعة يديه وكتبه التراثية، وينام داخل حجرة حقيرة، ويتناول وجبة

طعام واحدة، حتى أصيب بهزال وضعف شديد فى بنيته الجسديه دفعه للعودة إلى أفراد أسرته لتلقى العلاج وتناول الطعام الصحى لاسترداد عافيته بعد أن تحول إلى مجرد شبح فى ثياب إنسان!!

تأمل ماذا صنع نابليون بعد أن دانت له السلطة؟ أذل أعناق الرجال، وأشاع الظلم، وكرس الاستبداد والطغيان، وأسند لأشقائه عروش أوروبا، فصاروا ملوكا على إيطاليا وهولندا والنمسا وفرنسا، وحتى ابن عشيقته تولى على يديه مملكة بروسيا، وأمه التى لم تكن تدرى ماذا يجرى من حولها أصبحت الملكة على ملوك أوروبا من آل بوناپرت!

ومحمد على الذى تولى حكم مصر، ثم تمكن من توسيع حدودها حتى بلغت حدود تركيا وإيطاليا، وامتدت لتشمل الحجاز والسودان والشام واليونان، وورث أبناؤه كل هذه البلدان بعد أن حكمها بالحديد والنار ناهيك عن معاناة تلك الشعوب وويلاتها وعذاباتها على يديه.

وحدث بلا حرج عما بدر من صدام حسين الذى اكتوى الشعب العراقى من سياطه الرهيبة وسجونته التى كانت أشبه بالسلخانات حتى كاد الديكتاتور الذى لا يجرؤ كائن من كان على أن يتبادل معه النظرات أن يورث الحكم لأولاده لولا تدخل العناية الإلهية لتطوى صفحة على نحو يدعو للثناء والشفقة لمن أراد أن يتعظ ويعتبر.

إنها حياة الطغاة والظلمة التى كانت لنشأتهم، هى كلمة السر فيما تنطوى عليه أنفسهم ومشاعرهم من وحشية وميول عدوانية لممارسة العنف واستخدام البطش فى تأديب وتهذيب شعوبهم، وكأن هذه النماذج أرادت أن تلوم

شعوبها وتحملها مسئولية نشأتها الفقيرة البائسة، وكأنهم يتساءلون في أنفسهم... لماذا

أيتها الشعوب تركتمونا نتضور جوعاً ونلتحف العراء، خذوا جزاءكم هذا ما تستحقونه... ألا يكفيكم ما واجهناه في طفولتنا وصباننا وشباننا من أجل إسعادكم؟ ولماذا لا تقاسون وتكابدون وتعذبون كما قاسينا وكابدنا وتعذبنا؟!

نماذج أرى أنها ما كانت تستحق أن تسبوا مراكز صنع القرار، حيث إن أمراضها النفسية قد كان لها انعكاسات مؤثرة وخطيرة على مستقبل شعوبها ومصائر أوطانها، فلو كان هؤلاء أسوياء ما عانت شعوبهم وقاست على أياديهم العذابات والويلات والنكبات.

وأظنها ليست مصادفة أبداً أن تتعرض فرنسا لحرب واسعة النطاق مع جميع بلدان أوروبا لتتكشم في حدودها بعد أن حصدت حروب نابليون ملايين الأرواح من الجنود الفرنسيين التعساء، بغض النظر عن الجرحى والمعاقين، لتحول فرنسا بعد الحصار الأوربي إلى مجرد دولة تتحرك وفق حسابات جاهزة وخطط معدة سلفاً على يد ملوك أوروبا.

كما أن مئات الآلاف الذين ساقهم محمد علي في حروبه التوسعية، وحصدتهم مدافع الحلفاء لتراجع جيوشه ويلحق مرارة الهزيمة المفجعة، وما كانت لتحدث لولا أنه استعبد الأمة، وألقى بها في أتون الجحيم المستعر بوصفه الأب والزعيم والملهم والحاكم والمخلص والمنقذ.

ناهيك عما جرى لألمانيا وإيطاليا على يد الفوهرر هتلر والدوتشى
موسولبنى على يد الحلفاء، وحجم الخراب الهائل والملايين التى سقطت
ولفظت أنفاسها بفعل القنابل والصواريخ والمدافع .

وهى مأساة لا يغفل عنها أحد، وقد كانت كارثة مروعة دفعت أوروبا على
وجه التحديد ثمننا فادحاً لها من خيرة شبابها وأموالها وتراثها وخيراتها وكنوزها
ونقائسها ومعنوياتها لا تزال تتألم منها حتى تلك اللحظة .

دعك من صدام حسين وما اقترفه فى حق العراق الذى انقسم وتمزق
وتبعثر، وأصبح أشلاء ينقض عليها الذئاب، وتمسك بعظامها الكلاب،
وتنهشها النور الجارحة بفضل سياسته الحمقاء، والتى استمدها من نشأته
الفقيرة التى لم تكن تخلو من الجوع والعراء، والحاجة الملحة دوماً للطعام
والملبس فى مجتمع لم يكن يعيره اهتماماً، فكان جزاؤه أن يفتح نيرانه عليه،
ويلجم ألسنته، ويكتم أفواهه، ويقطع أذنه، ولتدفق فيضانات الدم فى
حروب لا طائل من ورائها سوى السعى إلى زعامة على حساب من تسببوا فى
تجويعه وتكدير صفوه صغيراً .

* * * *

صحيح أننا لا نؤمن بالتمييز الطبقي والعرقى، أو أننا نميل إلى تغليب الطبقة
الأرستقراطية على حساب الطبقة المتوسطة والتحتية، أو أنه لا سبيل لتكريس
قواعد العدل ونظم المساواة إلا عبر هؤلاء الذين ينعمون فى أسرة من فراش
حرير منذ صغرهم .

بل إننى أكاد أجزم أننا لا نغفل إلى هؤلاء الميسورين ولا أولئك البائسين، فالأمر فى ظنى لا يتعلق بشراء فاحش، أو فقر قارص بقدر ارتباطه الوثيق بنشأة طبيعية متوسطة، حيث حنان الأم وعطاء الأب ومحبة الأشقاء من أهم مقومات النشأة السوية.

على سبيل المثال كانت وفاة والد نابليون بونابرت وافتقار الأسرة لعائلتها الوحيد وتفككها بعد رحيله بعد أن اجتاحت الفقر أفرادها كان من أهم العوامل التى دفعت نابليون بونابرت إلى تعويض أشقائه ما تكبدوه فى سنوات طفولتهم على حساب فرنسا بل أوروبا.

وبالطبع كانت وفاة والد محمد على وهو فى سن مبكرة وتكفل عمه طوسون بتربيته ثم رحيله هو الآخر عن الدنيا ليتربى محمد على فى كنف والدته المسكينة التى كانت فى حاجة لمن يشد من أزرها أمام تحديات الحياة وأعبائها، كان بغير شك عاملاً مؤثراً على أعصاب محمد على الذى عانى فى طفولته وقاسى منها الأهوال.

ثم إن وفاة والد الزعيم النازى الفوهرر أدولف هتلر، واضطرار والدته إلى العمل كخادمة فى أحد بيوت مشاهير اليهود الأثرياء، وحرمان أدولف من عطاء أبيه وحنان أمه التى كانت تعمل وتكافح من أجل تربيته، قد كان بالفعل عنصراً بالغ الأهمية فى التأثير على معنويات أدولف هتلر الذى كان كثيراً ما يبكى عندما تغادر والدته مسكنه كل صباح من أجل ألا تفقد عملها كخادمة، وحين كبر أدولف وراح يسأل والدته عن وجهتها كل صباح كانت تجيب بأنها

تعمل لدى سيد يهودى، فكان ييكى لوحده وغربته وإذلاله وحرمانه، ثم سرعان ما تحول بمرور الوقت إلى حاكم الأمة الألمانية، وراح يتقم من الشعب الألمانى ومن أوروبا، وفى طليعتهم اليهود الذين تسبوا كما ظن فى حرمانه من والدته!!

وصدام حسين قيل أن وفاة والده المبكر وزواج والدته من غيره كان وراء ميوله العدوانية العنيفة التى ألفت بظلالها فيما بعد على الشعب العراقى والعربى هروبا من تلك النشأة البائسة وانتقاماً من شهودها.

وحتى نبرهن على أن الأمر لا يتصل بهؤلاء البؤساء فحسب، بل إن الملك فؤاد كان حاكماً غاشماً ظالماً مستبداً وعنيداً ومحتالاً بفضل نشأته الفقيرة المتواضعة، ورغم أن والده كان الخديوى إسماعيل بعد أن كان مفلساً جائعاً كثيراً ما يقترض وينهب ويسلب حتى ذاع صيته بوصفه الأمير اللص الذى لا يتورع عن ارتكاب أية حماقات.

ويروى المؤرخون أن فؤاد تزوج من الأميرة شويكار ذات الشراء العريض أماً فى الاستيلاء على قصورها وأموالها وثرواتها لسد رمقه وسداد ديونه بعد أن افتضح أمره، وتلطخت سيرته واسودت صورته، وبات بين أهله وقومه منبوذاً مرفوضاً مكروهاً ممقوتاً!!.

وحين شاءت العناية الإلهية أن يتبوأ عرش المملكة المصرية استطاع وهو الذى لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئاً أن يستولى خلال سنوات حكمه على أكثر من مائة ألف فدان، وغير ذلك من أموال لم يكن له الحق فى

الاستيلاء عليها، فتضاعفت آلام الناس، وتوحش الفقر فى صفوفهم، وتوسع البؤس بينهم، ورفعوا أكف الضراعة يصرخون أين المفر وأين الخلاص؟.

ولو كانت نشأة فؤاد سليل العائلة العلوية طبيعية ما كان ليتزوج من شويكار ابنة عمه لاستغلالها وامتلاكها ثم نهب ثروات الشعب، وسلب خيراته وأطيانه دون أن يعبا بما تكابده جماهير الأمة المسكينة جراء تصرفاته وسلوكياته الإجرامية المرفوضة.

إذن الأمر كما أريد أن أقول لا يتعلق بالثراء أو النشأة الناعمة بقدر ما يتعلق بحياة طبيعية أياً كان ذلك، بغض النظر عن الفقر، حيث إن هناك من عاش فقيراً لكنه لم يكن ناقماً أو حاقداً أو طامعاً أو حاسداً، بل كان قانعاً راضياً شاكراً حامداً.

الرئيس جمال عبد الناصر رغم نشأته المتواضعة و وفاة والده المبكرة رحل عن الدنيا لا يملك من حطامها سوى حب الجماهير، ولم يورث لأولاده شيئاً يستحق الذكر والانتباه له.

والرئيس أنور السادات لحق به لا يملك سوى ثمانية أفدنة فقط لا غير وبيت فى ميت أبو الكوم مسقط رأسه، ولم يكن فى الحسابات المصرفية ما يتطلب أن نهتم به.

والرئيس حسنى مبارك سوف يلحق بهما وهو صفر اليدين إلا من كسبه الطيب الذى لم يلوث، حيث كانت نشأته تتسم بالدفء والعطاء والحنان والرضا والحب، ومن ثم عاش الرجل عفيفاً وسيرحل نظيفاً رغم ما تتلوكة أفواه

الجهلاء حول سيرته، وهو من كل هذا براء، وسوف يشهد له التاريخ بذلك
أجلاً أو عاجلاً.

* * * *

أطلت . . أعلم ذلك، لكن الأمر كان يملئ على القلم أن يستدعى بعضاً
من نماذج شهداء التاريخ للتأكيد على أن نشأة بنيتو موسولينى وأمثاله هى من
أهم مقومات وعناصر استفحال الذات والعظمة فى داخل هؤلاء الذين كانوا
من طفولتهم وصباهم من التهميش والتحقير واللامبالاة وعدم الاعتناء وغض
الطرف عنهم مهما كان قدرهم!!

المهم . . نعود أدراجنا لنقتفى معاً أثر خطاه وماذا صنع بنفسه فى تلك
المرحلة التى عانى فيها ما عانى . . حيث يروى هو فى أوراقه الخاصة بأن فى
أواخر صيف ١٩٠٣ أثناء وجوده فى سويسرا وبعد شهور كانت حافلة بالمخاطر
والتحديات والآلام كان بنيتو قد استطاع رغم صلافته وغروره الجامح أن
يستأثر بقلوب العمال الذين كان قد اقترب منهم وتوطدت علاقته بهم أثناء
العمل، حيث كان يروق لهم عصيانه وتمرده وجموحه حتى أن أغلبهم كان
يعتبر أن الشاب المتسلط بنيتو بوقاً وصوتاً ومنبراً لمن لا بوق ولا صوت ولا منبر
له وأنه يتحدث مع الجميع معبراً عن آلامهم وهمومهم وشكايهم، ويعبر
بكفاءة واقتدار عن سخطهم وتذمرهم، ويسخى على نحو أو آخر لكسر الجدار
العازل بين الاغنياء والفقراء، ويؤمن إيماناً جازماً بأهمية إذابة الفوارق والمساواة
ويكفر بكل ما يدعو لتمييز الأغنياء وعلو شأنهم.

وما من شك أن المفاهيم التي اعتنقها بنيتو موسولينى وروجها بين طبقة العمال قد أكسبته نفوذا واسعا بينهم بوصفه عاملاً يتسم دون غيره بالثقافة والعلوم والمعرفة، ويتمتع بإرادة صلبة تدفعه للإفصاح عما يكنه فى صدره دون أن تساوره هواجس ومخاوف تعرقل خطى حركته الرشيقة نحو دائرة النفوذ واللمعان.

على أثر هذا التطور اللافت فى حياة بنيتو بدأ يستشعر تغيرات ملموسة فى تلك المرحلة العمرية التي أكمل فيها عامه العشرين.

فى تلك الأثناء بدأ وجه الحياة الكئيب الأسود يتغير ويتحول إلى وجه مشرق ناصع أبيض لامع زاخر بالبهجة مفعم بالأمل، يتجلى على ملامحه مستقبل باهر، ومن ثم اختفى إلى غير رجعة شبح الفقر، وتبخر عفريت الجوع واندثر مارد الإفلاس وتلونت الدنيا بألوانها الزاهية، وبدا صيفها متساوياً مع ربيعها، فبدت وكأنها دنيا حافلة بالزهور والورود المتفتحة والبلابل والعصافير المغردة، يالها من حياة كانت شاقة وعسيرة، وما هى أضحت ناعمة رقيقة عذبة سهلة يسيرة لينة طرية.

من هنا تلقى بنيتو عرضاً كريماً قدمه العمال السويسريون إيماناً منهم بأهمية دوره وفصاحته ومن ثم عرضوا عليه أن يتولى سكرتير اتحاد عمال البناء والعمال اليدويين فى مدينة لوران، ولم تقف المهام التي كلفوه بها عند هذا الحد فحسب، بل طالبوه أيضاً بضرورة العمل الدؤوب على تحمل مسئولية الدعاية والإعلان.

بالطبع كان بنيتو يتأهب لتلك اللحظة التي كان يتوق لها، حيث كان قد سئم تلك الحياة التي أظهرته كمجرم وسفاح وعرييد وثلمل ومتمرد ومتسول وجائع ولص، وهو الذى كان يظن أنه على موعد مع المستقبل المزدهر المشرق.

راح بنيتو يتذكر ما قاله لوالدته أنه سوف يثير دهشة العالم يوماً، ما سوف يكون من أصحاب الشأن العظيم والمقامات الرفيعة، وأنه سيسعى جاهداً لى يبرهن على صدق مزاعمه التي أفضى بها أمام والدته وأقرانه وأشقائه الذين كانوا يترقبون خطاه بين يأس ورجاء.

ها هي اللحظة قد حانت لى يصعد الدرجة الأولى فى سلم اجتماعى وسياسى طويل يحتاج إلى التريث والصبر والذكاء والشجاعة والثقافة والمرونة وسعة الأفق وحسن الخلق.

ومن جانبه وافق بنيتو على هذا العرض الكريم أملاً فى حياة هادئة طرية، وهو المنصب الذى قدمه للمجتمع فى ثوب جديد يختلف اختلافاً جذرياً عن ذلك الذى كان يرتديه من قبل.

وفى ثوبه الجديد ارتدى بنيتو ثياب رجل يتسم بالعدوية والوداعة والرقعة، اتصفت ملابسه بحسن الهندام والأناقة، وبدا شأنه شأن أبناء الأسر الغنية حيث تجلت النعم على ملامحه ومظهره.

وإمعاناً فى النهوض بمستواه المادى، والإرتقاء بشأنه بما يليق ويستواء مع منصبه الجديد لجأ إلى الإعلان عن عزمه تعليم اللغة الإيطالية لمن يرغب فى اكتسابها وتعلمها مقابل حفنة من الفرنكات تدعم المرحلة الجديدة التي تتطلب قدراً من الذكاء والأناقة.

لم يكن ذلك هو كل ما يسعى إليه بنيتو، بل سعى جاهدا نحو الصحف السويسرية، وراح يكتب مقالات نارية تضمنت آراءه الحادة والعنيفة والمتطرفة، والتي تروج في جوهرها لتدشين مفاهيم جديدة للاشتراكية تعتمد على القوي والعنف وإثارة المشكلات.

ودعا بنيتو موسولينى أيضا في مقالاته إلى تصعيد العداء مع رجال الدين وإغلاق دور الكنائس لخطورتها على تفعيل العقل الذى استسلم لأصحاب النفوذ والجاه، وهو ما استسلمت له الكنيسة وباركته دون أن تتعرض له أو تطالب بمنعه وتجميده حرصا على محبة الشعوب المقهورة تحت عجلات الطغيان والاستبداد والظلم الاجتماعى الذى كان متفشيا على نطاق واسع داخل أوروبا عموما وإيطاليا على وجه الخصوص بوصفها مسقط رأسه ومركز الديانة المسيحية لنصارى أوروبا.



وراح ينبتو موسولينى يصقل موهبة القراءة والاطلاع وكتابة المقالات الصحفية بمواصلة مطالعة الكتب السياسية والفلسفية والاجتماعية لتحصيل أكبر قدر وافر من المعلومات والنظريات التى تمكنه من التعبير عما يجيش به صدره، والتوصل إلى أهدافه التى تتزاحم بها رأسه ويعجز عن شرحها وتوضيحها وتفسيرها.

كان بنيتو على يقين من أن القراءة والتشقيف والاطلاع والمتابعة هى أهم مقومات صعوده وظهوره وارتقاء سلم المجد والشهرة والنفوذ، ومن ثم انكب على قراءة ما تقع عليه عيناه فى نهم الجائع والظمان، ولهفة العاشق الولهان.

خلال تلك الفترة قرأ بنيتو مؤلفات عديدة متنوعة لكبار العلماء والأدباء والفلاسفة أمثال سترنير السياسى الألمانى الاشتراكى، والفيلسوف الألمانى نيتشه فيلسوف القوة، وشوبنهاور أشهر الفلاسفة الألمان والذى عرضنا واقعته الشهيرة مع أمه، كما قرأ بنيتو موسولينى للفيلسوف الألمانى الاشتراكى كارل جوهان كوتسكى، وفرديناد لاسال الذى كان أبرز مؤسسى الحزب الاشتراكى الألمانى والذى روج للنظريات والمفاهيم الماركسية والاشتراكية، داعيا فى مناقشاته ومناظراته ومؤلفاته إلى تدشين فواعدهما فى جميع أنحاء أوروبا، ولتكن ألمانيا هى المحطة الأولى لتلك الرحلة الطويلة، التى تستهدف فيما بعد العالم كله، وهو ما جرى بالفعل، حيث إن النظريات الاشتراكية قد انتشرت وتوسعت وامتدت حتى بلغت ربوع أوروبا وآسيا وأفريقيا، وأضحت ندا عنيذا وصلبا للرأسمالية الإمبريالية التى تصدت لها وحاصرتها وأجهضتها بعد أن كانت الاشتراكية قد توغلت واستفحلت كالورم الخبيث فى جسد الشعوب التى أسكرتها تعبيراتها العادلة وشعاراتها البراقة، وخطب زعمائها الذين ادعوا الزهد والتصوف والقناعة، وقد كانوا يقولون، ما لا يفعلون ولا حتى يؤمنون به على وجه الإطلاق.

قرأ بنيتو أيضا لقادة عظام وعباقره أمثال الأمير بطرس أليكسيفتشى وفرانسو بابوف وبلانكى، وكانت وجورج سوريل وفيخته، والفيلسوف الفرنسى لويان جوستاف، وجويو وبرودن وبيرتونى.

ويرى المؤرخون أن بنيتو موسولينى قد تأثر إلى حد كبير بما جاء فى كتاب «نفسية الجماهير» الذى ألفه الفيلسوف الفرنسى بوستاف لوبون، لما لمسه فى هذا الكتاب من أفكار ورؤى ونظريات وعبارات تجسد وتعبّر عما تختلج بنفسه

وذلك على عكس عزوفه عن كتاب كارل ماركس «رأس المال» حيث أشار إلى أصحابه أنه لم يعثر بداخله عما يتوافق يتواء وينسجم مع ما تشتعل به رأسه وتزدحم من أفكار ثورية فوضوية.



مع مرور الوقت لمع نجم بنيتو وذاعت شهرته، وبات حديث الصالونات والمتديات، وحلقات النقاش السياسية، ومحور اهتمام الدوائر النقابية والحزبية والصحفية لطلاقة لسانه وقوة بيانه خلال الخطب التي كان يلقيها على أسماع جماهير لوزان ويسرن.

ولم يكن ذلك فحسب بل كان قبله يتجه إليها الطلاب الروس الذين بهرتهم شخصيته القيادية الفذة، وقدرته البارعة في اجتذاب الآخرين من حوله، وكثيرا ما كان يقضى معهم أغلب أوقاته، يتجاذب معهم أطراف الحديث حول الشئون السياسية، سواء كانت في موسكو أو في روما، وما ينبغي القيام به نحو الدفع بتلك البلدان إلى الأمان عبر ثورة جماهيرية عنيفة تطيح بالنظم الحاكمة المستبدة.

كانت أفكار بنيتو موسوليني تتناغم مع معتقدات الطلاب الروس الذين اشتهروا بميولهم للعنف والغلظة واستخدام القوة في تفعيل رؤاهم وتطلعاتهم وأحلامهم نحو الوطن.

ومع تزايد شعبيته لقبه بعض أتباعه باسم «بنيتو شكا»، بيد أنه أبدى امتعاضه ومقته لهذا الاسم، على اعتبار أنه يعنى، شيئا من الدلال والميوعة على عكس ما كان يلقب نفسه بـ «رسول العنف».

ولم يكن بنيتو يخشى إظهار كراهيته للدين المسيحي، واعتقاده الراسخ بأنه أحد العوامل المسببة للإعاقة الذهنية، دون أدنى حرج أو مراعاة لمشاعر وعواطف ومعتقدات المؤمنين بها.

ويبدو أن بنيتو أراد من وراء ذلك إثارة الغضب وتسخين الأجواء ضده حتى يتصدر المشهد السياسى العام، ويتحول إلى حدوة تتلوها الأفواه، وهو الأمر الذى لجأ إليه العديد من الشخصيات البارزة التى كانت تسعى لنشر أفكارها الشاذة والصادمة والمؤلمة للشعوب، فى توظيف واضح للحرية والديمقراطية.

كان بنيتو يشعل نيران الغضب بهجومه الضارى على السيد المسيح وحواريه فى استفزاز فج، من للأسف استطاع استقطاب بعض من لم يقر الإيمان فى قلوبهم، فتبعوا خطاه كأنه نبي الإلحاد الجديد الذى ينافس لينين وأنجليز وماركس فى تهميش المعتقد الدينى، وإعلان المادية الحسية، على اعتبار أن الدين أفيون الشعوب، وأنه أهم مصادر الرجعية والتخلف والفشل.

وكثيراً ما صاح بنيتو موسوليني بأعلى صوته الجمهورى وسط مئات المواطنين الذين احتشدوا لسماعه قائلاً فى جراه سافرة: متى تأتى اللحظة لكى نثار للناس ونحررهم من أغلال الظلم والدين، ذلك الداء المزمع الذى يدمر العقول ويستولى على الأفئدة.

ويمضى بنيتو موسوليني الملحد فى خطبه النارية قائلاً دون أن يعبا بخطورة ما يتفوه به: ومن هو ذاك المسيح إذا لم يكن هو الرجل الوضع الصغير الذى أمضى زهاء عامين يجاهد لتغيير ديانة أهالى بعض القرى عن معتقداتهم

ودياتهم، لقد كان حواريه فى ظنى الاثنى عشر مجرد جهلة أفاقين، بل إنهم من حشرات فلسطين وحثالتها.

كانت خطبه الهجومية للدين المسيحى وللسيد المسيح وحواريه قد أثارت موجة عارمة من الغضب فى صفوف الجماهير السويسرية التى استنكفت أقواله.

وعلى إثر ذلك طالب رجال الدين المسيحى فى سويسرا بطرد هذا المهاجر الإيطالى خارج سويسرا والتخلص منه احتراماً للدين المسيحى، وتبجيلاً للسيد المسيح، وتقديراً للحواريين الذين حملوا أعباء نشر الدين المسيحى على كاهلهم حتى تمكنوا من توسيع دائرة المسيحية فى أرجاء العالم.

وانعقدت ندوات نقاشية مختلفة ومتنوعة فى شوارع وميادين جنيف وبيرون ولوزان، بعضها أعلن مشاطرة بنيتو الرأى، وطالبوه بعقد المزيد من الندوات والمؤتمرات لتمرير أفكاره الثورية على جميع المقدسات والمحرمات وفى طليعتها الدين المسيحى.

لكن على الجانب الآخر راح البعض من الذين روعتهم أفكاره واستفرتهم دعواته المتطرفة الرامية للقضاء على الدين وإغلاق دور العبادة وتصفية رجال الدين، حيث ندد هؤلاء بتلك الأفكار على اعتبار أن الحرية السياسية فى سويسرا تنطلق إلى الأمان دون أن يعرقل الدين خطاها السريعة، ومن ثم فلا محل لتلك الدعوات الهادمة والمخرية لعقول الناس.

وبين هذا الرأى وذاك تمكنت البهجة من نفس بنيتو الذى حقق يضع كلمات ما لم يكن يحلم به أو يتصوره، حيث كانت الجماهير الغفيرة تدعو للمضى

قدما فى الدعوة للتحرر والاستقلال، بينما كانت الجماهير الرافضة تتزوى بمرور الوقت، وكأن دعوته الإلحادية قد لاقت فى صدورهم هوى فيما بعد.

ومع تزايد شعبيته بين صفوف الشعب السويسرى وأضحى رمز الثورة والتحرر فى عيون الأجانب والغرباء الذين يقيمون فيها دفعه غروره إلى شن حملة هجومية قاسية وعنيفة نحو النظام السياسى الحاكم فى سويسرا، لا يبالى خلالها بوصفه أجنبيا مهاجراً لا ينبغى عليه الاقتراب من خطوط النظام الحمراء.

كانت سويسرا فى تلك الأثناء نموذجاً الواحة الحرية والديمقراطية فى العالم، حيث كان الحلم الذى يسعى الجميع إلى الوصول إليه، بيد أن موسولينى لم يكن تروق له الديمقراطية على الإطلاق، وكيف لمن كان فى طباعه المستبدة وطغيانه أن يؤمن بالحرية ويدعو لممارسة قواعد ونظم الديمقراطية.

وعلى صفيح ساخن راح بنيتو يهاجم النظام، ويطالب الشعب السويسرى بالتمرد والعصيان والخروج على نظامه، الأمر الذى دفع النظام السويسرى إلى ضرورة اتخاذ إجراءات عقابية صارمة حازمة لتأمين سلامة الوطن الذى بات مهدداً بأخطار جسيمة أثارها غلاة المهاجرين المستوطنين بداخله.

ورغم تهديدات الحكومة السويسرية له بالطرد والسجن إذا اجتاز الخطوط الحمراء فقد مضى يطلق أفكاره ودعواته الخطيرة ظناً منه أن شعبيته الجارفة سوف تكون حجر عثرة أمام صناع القرار السويسرى.

وفى إحدى خطبه تجلبت شجاعته بين الجماهير الغفيرة التى كانت تحمله على الأعناق يهللون ويهتفون بحياته، حتى صاح مهاجماً الحكومة السويسرية،

متهما شعبها بالرضوخ والسكون والوداعة قائلاً: «وهل تكون سويسرا إلا تلك الدولة الديمقراطية التي تصنع السجن، والتي لم تعرف الطريق إلى الثورة والاحتجاج تجهل عيها الكبير، وتظن على الدوام بأن ثورة الفلاح ويليام تل تكفى لتكريس وتفعيل مبادئ الديمقراطية وأدوات الحرية فى وطنها».

وعلى إثر هذا الخطاب الخطير تلقى إنذاراً ثانياً يتضمن تهديداً بمعاقبته بالحبس أو الطرد إذا لم يكف عن مهاجمة النظام الديمقراطى الذى تشهده سويسرا وتسعى لتدشينه واستمراره وتحديثه، غير أن بنيتو المغرور المستبد لم يكن يلتفت ويعبأ لمثل هذه الإنذارات اعتقاداً منه أنها من قبيل التهويل والتخويف، مشككاً فى قدرة السويسريين على معاقبته، وكأنه بات زعيماً لا يشق له غبار، ولا يجرؤ كائن من كان على المساس به، أو أن يلحق به أذى.

فى تلك الأثناء التى كان بنيتو قد بلغ خلالها العشرين من عمره كان قد اجتاحتته حالة هائلة من الصلف والغرور والكبرياء والاعتزاز بذاته، التى تضخمتم بعد أن لمس إلتفاف البعض من حوله، وإعجاب العمال المطلق بأفكاره ومعتقداته.

وللأنصاف كان بنيتو ابن العشرين ربيعاً والذى تقاذفته أمواج الفقر، وكادت اسمائها المفترسة تبتلعه لديه عذر ينبغى أن نشير إليه، حيث إن من استطاع أن يهجر وطنه وحيداً شريداً طريداً إلى وطن آخر فى سن مبكرة، سعياً وراء كسرة خبز، وأملأ فى حياة هادئة كريمة، وجرياً وراء أحلام براءة، وافترش الأرضية ونازع القوارض والحشرات مخدعها ومكسنها، ورغم كل هذه المآسى تمكن من تعبئة الجماهير والنقابات، وتسارعت نحوه الصحف إما

لدياجة المقالات أو للإدلاء بالأحاديث، حتى صار مركز اهتمام الجميع، ورمز الاستقلال والتمرد والعصيان وقدوة يهتدى بها الشباب السويسرى والأجنبى!

فمن كان فى بواكير العمر ومطلع الشباب ويملك هذه القدرة الفذة والعبقرية فما من شك أن الغرور والصلف والاستعلاء فى مثل هذه الحالة لا يعد مرضاً بقدر ما يعتبره البعض من الحكماء والعقلاء والمنصفين من طبائع الأمور لا من شواذها.

أريد أن أقول لو أن أحداً غيره لصنع ما صنعه بنيتو، لا سيما وأنه فى ذروة المراهقة وأوجها، ومن ثم لا يستحب اللوم والمؤاخذه فيها انتهجه فى تلك المرحلة.

حتى آراؤه الدينية ومعتقداته الإلحادية التى آمن بها وهو لم يكن قد بلغ عامه الثامن كانت نتاج بيئته ونشأته حيث أكد الرواة والباحثون أن والده كان ملحداً لا يابه بالطقوس الدينية، ولم يكن يحفل بالتعاليم والقيم والآداب التى كجانت تنادى بها الكنيسة، وأن الإلحاد كان متوارثاً فى تلك العائلة، فضلاً عن تأثره بوالده ذى الميول الثورية الاشتراكية، قيل: إن ألساندرو الأب كان قد اعتقل أكثر من مرة لهجومه العنيف على نظام الحكم فى إيطاليا.

يعنى أن بنيتو موسولينى لم يكن نبأ شيطانياً أو غريباً على التربة التى نما وترعرع وتظلل بها، حيث استمد معتقداته وأفكاره من متبع والده الثورى الذى كان يميل أيضاً للثورة والتمرد والعصيان.

غاية ما فى الأمر أن صاحبنا كان أكثر شجاعة وجسارة أملاً واستشرافاً لمستقبل مزهر ومشرق ومتفتح يسعى إليه لتطبيق ما يسكن رأسه من أفكار

ورؤى على عكس والده الذى اكتفى بكتابة بعض المقالات والمشاركة فى عدة مظاهرات سرعان ما اعتزلها بعد أن تعرض للاعتقال والتعذيب.

إذن بنيتو موسولينى الشاب الصغير كان نتاج أفكار والده سواء كانت تلك التى تتعلق بالمعتقدات الدينية الإلحادية، أو حتى التى هى وثيقة الصلة بالمفاهيم السياسية والثورية.



المهم أن بنيتو المغرور قد استهوته إنذارات الحكومة السويسرية، لعل ذلك يضاعف من جماهيريته ويكسب تعاطف الأمة وتأييد طبقة العمال بوصفه الثورى الفاشى الذى لا ترهبه السجون ولا تفزعه المعتقلات.

وراح يلقي خطبه عنيفه لاذعة وسط حشد هائل من الجماهير السويسرية والأجنبية تحت إشراف ورعاية نقابة العمال فى مدينة برن، وقبل أن ينهى خطبته الحماسية، والتى قاطعته الجماهير خلالها مرات عديدة إما للتصفيق إما للتهتاف وتريد عباراته البليغة أعلن بنيتو موسولينى فى ختامها دعوته للعمال السويسريين إلى إعلان الإضراب العام، وضرورة اللجوء إلى استخدام شتى أدوات القوة والعنف ضد الحكومة لاستعادة حقوق العمال التى يلبسها أثرياء سويسرا، فضلاً عن دعوته لمقاومة السلطات السويسرية إذا هى تصدت لثورة العمال أو أرغمتهم للعودة قسراً إلى أعمالهم.

كانت هذه الخطبة الحماسية هى القشة التى قصمت ظهر البعير، وأدت إلى توسيع هوة الخلاف والشقاق بين الشرطة السويسرية وبنيتو موسولينى الذى ألقى

القبض عليه عقب انتهائه منها وإيداعه فى زنزانه داخل أحد سجون مدينة برن.

ولما أعلن نقابات العمال استيائها وزمجرتها من تعسف الحكومة السويسرية وانتهاكها لحقوق الإنسان، وانقلابها على الحرية التى تعلن من حين لآخر أنها لا تنوى التخلّى عنها، وأنها فى سبيلها لتطوير قواعدها، وتحديث أدواتها ونظمها اضطرت الحكومة أمام مطالب العمال وصرخاتهم إلى إطلاق سراحه على أن يغادر البلاد فور اعتقاله لخطورته على الأمن العام والسلم الاجتماعى.

وبالفعل لم يكن قد مضى على اعتقاله أكثر من خمسة عشر يوماً حتى كان بنيتو حراً طليقاً بيد أنه وجد نفسه ملقى على قارعة الطريق الحدودى لكياسو.



وحيث إن قرار السلطات السويسرية كان جاداً وصارماً فقد اضطّر بنيتو موسولينى إلى العودة قسراً لبلاده إيطاليا لرؤية أفراد عائلته التى غاب عنها طيلة سنوات بقائه فى سويسرا، ومن قبلها أثناء الفترة التى اشتغل خلالها معلماً فى إحدى المدارس الإيطالية البعيدة عن مسقط رأسه الأصلى.

عاد بنيتو إلى «دوفيا» القرية التى شهدت صفوفه التسعة، فارتمى فور وصوله فى أحضان أمه الحنون التى ادهشها منظره الغريب، حيث كان قد بدت عليه ملامح رجل يافع كأنه يعول، حيث كان شعره الأسود الناعم اللامع قد تساقط، وقد كان ذا شارب أسود غير مهذب، وكث اللحية السوداء، وتحيط

عينه هالة من السواد، ولون وجهه لا يخلو من الشحوب والاصفرار، وجسده هزيل تفوح منه رائحة كريهة، وقد علل ذلك لولדתه بأنه عانى وعشاء السفر وسوء الحال.

لكن أقرب الناس إليه لا سيما عشيقاته قد روت أنه كان يكره الاستحمام بقدر كراهيته للفقر والاغنياء، وأنه يندر أن يغتسل، كما يندر أن يتذوق أشهى المأكولات.

خلاصة القول أن الأم روزا كانت قد لمحت معاناة ولدها بنيتو، وراحت تناشده أن يبقى بجوارها حتى يسترد عافيته ويستطيع تدير نفقات شراء ثياب جديدة له، بدلا من تلك التي كانت رديئة، وقد أكد لها في معرض حديثه معها أنه كان يعيش حياة طيبة وكريمة في بيرن لولا أن السلطات السويسرية اعتقلته لكان الأمر قد تغير وبات أمامها في مظهر لائق، على عكس ما هو عليه الآن.

ورغم توسلات الأم المسكينة بالبقاء معها أصر بنيتو على مغادرة إيطاليا قبل أن تستدعيه الشرطة الإيطالية لضمه إلى القوات المسلحة الإيطالية التي كانت تتعرض لحروب ومعارك طاحنة، وأزمات جوع وأوبئة أبادت آلاف الجنود، الأمر الذي دفع عشرات الآلاف من الشباب الإيطالي إلى الهروب لسويسرا وفرنسا وألمانيا بأنفسهم من جحيم الجيش المستعمر.

من هذا المنطلق عاد بنيتو موسولينى إلى سويسرا على أمل العيش بها آمنا سالما مطمئنا بدلا من حياة الفوضى والبهيمية التي كان يعيشها من قبل متعهدا

لنفسه، لا يتصادم على نحو أو آخر مع السلطات السويسرية، وأن يسعى جاهدا للحصول على فرصة عمل تليق به.

ولكن بنيتو الذى اعتاد على حياة الصخب والقلق والضجيج والمتاعب والمصاعب ما كان لينهدأ أو ليستكين، ومن ثم عاد لممارسة هوايته المحببة لنفسه، وراح يشن هجوما كاسحا وعنيفا ضد الحكومة السويسرية مرة أخرى كأنه قد تاق إلى هتافات الجماهير وحشودها الغفيرة وصياحاتها المثيرة: برافو موسولينى.. برافو يا رسول العنف.. برافو أيها الشجاع..

ولأن السلطات السويسرية قد ضاقت ذرعا بما يتفوه به موسولينى مع تزايد أعداد المهاجرين إليها من شباب إيطاليا وما يمكن أن يسببه ذلك من تأثير على سلامة البلاد واستقرارها فقد اضطرت إلى اللجوء لممارسة سياسة القمع والقهر لا سيما مع الأجانب الذين لا يبالون بما يمكن أن تتعرض له سويسرا إزاء الفوضى التى تجتاحها على يد موسولينى وغيره من الذين لا ذوا جميعا بالهرب من روما خوفا من الانضمام للجندية الإيطالية.

ومن ثم وجد بنيتو موسولينى نفسه محمولا كالكبش بين يدي شرطة بيرن لإيداعه السجن عقابا له على خطبه الهجومية والحادة ضد السلطات السويسرية وكان موسولينى سعى إلى ذلك لتذكير الشعب السويسرى والعمال بتاريخه القديم، وحتى يستعيد نشاطه وحيويته ونفوذه وشعبيته بين العمال السويسريين.

الفصل الثالث

صعود الدوتشى الطاغية

وفى مطلع عام ١٩٠٥ أطلقت السلطات السويسرية سراحه على أمل أن يلتزم بقوانين البلاد والانصياع لتوجيهات سلطاتها، وألا يثير الشغب مرة أخرى.

ولكن بنيتو موسولينى لم يكن يأبه بالسجون، حيث كانت تمثل له مسكناً آمناً ودافئاً يحميه من زمهرير الشتاء الجليدى القارس، ومطعماً يذوق فيه أطيب وأشهى أنواع المأكولات التى لا يستطيع تناولها خارجه، وإن كان بالطبع يتوق إلى الحرية والانطلاق.

لكن الواقع أن موسولينى كان يهوى الاعتقال لتزايد شعبيته، حيث كانت الصحف والمجلات السويسرية والأوربية تتناول سيرته وتعرض تفصيلاً لحياته، وتتصدر صورته صفحات وأغلفة الصحف والمجلات بوصفه الثائر الاشتراكى العنيف الذى تتأجج النيران بداخله، أملاً فى الإصلاح والتنمية والبناء والاستقلال والمساواة، وشعارات أخرى لوح بها موسولينى كثيراً فى خطبه الرنانة والحماسية الملهبة.

خرج موسولينى من السجن هذه المرة للعمل داخل سويسرا على عكس ما كان يتصور أن السلطات السويسرية سوف تطرده، كما سبق لها أن فعلت ذلك فى المرة الفائتة.

ويبدو أنه في محبسه قد تدبر أمره، وفكر ملياً في مصيره ومستقبله، وهل سيظل ضيقاً على معتقلات سويسرا بصورة دائمة دون أن يتقدم قيد أنملة للأمام في تنمية وبناء شخصيته وثقيفها من أجل الارتقاء بها طالما أنه يتمسك بالانغماس في العمل السياسى والنقابى والاجتماعى الذى يعتمد على مخاطبة الجماهير والتواصل معهم على كافة مستوياتهم.

على إثر هذا الطرح الذى لاقى قبولا لدى بنيتو انكب على قراءة العديد من المؤلفات الأدبية والفلسفية والسياسية، وراح يتلقى دروسا فى تعلم واكتساب اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية مقابل اشتغاله فى تعليم اللغة الإيطالية للآخرين.

لم تقتصر خطة نهوضه على هذا الأمر فحسب، بل إنه تقدم بأوراقه لاستكمال دراسته فى جامعة لوزان السويسرية حيث لا ينبغي أن يكتفى بشهادته المتوسطة التى نالها من إيطاليا.

وطيعى أن أحلامه وطموحاته وآمانيه وتطلعاته السياسية قد دفعته إلى الانكفاء على نفسه لدراسة ورصد قدراته العلمية والثقيفية، ومن ثم انغمس فى التحصيل والاكتساب على نحو سريع بدا شاذاً لمن حوله ممن كانوا يرقبون خطاه.

والواقع أن بنيتو كان عجولاً متسرعاً مهرولاً فى الحصول على أية معلومات، ظنا منه أن الوقت قد ينفد، وأن فرصة صعوده قد تضيع، وأحلامه قد تتبخر.

من هنا كان صاحبنا قد انضم لتعلم الدروس السياسية في جامعة صيفية خلال فترة الصيف، فلم يكن يكتفى بما يتلقاه من علوم ودروس في مرحلة فصل الشتاء ، على أن يتولى في المقابل تدريس اللغة الإيطالية لطلبة الجامعة أثناء العطلة الصيفية.

كان الشاب النابه المتهلف يملك حيثذ القدرة على ترجمة بعض الكتب سواء الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية، وهو ما دعا بعض دور النشر في جنيف للاستعانة ببراعته وموهبته في هذا المجال، ومن ثم تفرغ لترجمة العديد من المؤلفات المتنوعة نظير مبلغ من المال لمواجهة أعباء الحياة ومتطلباتها، والنهوض بمستواه المعيشي بعد معاناة طويلة وأزمات ما كان يحلم بزوالها يوماً ما.

أضف إلى ذلك قدرة بنيتو موسولينى على كتابة المقالات للعديد من الصحف السويسرية، ودعم شهرى كان يتلقاه من أسرته وبعض معارفه من اليسورين فى إيطاليا وسويسرا مساعدته فى مواصلة مشواره، بعد أن تنبه هؤلاء جميعاً لذكائه وبراعته وطموحاته.

وبعد أن استكمل بنيتو دراسته فى جامعة لوزان قرر على نحو مفاجئ لمن حوله العودة إلى إيطاليا مرة أخرى، لا سيما وأن ملك إيطاليا قد أصدر مرسوما ملكيا يقضى بالعفو الشامل والعام عن جميع الشباب الذين هربوا خارج إيطاليا تفاديا للانضمام إلى الخدمة العسكرية بعد أن أنجب طفلاً يرث عرش البلاد خلفاً له.

كان بنيتو فى تلك المرحلة يدور فى حلقة مفرغة، حيث كان متسرعاً فى الصعود إلى القمة، ثم سرعان ما اجتاحتته موجة من اليأس والانهزامية دفعته لاتخاذ قرار يلزمه باعتزال الحياة العامة فى سويسرا، وحزم حقيبه للعودة إلى أحضان أمه وأشقائه بعد أن استبد به الغضب لتردى أحواله المعيشية، وندرة العملات النقدية، الأمر الذى قد يعود به قسراً إلى سنوات الشقاء والعذاب والجوع، وهو لم يعد على استعداد لمعايشتها مرة أخرى.

لكن موسولينى لم يكن يعرف أنه قد بات ذائع الصيت واسع الانتشار، حيث تصدرت صورته بعض صفحات الصحف الإيطالية التى كتبت عن تاريخه ومواقفه النضالية فى سويسرا، ودوره فى إبراز وصعود حركة النقابات العمالية، ومظاهرات الاحتجاج الغاضبة ضد الحكومة السويسرية، واستعرضت مرات اعتقاله إثر هجومه الضارى على الحكومة السويسرية، وطرده إلى إيطاليا، وكشفت النقاب عن أفكاره العنيفة المتشددة سواء كانت السياسية أو الدينية أو الاجتماعية، وسخطه ونقمته على الأثرياء الذين كان يطالب بالقضاء عليهم والتخلص منهم ومن شرورهم.

كان لافتاً للانتباه ما تصدر مانشيتات الصحف الإيطالية، لا سيما صحيفه تدعى «لاتريونا» التى تحدثت عنه وكأنه أحد أبطال روما ورمز من رموزها السياسيين، وأن قدومه لإيطاليا قد يشير بعض المتعصبين وأحداث الفوضى والشغب لما يتحلى به من قدرة على تحريك الجماهير متى أراد وأينما حل.

وكان بنيتو موسولينى يستطيع هذه المقالات التى أعلنت من شأنه، وزادت من مكانته، وهيات له مناخاً لم يكن يتصوره الأمر الذى دفعه لمعاودة التفكير

مرة أخرى فى العودة إلى العمل السياسى بعد أن أصبح نجما لامعا يتصدر صفحات الجرائد وحديث الصالونات والمتديات بوصفه زعيم الجالية الاشتراكية الإيطالية فى سويسرا، ومن ثم إيطاليا أيضاً التى اكتشف أنها الأحق بأفكاره ودعوته لتحرير أهلها من الأوضاع الجائرة فى ظل الملكية المستبدة.

* * * *

وفى أعقاب وصول بنيتو إلى دوفيا قرر مشاركة والدته فى مدرستها التى لازالت تتركب بها، على اعتبار أنه مصدر العيش والحياة لها ولأشقائه، وقد أبدت والدته روزا حفاوة بالغة بهذه الفكرة بعد أن افترسها مرض الالتهاب السحائى، وراح ينهك قواها يوماً بعد يوم.

لكن بنيتو كان على يقين أن (دوفيا) لن تكون محل إقامة وقاعدة انطلاقه، وأن شعله أحلامه مهما خبأت فستظل متوهجة مستعرة تبتأجج بنيرانها فى رأسه، وأن بقاءه فى مسقط رأسه إنما هو لحظة لالتقاط الأنفاس، أو استراحة محارب آن له أن يستريح بعض الوقت حتى يتمكن من معاودة قتاله ونضاله.

وأن مشاركته لولداته قد تكون تمويها للحكومة الإيطالية وخداعاً لها، لكنه ظل كعادته مشغولاً غارقاً حتى أذنيه فى تفعيل أفكاره، لاسيما وأنه كثيراً ما تملكه الغضب إزاء بعض المواقف والمشاهد التى روعته وأشعلت فى صدره نيران الكراهية والحقد.

كان موسولينى يكره رؤية الأثرياء كراهية لا حدود لها، ومن ثم كان كثيراً ما يصرخ فى وجه زملائه وأصدقائه قائلاً فى حدة وعنف: أنا لا أطيق رؤية

هؤلاء الأثرياء الأوغاد... الى متى سوف أظل أتحمل رؤية هذا الظلم والقهر يا سادة! أنا بنيتو موسولينى، أشكو شظف العيش ومتاعب الحياة، وهؤلاء الخنازير ينعمون فى أطايب الطعام اللذيذ الشهى يا له من عار!! أين العذراء، ألم تكن تعرف ما سوف يجرى لأتباعها؟ ألم أقل لكم إن المسيحية مصدر جوعنا وشقائنا!!..

* * * *

ظل بنيتو يعمل بجانب والدته داخل مدرستها الخاصة، وقد كان معلماً فاشلاً، حيث عجز عن إدارة شئون المدرسة بعد أن لازمت أمه الفراش إثر استفحال مرضها الخطير.

وكان ضيق الصدر لا يكف عن السباب وإطلاق وابل من القول الفاحش داخل المدرسة، بعد أن أدرك أن الحياة عادت تعانده وتعصف به بين أمه التى تلفظ أنفاسها الأخيرة وتلاميذ لا يملك القدرة على تهذيبهم، فثارت أعصابه وخارت قواه، وبدأ مستسلماً لليأس والفشل.

وفى التاسع عشر من شهر فبراير ١٩٠٥ وبينما كان بنيتو يتابع أمور مدرسة والدته سمع صرخة مدوية تنطلق من مسكنهم، وكانت شقيقته إيدفيج قد أطلقت صرختها بعد أن اكتشفت وفاة والدتها، وأن شقيقه أرنالدو ارتقى باكيا عليها يندب حظه العاثر.

كانت عيناه قد اغرورقت بالدموع، وراح يطبع على وجتها قبلة وداع حانية وهو يصرخ بين أخويه: عذراً يا ماه لم أتمكن من إسعادك، لم أنجح فى

تدبير نفقات علاجك، لم تسعفنى الحياة لأمنحك الراحة والهدوء والسكون،
لكنك الآن تنامين فى هدوء وراحة وسكون إلى الأبد.

وراح بنيتو يبكى على رحيل والدته المفاجيء وعلى الأحوال السيئة التى
تتظره هو وأفراد أسرته البؤساء الذين لم يعد لهم سند يدعمهم ويحميهم بعد
رحيل الأم العذبة الحنونة.

ولأن أولياء الأمور كانوا يولون ثقتهم الغالية فى الأم روزا بوصفها رائدة فى
مجال التعليم، ومعلمة بارعة وإدارية قلما تشهد لها قرية دوفيا مثيلاً، على
عكس ابنها بنيتو الذى كان ذا نزعة عدوانية عنيفة وجامحة وقاسية أحجم أولياء
الأمور عن إلحاق أطفالهم فى مدرسة الأم روزا التى مثلت خسارة فادحة
لأطفال القرية جميعاً.

ومع تدهور الأحوال المعيشية وتدنى مستوى الدخل لبنيتو وأشقائه بعد أن
أوشكت المدرسة على إغلاق أبوابها راح بنيتو يلتحق للعمل مدرسا فى بلدة
تدعى كانيقا التى تقع فى شمال جبال الألب.

كانت الإدارة المدرسية قد وافقت على انضمام بنيتو ضمن أعضاء هيئة
التدريس بها ظناً منها أن شهرته وموهبته فى الخطابة وحشد الجماهير يمكن أن
ينعكس بصورة إيجابية على مستوى تلاميذ المدرسة، فضلاً عما يمكن أن
يضيفه هو بصيته الذائع إلى المدرسة.

ومع مرور الوقت أدركت الإدارة المدرسية أن بنيتو ذاك الثورى العنيف لا
يستطيع أن يفرض إرادته ومشيتته على طفل داخل فصول المدرسة، حيث كان

كثيرا ما يبدو شارد الذهن كسير النفس مسلوب الإرادة زائع العينين ، على عكس ما كان عليه من قبل .

ورغم هيئته القبيحة وثيابه القذرة ، ومظهره الكئيب ، فقد كانت التلاميذ تعشقه وتجذب إليه ، رغم أن بعضهم كان قد أطلق عليه «قلب الطاغية السفاح» نظرا لقسوته وعنفه ولجوته إلى استخدام العصا لتأديب المشاغبين منهم .

وأمام ارتفاع أسعار السلع الغذائية راح بنيتو يتفرغ بعد انقضاء اليوم الدراسى لاستقبال التلاميذ فى مسكنه لتقويتهم عبر حصص خاصة نظير مبالغ مالية زهيدة كان فى أشد الحاجة إليها .

أما بقيه ساعات الليل فقد كان يقطعها فى شراب الخمر برفقة زملائه وأصدقائه الذين كانوا يترددون على مسكنه إذا أرخى الليل سدوله ، ثم يتفرغ بعد انتهاء تلك السهرات إلى قراءة الشعر وهو غارق فى نشوته وثمانته .

وكثيرا ما كان يلقي على هؤلاء الرفاق السكارى بعضا من أبيات الشعر على أسماعهم الذين كانوا يتضحكون فيما بينهم استخفافا من هذا الذى يلقي أبياتا من الشعر لا تستقيم مع مجلس اللهو والمجون الذى لم يكن بالطبع يخلو من الخمر والمخدرات والنساء!!

وغنى عن البيان أن بنيتو كان عاشقا للنساء لا يقوى على مفارقتهن أو الاستغناء عنهن ، وحتى قيل أنه كان لا يتوانى عن اغتصاب أية فتاة أبت مشاطرته ما يريد منها ، وقد أصيب خلال تلك المرحلة الطائشة التى شهدت نزواته بداء الزهرى حتى قرر الانتحار للتخلص من حياته ، بيد أنه قد تماثل للشفاء عقب ترده على أحد مشاهير الأطباء .

وعلى الرغم من ذلك لم يكن بنيتو على استعداد للتوقف عن ممارسة تلك الرذائل، بل توحش في علاقاته الغرامية التي توسعت بصورة لافتة أدت إلى تلطيخ سمعته بوصفه زئير نساء لا يأمن أحد له .

كان بنيتو رغم قذارة مظهره وهندامه الحقير جذابا للنساء، لما عرف عنه من جسارة وشجاعة وفصاحة وقدرة على التأثير، ومن ثم قلما أن أفلتت منه فتاة التقى بها إما طوعاً وإلا قهراً وجبراً.



الشاهد أن صاحبنا عادت أمواج الدنيا القاسية تتقاذفه من أعلى إلى أسفل حتى كاد يغرق في أعماقها حنقا ويأساً وضجراً حيث كان قد ضاق ذرعاً بكثرة القراءة والاطلاع على دواوين الشعر وغير ذلك من المؤلفات الأدبية والفلسفية. كانت الحياة قد بدت في عيون بنيتو خاملة تبعث على الكآبة والملل، ومن ثم أراد تحريك مياه بلاده الراكدة بحجر عنيف بعد أن سكنه اليأس، وكاد يستسلم للخضوع وهو الذي كان ملء السمع والأبصار في مدن سويسرا، وأشعل نيران الغضب ضد حكوماتها، وأضحى بثورته وشجاعته حديث الساعة وعنوان الصحف ومحور الاهتمام الشعبي .

وفي مطلع عام ١٩٠٨ ولدت روح الشجاعة من رحم اليأس الذي كان يعصف به، وأطلق صيحاته عبر خطبه الحماسية والتي انزوت داخل بلاده لعله من خلالها يوقظ أهلها النيام الذين كانوا يغطون في سبات عميق، وربما ينبههم إلى أن ساعة الخلاص قد دقت أجراسها.

عاد ابن الخامسة والعشرين إلى مسرح الأحداث السياسية لتسخينه وإلهاب مشاعر وعواطف الجماهير في محاولات جادة لاجتذابهم واستقطابهم والتأثير عليهم وحشدهم في مؤتمرات واسعة ومهية لنشر أفكاره ومعتقداته بعد فترة من الركود والخضوع والاستسلام.

ولأن قبضة النظام الملكي الإيطالي كانت غاشمة وغليلة فقد كان مصيره الاعتقال الفوري عقب إطلاق شعاراته وخطبه بيد أنه لم يكن يابه لذلك، حيث كان يفطن مدى ما يمكن أن يحصده ويرجه جراء اعتقاله على يد السلطات الحاكمة، وأن ذلك سوف يدفعه ليتصدر مسرح العمالقة الأبطال الذين يشار لهم بالبنان والحفاوة.

بالطبع لن تخلو صفحات الجرائد والمجلات وأحاديث المقاهي والمتدييات والصالونات من ذكره ومتابعة أخباره بوصفه زعيماً ثورياً اشتراكياً وطنياً يسعى جاهد إلى تحرير بلاده ونهضة أهلها البؤساء الذين أجهدهم الفقر، وأذلهم الجوع، فيما ينعم قلة منهم على نحو يخلو من العدل والحق والإنصاف.

* * * *

بعد انقضاء فترة العقوبة التي قضاهما داخل السجن توجه إلى النمسا بإيعاز من أصدقائه وبعض معارفه الذين نصحوه بتوخى الحذر إذا أصر على البقاء في إيطاليا حيث إن السلطات قد تقضى على مستقبله تماماً إذا هو تمسك بانتهاج سياسته العنيفة المتطرفة.

ولأن بنيتو كان يثق فى آراء ونصائح أولئك الذين حذروه من مغبة بقاءه ثوريا فى إيطاليا اضطر إلى الانصياع والاستجابة لمطالبهم، وراح يتقل على الفور إلى مدينة تورنتو التى كانت فى تلك السنوات تتبع بلاد النمسا.

وهناك كان حشد من زملائه وأصدقائه وممن لا يعرفونه إلا عبر الصحف وأحاديث الشوارع قد استقبلوه استقبالا رائعا حاشدا على رصيف القطار، وكأنه زعيم أجبرته سلطات الاحتلال على الذهاب إلى المنفى.

وفى أعقاب وصوله تولى وظيفة مرموقة داخل نقابة العمال التى كانت فى حاجة إليه لتحريك ثورة عمالها، وإشعال لهيهم ليحرق صدور الأغنياء الرأسماليين الخنازير، على حد وصفه لهم.

ومع تنامى دوره النقابى وصعود نجمه فى العلا تولى منصبا آخو فى إحدى الصحف الاشتراكية التى كانت تدعى جريدة «مستقبل العامل»، التى كانت أهم وأبرز الصحف اليسارية المعبرة عن ضمير ورؤى الأحزاب والجماعات الثورية الاشتراكية.

أدى انتشار مقالاته النارية إلى إقبال جماهيرى غير مسبوق على شرائها وتوزيعها، الأمر الذى أدى إلى أن تلقى دعوة من صحيفة تدعى «البوبولو» اليسارية أيضا والتى كان يترأس تحريرها سيزاباتىسى اليسارى المعروف، وقد لاقت الصحيفة انتشارا واسعا لم تشهده من قبل.

وعلى ضوء نجاحاته المتوالية فى العمل السياسى العام راح بنيتو يلبي دعوة أخرى تلقاها ذات مساء من جريدة «حياة تريستينا»، وقد كانت تتبع أيضا سيزاباتىسى الذى أراد توظيف شعبيته الجارفة فى زيادة توزيع صحفه وانتشارها قبل أن يتزوى أو تعتقله السلطات النمساوية،

ومضى صاحبنا يدك حصون الأثرياء ورجال الدين عبر مقالاته العنيفة والخطيرة حتى أن أحداً لم ينبج من سعيها ولهيها.

هاجم فى صدر مقالاته النارية أولئك الذين اتهمهم بمحاباة ومجاملة الرأسمالية البورجوازية على حساب الأمة المقهورة، والذين يقدسون القومية والوطنية، وغيرهم ممن أسهم بعيدة الزعيم الثورى الإيطالى مازين.

وقد جرت العادة فى خطبه بتوجيه سهام نقله نحوهم بوصفهم خونة الطبقة العمالية التى كانت تنتظر منهم مواقف وطنية تصب فى صالحهم حتى يتخلصوا من فساد تلك الطبقات التى يباركونها ويحتفون بها وينتاقونها.

كما هاجم التأثيرات التى أحدثتها الكنيسة الكاثوليكية التى كانت واسعة النفوذ آنذاك فثار منها موسولينى، وشن هجوما كاسحا، حتى أنه قد شبه الكنيسة الكاثوليكية فى مقالاته (بالجثة العفنة)

وهل كان الفاتيكان عصيا على قلمه الحاد؟! كلا، بل راح يقذفه ويمطره بوابل من نيرانه الحمراء الملهبة واصفا المقر البابوى الرهيب والمؤثر فى معتقدات أوروبا بأنه ملجأ التطرف والجمود ووكر يفوح بالبخور لإخفاء معالم مكانه اللصوص والأفاقين والكذابين.

وكما هو وارد حدوثه زجت السلطات النمساوية بنيتو ذاك الفوضوى العنيف إلى غياهب السجن لعله يرتدع، بيد أن ذلك كان يدعم موقفه، ويقوى عزمته ويصلب عوده أمام جماهير أمته التى كان يشجوها سماع أخباره الثورية وعدائه للحكومات، وتردده الدائم على المعتقلات، وجسارته النادرة، وشجاعته الفائقة وخطاباته الساخنة، وصوته الجمهورى، وطبقاته المثيرة، وصيحاته الشهيرة،

وشعاراته الأثيرة، ونبراته الساحرة التي كانت تدفع سامعيه إلى التصفيق الحاد والعنيف.

وبعد عام أو أقل من ذلك بنحو ثلاث شهور أفرجت السلطات التمساوية عنه، وألزمته بالعودة الإجبارية إلى بلاده كي تأمن من شروره، وتهداً حركة العمال التي سكب عليها نفطا وألقى عليها عود ثقاب فأضرم حريقاً شب في أرجاء الأمة النمساوية لتي لم تكن تتحمل مثل هذا العبث والجنون والعنف اللامعقول.

* * * *

الفصل الرابع

زواج موسولينى

ما من شك أن موسولينى الذى بلغ عامه السابع والعشرين كان فى حاجة ملحة إلى زوجة تحويه وتغدق عليه بعطفها ورقتها وحنانها ودفء مشاعرها وطيبة قلبها، حيث عانى طويلا من فقدان تلك الأحاسيس لابتعاده الطوعى والقسرى عن والدته وأشقائه.

ناهيك عن والده ودوره المفقود فى حياته، حيث انغمس الأب ألساندر فى ملذاته ونزواته ومغامراته النسائية التى وهبها حياته وماله بعيدا عن أسرته البائسة التى تركها تشكو غائلة الجوع، وتتوجع من أنياب الفقر المتوحش.

وكان طبيعيا أن يمقت والده ولا يطبق رؤيته، لما ارتكبه فى حق أسرته ولا سيما بعد أن غادر البيت غير عابئ بمسئوليته نحوه، وقد ألقى على كاهل زوجته الرائعة روزا مهام مواجهة الحياة ومقاومتها دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عن أحوالهم، وإلى أين تتقاذفهم الأمواج بعد أن أخلى سبيله منهم.

على أية حال قرر بنيتو موسولينى العودة إلى بلاده امثالاً لقرار الحكومة النمساوية، ومن ثم راح يتساءل فى نفسه، وكثيرا ما كان يفعل ذلك بصوت مسموع، وعبر حركات وإشارات تشير الدهشة والاستغراب لمن يبصرها.

تساءل بنيتو إلى متى سيظل هكذا عريدا ثملاً حائراً تائهاً شارداً؟ وإلى متى سيظل يتناول هذا الطعام الرديء؟ ويرتدى تلك الثياب القذرة الحقيبة التى

أمست مثار نقد بعض رفاقه الذين ساءهم مظهره القبيح الذى يتعارض مع زعامة وليدة يترقبها الجميع ويعقدون عليها آمالهم.

ثم إن شهرته الذائعة فى اصطلياد النساء عبر وسائل متنوعة، وتميز مسكنه بوكر الغانيات اللاتى يترددن عليه لممارسة الرذيلة وتعاطى الخمر والمحرقات، كاد كل هذا يقضى على مصيره ومستقبله، لا سيما وأن من حولهم كانوا يخشون على زوجاتهم من ممارساته الفجة والعنيفة، والتى لم يكن يتورع فى القيام بها فى سبيل إشباع رغباته.

إذن أدرك بنيتو أن سمعته السيئة قد تحول بينه وبين معارفه وأصدقائه وكبار الساسة، ومن ثم قرر أن يتزوج من أجل أن ينعم بالراحة والمتعة والهدوء والاستقرار والطمأنينة، وحرصا على مستقبله السياسى ومصيره فى قيادة إيطاليا، تلك الرغبة التى تملكه منذ نعومة أظفاره.

ومع عودته إلى إيطاليا علم بنيتو أن والده قد تردد على مسكن شقيقته مرات عديدة للاطمئنان على أحوالهم بعد وفاة الأم روزا.

كان بنيتو يتوق إلى رؤية أبيه واحتضانه، حيث كانت الهجرة إلى سويسرا والتمسا والسجون قد باعدت بينهما دون أن يكلف أحدهما نفسه البحث عن الآخر، حيث كان الأب لا يزال مفعما بالقوة والحياة، لاهثا وراء عشيقاته لا يفيق من الشراب، بينما كان بنيتو يبحث عن بصيص أمل يقهر به اليأس الذى يحاصره ويلف سلاسله حول عنقه.

أضف إلى ذلك أن كليهما لم يكن فى حاجة إلى الآخر؛ حيث كان بنيتو إذا ما ضاقت به السبل عاد يرتقى فى أحضان الأم روزا، بينما كان أبوه

ألساندرو يرتقى فى أحضان عشيقاته يلتمس منهم ما افتقده من الزوجة الحكيمة المناضلة روزا.

وحين غابت الأم روزا عن الدنيا وانحنى ظهر الأب، وتجلت على ملامح وجهه خطوط الزمن وتجاعيده وخراائطه وتضاريسه، وزهد عشيقاته بعد أن اكتفى بواحدة منهم، ظل يقضى معها سنوات عدة بعد أن منحته ما كان يبحث عنه مع غيرها من غانيات إيطاليا، عاد يبحث عن دفء أولاده ويتحرى مصيرهم مدفوعاً بعاطفة الأب المسكونة فى صدره المتجمد.

* * * *

كانت عشيقة الأب أليساندرو تدعى أناجويدى، تلك الشقراء الجميلة ذات القوام الفارع والعيون الزرقاء، والتي كانت متزوجة من قبل أن تلتقى مع أليساندور، وقد أثمرت علاقتها خمسة من الأطفال تولى الأب أليساندرو رعايتهم وتربيتهم والإنفاق عليهم نظير الاستحواذ على قلب والدتهم والاستئثار بعواطفها، والسيطرة على مشاعرهما، وهو ما كان.

ومن خلال شقيقه أرنالدو ذى الطباع الهادئة التى تختلف جذريا عن طباع شقيقه علم بنيتو أين يقطن والده وكيف يمكنه أن يتوجه إليه.

ولأن أرنالدو كان يرتاب فى شأن شقيقه بنيتو وما يمكن أن يسببه لوالده من إزعاج وقلق فقد ناشده أن يتسم معه بالأدب والذوق حرصا على كرامة الأب أليساندرو، وحفظا على هيئته.

والواقع أنه لم يكن إلحاق الأذى أو تقريع والده كما ظن شقيقه، بل كان يسعى لرؤيته بعد أن استبد به الشوق وتملكه الحنين إلى رؤياه، وتجاذب أطراف حديث طويل يجمعهما معاً.

وفى مدينة «فورلى» طرق بنيتو منزل والده وعشيقته، وإذا بفتاة طويلة شقراء تتمتع بلامح جذابة تتصدر باب لمنزل تسائله فى إباء واستعلاء: من تريد وعما تبحث؟!

كان بنيتو عاشق النساء وصائدها قد انكمش وتضاءل أمام تلك الفتاة الحسنة الساحرة حتى إنه تلعثم فى الرد على أسئلتها حيث بدا وكأنه فى مستقبل سن المراهقة، وراح يتصبب عرقاً. وهو يقول فى هدوء غير معهود ممن كان على شاكلته.

مساء الخير أيتها الفتاة الجميلة؟

فأجابات فى كبرياء مصطنع: أهلاً بك، من أنت؟

فقال بعد أن استرد هيئته وثقته واعتزازه الذى اعتاد عليه .

أنا بنيتو أليساندرو، جئت أبحث عن والدى، فكم أنا مشتاق إليه، صاحبت الفتاة وقد بدت عليها ملامح البهجة والغبطة قائلة:

آوه... أنت بنيتو، كم حدثنى العم أليساندرو عنك؟ وقد سمعنا كثيراً عن مغامراتك وصولاتك وجولاتك.. هلا تفضلت؟ كم أنا سعيدة لرؤياك يا إلهى كائننى أحلم.. تفضل.. تفضل.. يا سيد بنيتو.

وانطلق صاحبنا كالسهم إلى البيت بعد أن استرخى على أحد المقاعد فى انتظار قدوم الأب الذى تاق إلى رؤيته.

وخلال دقائق أمضاها فى صالون البيت مرت دهرأ يتحسس فى خياله وجهه أبيه، ويطوف بعينه فى سنوات الطفولة وذكريات الجميلة والأليمة التى جمعته

بالأب الهارب اللاجئ إلى بيوت العشيقات بحثاً عن الحب وفراراً من المسئولية..

وبينما كان بنيتو غارقاً حتى أذنيه في ذكرياته ظهر أمامه الأب الذى ارتقى كالحصان الجامح فى أحضانه يطره بقبلاته ويربت على كتفيه كأن بنيتو الأب وأليساندرو الابن.

وتسابقت الأسئلة على لسان كل منهما دون أن ينتظر أى منهما جواباً شافياً وافياً كافياً، الأمر الذى دعا الأب إلى مطالبة ابنه بقضاء الليل معه لحين بزوغ شمس الصباح حتى يطمئن على مستقبله، ويقف على حقيقة ما سمعه من جيرانه حول دوره المرتقب وزعامته للطبقات العمالية البائسة التى تبحث عن زعيم يعبر عن آمالها ومطالبها، ويلبى رغباتها وتطلعاتها.



أما الحسنة التى استقبلت بنيتو فقد كانت هى الابنة الصغرى للسيدة آنا جويدى عشيقة الأب أليساندرو وتدعى راشيل، كانت تناهز السادسة عشرة من العمر.

ويروى أن بنيتو كان قد تعرف على شقيقتها الكبرى أوجست بيد أنها قد روعها عنفه وبطشه وتصرفاته المجنونة الطائشة، وأن حياته المتغيره وتصرفاته الهمجية لم تكن تروق لها، ومن ثم أنهت علاقتها به قبل أن تتوسع ولا تستطيع الفكاك منها فى لقاء عابر قبل أن تغادر مع أسرتها قرية (دوفيا).

الشاهد أن بنيتو فاتح والده فى أمر هذه الفتاة، بيد أن الأب أفهمه أنها فتاة عنيدة مثل أمها، لا تتواءم مع مزاجه الحاد، حيث ينبغى عليه أن يقترن بفتاة هادئة الطباع، على عكس راشيل التى تتصرف بعفوية تثير الغيظ.

لكن بنيتو كان قد قرر دون تراجع الزواج من راشيل لا يعباً بمزاجها الحاد الاستفزازى أو طباعها العنيدة أو كبرياتها المزيف، أو أية عيوب أخرى قد لا تتراءى أمامه مستقبلاً.

من جهته طالبه الأب بالتريث حتى يتعرف على والدتها، لا سيما وأن الأم أنا كانت هى الأخرى تتصف بالغطرسة والاستعلاء، وربما لا تطيب لها شخصية بنيتو.

لكن متى كان صاحبنا يبدى اهتماماً بتلك اللعوب التى كانت وراء هروب والده من بيتهم وتسببت فى تدمير معنويات تلك الأسرة وألحقت الأذى بالأم العظيمة التى كافحت وناضلت وجاهدت فى سبيل تربية أولادها دون أن تلتقى بأحدهم للإتفاق عليها وتدير لوازم معيشتها كما هو حال السيدة آن جويدى.

كان بنيتو لا يبالى بما يمكن أن تبوح به هذه السيدة المتسلطة؛ حيث إنها تفتقد فى تقديره مظاهر التبجيل والاحترام، وتفتقر إلى مقدمات العزه والكبرياء التى كانت تتحلى به والدته وغيرها من نسوة القرية اللاتى أذهبن حياتهن فداء لأطفالهن، على عكس تلك التى كانت ترتقى فى أحضان هذا وذاك ثم سرعان ما انتهى بها المطاف لتستقر بعد معاناة من الأصدقاء والعشاق للعيش مع الأب أليساندرو الساذج الذى راح يرعى مصالحها على حساب مصالح أسرته وأطفاله الصغار!!

المهم جاءت الأم أن جويدى بقامتها الفارعة وشعرها الأصفر وعينيها الزرقاوان حتى همس فى نفسه قائلاً ما أروعك يا أبى.. لقد كنت محقاً فى الهرب.. أوه إنها ملكة وليست مجرد امرأة، وراشيل ابنتها أميرة تستحق أن

تنبوا العرش وتزين بتاجه.. اللعنة أيها الفقر، اللعنة أيتها الحياة.. أمى ماتت
صريعة الفقر وها هي جميلة الجميلات باعت نفسها للشيطان للإنتفاق على
أطفالها.. ما أفظع هؤلاء الأثرياء الخنازير الذين لا يبالون بنا.. الموت لهم
جميعا ومن قبلهم رجال الدين الذين لا يتورعون عن نشر الخرافات
والأساطير!!!

فجأة تنبه بنيتو أن الأم أن تمد يدها الناعمة لمصافحته، فنهض من مقعده
صائحا في أدب غير معهود.. مساء الخير.. مساء الخير.. ثم استطرد قائلا
ببلاغة فيما تلاحقه نظرات الأب التى تنطوى على إعجاب بالغ: أرجو ألا
أكون ضيفا ثقيلا على بيتكم الجميل، فقد استبد بى الشوق وتملكنى الحنين
لرؤية هذا الأب الذى لاز هاريا من فرط جمالك..

أطلقت آن جويدي ضحكة مدوية هزت أرجاء غرفة الصالون وعلى أثرها
عاد يقول بعد أن باركت كلماته بضحكتها المجلجلة.

الآن فقط يا سيدتى أستطيع أن أقول كم كان والدى على حق حين رفعته
رياح الحب الجارف وراء جميلة جميلات إيطاليا وأوروبا.

ثم فى حركة مسرحية التفت بنيتو نحو أبيه قائلاً: من حقك يا والدى ألا
تهجر «دوفيا» فحسب، بل لو كنت قد هاجرت الدنيا كلها من أجل تلك
السيدة ما كان لأحد ليومك، فما أروع العيش معها.

فى تلك الأثناء كانت راشيل تلك الفتاة لصغيرة تترقب ما يجرى داخل غرفة
الاستقبال، وقلبها يكاد يطير فرحا وطربا لرؤيتها هذا الشاب الجسور الذى بات
حديث إيطاليا كلها.

كما أنها قد ارتاحت لضحككات والدتها وسعادتها بكلماته العذبة الحانية الرقيقة التي لم تكن يتظرها أحد أو يتوقعها ممن عانى وكابد الأهوال والمصاعب لمجرد أنه ابن رجل هرول وراء شهواته!!

وفى تلك الليلة أمرت الأم ابنتها أن تهىء مكاناً لبنيتو حتى تلوح تباشير الصباح بيد أن صاحبنا قد قرر ألا يغادر هذا البيت إلا وبرفقته راشيل زوجة ولن يرضى بغير ذلك سبيلاً ومسلماً.

وأسرعت راشيل تجهز غرفة النوم لبنيتو الذى راح يتجاذب أطراف الحديث مع والده وعشيقته حول سنوات كفاحه ونضاله فى سويسرا وأسباب اعتقاله، ثم الأحداث الدامية التى عاشها فى النمسا وإيطاليا، وراح يستعرض آماله وطموحاته وما يريد لهذا الوطن، وما يجب أن تتهجه بلاده من سياسات تعتمد على العدالة الاجتماعية المفقودة.

كان حديث بنيتو يسحر الألباب ويشير عاصفة من الإعجاب، وهو ما أدى إلى شعور بالراحة والأمان والطمأنينة سرى فى نفس آن جويدي، ولولا مخاوفها من غلظته ووحشيته فى معاملته مع الآخرين لكانت قد بادرت وقدمت له ابنتها راشيل، لكنها تذكرت موقف ابنتها الكبرى «أوجستا» التى أبت عليه، وتعللت بخشونة طباعه وغلظته التى تبدو جلية فى حديثه وتصرفاته.

وبعد ساعات طويلة تحدث خلالها عن مشوار حياته وهو يتناول طعام العشاء الفاخر الذى أعدته الفتاة الرقيقة راشيل توجه إلى الغرفة التى هياتها راشيل وهى تصطحبه إليها وهى تتأمله وتتبادل معه نظرات لا تخلو من التعبير عن الإعجاب والراحة والقبول والاطمئنان.

بالطبع كانت راشيل فى حاجة إلى رجل تتوافر فيه صفات الشجاعة والبأس والإقدام بوصفها أصغر بناتها، وقد نشأت وترعرعت بعيداً عن كنف أب حقيقى، حيث إن الأب أليساندرو كان أباً مزيفاً، وهو شعور لم يكن يفارق تلك الفتاة التى تفتقر لمن يحتويها ويبث الطمأنينة فى نفسها، وهو ما لم تلمسه من والدها الذى لا تعرف عنه شيئاً ولا تستشعره من عشيق والدتها الذى باع نفسه وأسرته أسيراً لجمال والدتها الطاغى.

كانت راشيل تعلم أن حنو الأب أليساندرو ما كان ليفعله سوى لإرضاء والدتها، وإلا إذا كان ذلك كذلك كما يريد أن يوهمهم بحنانه ودفء مشاعره لادخر ذلك لمن يستحقون كزوجته وأولاده الثلاثة الذين تضوروا جوعاً مع رحيله المفاجئ.

فى تلك الليلة الحاملة وبينما كانت راشيل تتقدم بنيتو نحو غرفة نومه وقفا معا على بابها يتبادلان الابتسامات الصافية الصادقة العذبة والنظرات التى يملؤها الشوق كما لو كانا تعارفا من قبل.

كان بنيتو يصرخ فى داخله قائلاً بصوت مكتوم: إنها هى... تلك التى أبحث عنها كفانى ما عانيت من الوحدة والعزلة والحياة البوهيمية والفوضوية والعشية... إنها راشيل الزوجة والعشيقة والصديقة والحضن الدافئ... إنها المرفأ الذى سأرسو فيه بقاربى الذى ي تسكع متهاديا على صفحات مياه لا يدرى أين المفر؟!!

أما هى فقد كانت تصيح وتهتف فى نفسها ما أروع الزواج من رجل ملأ السمع والأبصار، وتشوف إليه العيون، وترهف الآذان لسماع حديثه العذب

الذى يتدفق حماسة ووطنية وثقافة يندر أن يعثر عليها المرء فى رجل آخر . . كم أنا فى حاجة إلى بنيتو هذا الذى يثير العواصف ضد السلطات، والعواطف فى قلوب النساء، وها أنا واحدة ممن وقعن فى غرامه من الوهلة الأولى.

كانت راشيل تسبح بخيالها فى آفاق واسعة حتى باغتها بنيتو بقوله العجيب والغريب: راشيل هل توافقين على الزواج منى؟!!

اهتزت الأرض من تحت قدميها كأن زلزالاً قد ضرب تربتها بأقصى درجاته الريخترية بيد أن راشيل لم تكن تملك الرد العاجل سوى بابتسامة ساحرة صادقة ألقت بها لتجسيد ما تعتلج به مشاعرها وعواطفها المتأججة والمنفجرة منذ ساعات فقط نحوه.

اتفقا معا على مفاتحة الأب أليساندرو والأم أن جويدي فى الأمر إذا ما أقبلت تبشير الصباح تزف ميلاد يوم جديد يملؤه الحب والشوق والهيام.

وفى ظهر اليوم التالى وأثناء تناول وجبة الفطور توجه بنيتو بحديثه قاصدا والده، وراح يقول: إننى يا والدى كم أشعر بالامتنان والتقدير لتلك الأمسية الكريمة والرائعة، وكم أود أن أكون أحد أفرادها، فصاحت الأم آن جويدي: ونحن نعتبرك يا بنيتو العزيز بالفعل ابنا لنا، غير أن الأب أليساندرو صاح قائلاً وهو يضحك ساخراً:

أنت لا تعرفين ما الذى يقصده بنيتو فى حديثه، أبدت آن جويدي دهشتها وهى تتوقف عن الطعام فى انتظار تفسير لما تفوه به أليساندرو الذى أردف بقوله: إنه يتطلع إلى الاقتران بالابنة راشيل.

كانت الدهشة قد احتوت الأم، ولم تدر كيف تعبر عن رفضها؟ لكنها عادت تقول: إن ابنتها لا تزال صغيرة على اتخاذ مثل هذه الخطوة، وحين صاحت راشيل بقولها: لكنى تجاوزت السادسة عشر يا أماء أخذت علامات الدهشة تتجلى على ملامح الأم التي استغربت هذا القرار العاجل سواء من بنيتو أو راشيل، بيد أنها عادت تشير إلى رفضها متذرة بالتسرع والتعجل، حيث إن الأمر يتطلب دراسة وافية وتفكيراً عميقاً لخطورة ذلك مستقبلاً.

قد يكون لها الحق في طرح هذا الرأي الرشيد والحكيم والسديد، ولو أن أحداً غيرها لانتهج مسلكها دون تردد أو تفكير.

لكن بنيتو المجنون بدأت الدماء تغلى في عروقه ويتطاير الشرر من عينيه، ويكاد يدق مائدة الطعام بقبضة يده، لولا أنه تمالك متظاهراً بالرقه والحلم في انتظار ما سوف يدلى الأب به، لعل بدلوه يعيد بذكائه وحنوه الأمور إلى نصابها، ولكن منذ متى كان الأب أليساندور يعرف معنى العطاء وماهية الحنان؟ لقد عاش لنفسه فقط، ومن عاش لنفسه ما استحق أن يولد.

وكانت المفاجأة التي أذهلت بنيتو حين صاح والده قائلاً في تأييد جلى: إن هذا الأمر غير مقبول شكلاً وموضوعاً وينبغي إغلاقه فوراً.

وهنا نهض بنيتو لا يطيق صبراً على ما يدور من حوله، لاسيما وأن راشيل قد شجعتة وحفزته بموافقتها واستعدادها للاقتران به، ومن ثم لم يكن على أدنى استعداد لسماع ما يعكر صفو العلاقة الوليدة بينهما بذرائع واهنة لا قيمة لها على وجه الإطلاق.

الشاهد نهض بنيتو العنيف من مقعده وقد ضرب المائدة بقبضة يده مهدداً
بقتل نفسه إذا لم يتزوج من راشيل، وقد أشهر مسدسه ووضعها على رأسه
وإذا بالفتاة التي اکتوت بالحب قد بادرت للانضمام إلى صف بنيتو على وعد
بالانتحار إذا لم تتزوج منه!!

وأمام هذا التصرف الخطير الذى أقدم عليه صاحبنا وباركته راشيل امثلت
الأم آن جويدى الصلبه العنيدة، وتبعها فى التوالى الأب المسكين أليساندرو،
وباركا لهما زواجهما بيد أن الأم اشترطت موافقتها بتدبير مسكن للزوجية حتى
لا تحلو الإقامة لبنيتو ويعجز عن تدبير أحواله كوالده، ثم تتخلص هى وزوجها
منهم، لا سيما وأن بنيتو عنيف الطباع وتطارده قوات الشرطة من حين لآخر،
وهى لا تقوى على تحمل مثل هذه التصرفات المستفزة .

فى نفس عصر هذا اليوم المشهود فى حياة موسولينى وراشيل أطلق ساقه
للريح بحثاً عن مسكن بسيط ملائم لحياة زوجية جديدة مع من أحبها بجوارحه
وأحاسيسه ومشاعره.

وفى شارع ميرنيدا استأجر بيتاً يتصف بالقذارة والحقارة اضطر للموافقة
على الإقامة فيه وفقاً لأحواله المادية السيئة.

من جانبها وافقت راشيل على العيش فى هذا البيت رغم أنفها تعبيراً عن
مشاعرها العاطفية الملتهبة إزاء الشاب الجسور بنيتو، وقد أكدت فى أوراقها
الخاصة بالنصر:

«انتقلنا إلى المنزل ذات مساء، وإنى لأذكر كم كان سعيداً رغم ما يبدو عليه
من جهد.. إذ لم يكن واثقاً من موقفى، نظراً لعدم استكمال أوراق الزواج..»

ولكننى فهمت موقفه وقدرته». فأمامى يقف الرجل الذى أحبته وهو ينتظر منى أن أمنحه الهبة الوحيدة التى تستطيع الحياة أن تمنحه إياها وهى حبيبى، وكانت الخطوط قد بدأت فى الظهور على وجهه الفتى نتيجة ما يعانيه من جهد فى كفاحه اليومى... ولم أتردد لحظة واحدة... ومضيت معه إلى آخر الشوط.

وهكذا كانت أوراق الزواج قد تمت داخل الكنيسة التى يحتقرها بنيتو ولا يطيق الذهاب إليها... لكن الحب فقط ذلك المارد المتوحش الذى انطلق يحركه أينما أراد... وما هو بنيتو الذى شن هجوماً كاسحا على رجال الدين المسيحى يتقدم بخطى سريعة نحو كنيستهم يستجديهم الموافقة على مباركة زواجه بمن أحب وعشق وهام بها حباً وغراماً.

كان موسولينى بداخله لا يرغب فى زواج الكنائس لعدم اعترافه بأهميته وإيمانه الشديد بخطورتها على أعمال العقل وتغيب الحكمة والمنطق، لكنه اضطر صاغراً لتوثيق أوراق إعتماده زوجاً نزولاً على رغبة محبوبته راشيل، لاسيما وأنها لم تكن تطيب لها أسلوب حياه والدتها مع والد بنيتو، وما ترتب عليها من تلاس من يتوقف يوماً ما بعين الجيران الذين استنكروا هذه العلاقة رغم أن ذلك مألوف داخل مجتمعاتهم.

ورغم أن العلاقات المحرمة كانت ضمن مظاهر وأساليب العلاقات الاجتماعية فى المجتمع الإيطالى على اعتبار أنها جزء لا يتجزأ من قارة أوروبا التى لا تجرم مثل هذه العلاقات الغير مشروعة فقد أثرت راشيل شأنها فى

ذلك شأن كافة الأسر ذات القيم والمبادئ ألا تقع فى مستنقع الرذيلة الذى غرقت فى أعماقه والدتها وأليساندرو.

هكذا شهد عام ١٩١٠ زواج راشيل من بنيتو وسط حضور كثيف من رجال الصحافة الإيطالية وطبقاتها العمالية وزملاء الطفولة الذين استدعاهم لحضور حفل زواجه ليشاركوه بهجته وفرحته التى امتلأ بها قلبه بعد سنوات عجاف وجفاف نضبت خلالها معالم السعادة ومظاهرها.

وبدأت حياة بنيتو تتغير جذريا نحو الأفضل، وكان زواجه من راشيل كان من حسن طالع وحظه السعيد، حيث قضى عامه الأول فى سعادة وغبطة ما كان يحلم بها رغم صالة راتبه الذى يتقاضاه من اتحاد فورلى الاشتراكى بوصفه سكرتيه، الأمر الذى دفعه للبحث عن مصادر أخرى تضاعف من دخله لمواجهة متطلبات الحياة لا سيما وأن زوجته قد رزقها الله طفلة جميلة تدعى إيدا ينبغى أن تعيش فى كتف أب ميسور الحال على عكس نشأته البائسة.

وكان بنيتو قد دبر بعض النقود التى اقترضها لتأسيس جريدة تعبر عن آلام الطبقات الفقيرة وتجسد معاناتهم، وتفضح الممارسات الاستفزازية للطبقات الغنية التى تسبح فى بحور الثراء الفاحش، وقد أدارت ظهرها لأبناء شعبها من الفقراء.

كانت الجريدة التى أسسها تسمى جريدة «الصراع الطبقي» وما من شك أن الجريدة تعرضت فى البداية لحروب شرسة على يد السلطات الإيطالية لإجهاضها فى المهد قبل أن تتوسع وتنتشر، وهو ما أدى إلى تراجع الدخل

الذى كان يعتمد عليه بنيتو لاستقطاع جزء منه لسداد أقساط القرض، وهو ما اضطر معه للعيش مع أسرته على الاكتفاء بتناول الكرنب أغلب أيام الشهر لحين انقشاع الغمة.

وطيئى وكما هو وارد فقد تمسك بنيتو بموصلة مشواره فى المواظبة على إصدار الصحيفة التى بدأت تدريجيا فى التوسع والنمو والانتشار، حتى أنها وفق شهادات مؤسسات التوزيع بفضل مقالات بنيتو النارية بوصفه أحد أبرز دعاة الحركة الاشتراكية الثورية فى إيطاليا.

وعلى إثر ذلك عاد نجمه يلمع فى السماء الإيطالية، وأصبحت سيرته تلوكها الأفواه تقديراً وإعجاباً بما يكتبه ويدعو به من أجل النهوض بالشعب الإيطالى وعلو شأنه، والارتقاء بمكانته بين الأمم، وتكريس قواعد ونظم توزيع الثروات بين الطبقات قبل أن تنفجر الأوضاع.

وظل بنيتو يكتب مدعوما بعشق زوجته راشيل التى كان تدفعه للأمام، وتحثه على مواصلة النضال والكفاح، وتشجعه بوصفه الزعيم المنتظر الذى يترقب الجميع خطاه نحو نهضة الأمة الإيطالية.

ولم يكن مستغرباً أن يتلقى بنيتو دعوات عديدة لكى يتصدر منصب الخطاب داخل أروقة الندوات والمؤتمرات والاحتفالات الجماهيرية لتسخين وإثارة لهيبها، وضمن حضور غفير مترام لإسماعهم دعوة بنيتو ذاك الثورى المتطرف والعنيف.

ورغم الفقر المدقع والحياة لبائسة التى يحياها مع زوجته راشيل وابنته إيدا فقد كان الحب الذى يجمعهم معا هو الوقود الذى يدفع قاطرة الحب إلى الإمام

دون أن تعرقلها أحجار الفقر والبؤس، لدرجة أن بنيتو لم يكن على استعداد لتوطيد علاقاته مع أية فتاة وسيدة مهما بلغ قدرها من الجمال، وتجلت على ملامحها معالم الأنوثة الطاغية والساحرة والجذابة.

ومن جانبها فطنت راشيل لوفاء زوجها وإخلاصه معها، وهو الذى كان معروفا بين الجميع بميوله نحو الجنس الناعم وضعفه أمامه، وعدم قدرته على الثبات والتماسك، وبإخفاقه فى كبح جماح غرائزه وتهذيبها، وها هو الآن قد أصبح زوجا حنوناً دافئ المشاعر وفيا مخلصا، ينكب على مكتبه سواء فى مقر جريدته، أو اتحاد فورلى الاشتراكى، أو منغمسا فى قراءة الصحف والمجلات المنافسة وآخر الكتب الأجنبية، وترجمة ما يمكن أن يعود بالنفع على المستوى العام، من حيث التأثير الذى تحدثه فى صفوف الجماهير والتأثر بما قد جاء فى صفحاتها.



صحيح أن بنيتو موسولينى كان جذابا وقويا ومؤثراً فى صفوف الأمة الإيطالية، وصحيح أيضاً أنه كان أحد أهم مقومات الصحة التى اندلعت، والثورة التى أطاحت بالعرش فيما بعد، لكنه على الرغم من ذلك كما يقول عنه المؤرخون وفى مقدمتهم كريستوفر هيرت فى كتابه «موسولينى» أنه قد غدا من خيرة الخطباء، قوى الصوت مؤثرا على سامعيه، وكانت حملاته فظة فاسية، وحقائقه التى يوردها حافلة بالأخطاء، وأرواه كثيرة التناقض، ومعظمها محفوظ عن ظهر قلب.

ويمضى كريستوفر هيرت فى معرض تحليله وتشريحه لشخصية بنيتو موسولينى فى كتابه الرائع قائلاً: «كانت مواقف بنيتو موسولينى مسرحية، ولكن لم يكن ثمة من ينكر عليه ما فى صوته من جاذبية طاغية، وما فى إيماءاته من عنف واستفزاز وتكرار، وما فى مواهبه من قدرة على استخدام التعبيرات المسرحية والإشارات الغامضة، والاستعارات القوية، رغم لامعقوليتها، وقد أنمى لديه قدرة عظيمة على إثارة العواطف. عن طريق المجيء بسلسلة من الجمل المتقطعة التى يلقيها فى تدفقات حماسية، ولكن فى نغمات صوتية متباينة يؤكد بها إيماءات مدروسة ومحسوبة لينسجم كل الانسجام مع الجو الحماسى الذى يحيط به، وكان قد أنمى فى نفسه أيضاً تلك القدرة التى باتت تمثل لديه فيما بعد عبقرية خطابية فى فرض المزاج الذى يريده على جماهير سامعيه، أو ما يشبه الدعاء غيرا لمحفوظ يشترك فيه المستمعون بتلاوة ردودهم على أسئلته الملحة، ثم يثر ما يقولونه فى عبارة مبسطة يعيدها على مسامعهم لينفجر انعكاسهم منطلقاً فى صورة تشجيع عاطفى يؤكدون فيه وحدتهم وراءه.

ويستطرد قائلاً فى فقرة أخرى تجسد ملامح شخصية بنيتو: وكان بنيتو قد اتقن أيضاً الإفادة من مجموعة من الهتافة الذيت تنطلق هتافتهم بالموافقة عند إشارة معينة أو إيماءة متفق عليها، فتسرى عدواهم إلى الجماهير، وأدرك فوق ذلك كله الحاجة إلى جماعة من المعجبين المخلصين حوله يستطيعون أن يؤلفوا نواة أتباعه المستعدين للسير وراء زعيمهم.

بمرور الوقت، ومع تنامي صعود نجمه وتألقه فى مسرح السياسة راح بنيتو يدعو غلاة الاشتراكيين ودعاة الثورة على الأوضاع إلى مؤازرته ومساندته، ودعم تحركاته وانطلاقاته لتدمير قواعد وأعمدة النظام الحاكم الذى نخر سوس الفساد عظامه، وبدا على وشك الانهيار.

ولم يكن بنيتو يتورع فى خطبه عن الدعوة العلنية الجريئة للتحرك ضد النظام عبر استخدام العنف والسلاح من أجل تغيير الأوضاع السائدة.

وربما كان ذلك جزءاً أصيلاً عن شخصية بنيتو، حيث نما منذ نعومته على القوة والبطش والعنف، ولعل هوايته التى كانت محببة إلى نفسه فى تسلق الأشجار القريبة من كنيسة قريته، وبإلقاء الحجارة على روادها من الأهالى أو من رجال الدين البابوى تأكيداً على أنه شخصية فجة مقرزة عنيفة حادة الطباع عصبية المزاج.

ثم إصراره على الاعتداء المتواصل على زملائه فى الفصول الدراسية، بل وتهجمه على معلميه، ومحاولات هروبه ورفضه التواصل والترابط مع أحد بداخلها يبرهن على أن هذا الشاب لم يكن ممثلاً ومدعياً بطولة بل هو فى الأساس يتحلى بالشجاعة وقوه الإرادة والبأس والصلابة.

أضف إلى ما سبق الإشارة إليه عنفه ويطشه الذى اشتهر به منذ صغره مع أبناء قرية دوفيا، ولعل ذلك كان دافعاً لفشل علاقته مع شقيقة زوجته الكبرى لتي أدركت مغبة الارتباط منه، وقس على ذلك صوراً ونماذج أخرى كان يتميز خلالها بالقوة والعنف، ويصرف النظر عما أورده كريستوفر هيرت من أنه رجل مسرحى. فالواقع أن الخطابة أمام حشود غفيرة لاسيما تلك التى ترهف

السمع لمن علقت عليه آمالها جعلته يلقي بكلمات طنانة وعبارات رنانة من أجل إلهاب مشاعرهم وإشعال حماسهم وتوظيف طاقاتهم وإطلاق أعنف الصرخات والصيحات والآهات من مكنوناتهم.

ثم أن موسوليني لم يكن هو فقط الذى قد أتى بحركات مسرحية أمام الجماهير بل، إن جميع الساسة البارزين واللامعين يجيدون ذلك ببراعة واقتدار وكفاءة وهذا لا يعيب، حيث إن للخطابة فنونها وقواعدها وآدابها وأصولها وعلومها.

حتى الخطابة على منابر الوعظ فى صلاة الجمعة تعتمد على براعة الإمام وبلاغته، كما تعتمد على نقاء صوته ونبراته المثيرة، وإدراكه متى تعلو طبقاته وأين يخفضها، ومن ثم كان فضيله الإمام الراحل عبد الحميد كشك يتحلى بشعبية هائلة فى أرجاء العالم الإسلامى، لما يملكه من قدرة فذة على الخطابة وإثارة الحضور.

وكان الإمام الخومينى هو الآخر يملك القدرة الفذة على التأثير فى الجماهير عبر خطابه التى كان يلقيها على أسماع الشعب الإيرانى، ومن قبله كان الرئيس جمال عبد الناصر الذى كان يلهب حماس جماهير الأمة بطبقات صوته الصافية النقية الشجية، والتى كان يعتمد توظيفها على نحو أو آخر بصورة قد تبدو تلقائية.

بل إن الشاعر حافظ إبراهيم الذى لقبه أدباء الأمة بشاعر النيل كان يتفوق على نظيره ومنافسه العتيد أمير الشعراء أحمد شوقى لبراعته فى إلقاء الشعر وقدرته الغريبة فى التأثير على الحشود الغفيرة التى جاءت لتسمع، وهو ما كان

يؤثر بالسلب على شعر أحمد شوقي الذى كان يفتقد حماسة الإلقاء وبراعة الخطابة.

وكانت الجماهير التى تتوافد على تلك الأمسيات الشعرية يخيل لها أن شعر حافظ إبراهيم يفوق ما أورده أمير الشعراء، بيد أن حقيقة الأمر تنجلي فى الصحف التى تصدر فى الصباح حين تصدر قصيدة كل منهما صفحتها وتبين للقاصى والدانى روعة وعظمة قصيدة أمير الشعراء التى تفوق أشعار حافظ إبراهيم، مع الأخذ فى الاعتبار أهمية الإشادة بقصائد شاعر النيل وتجلياتها وسحرها، حيث إننا نشير هنا فقط إلى مدى تأثير الجماهير بالأداء الحسى على حساب الأداء المتواضع لأمير الشعراء.

بل إن مصطفى كامل كان يملك حسا وطنيا هائلا، لكنه استطاع بكفاءته فى الخطابة وعبقريته النادرة توظيف قواعدها على نحو غير مسبوق، فأصبحت كلماته العفوية أقوالاً ماثورة، وعباراته التلقائية محفورة مسكونة فى القلوب، ومنها: «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً» و«بلادى بلادى لك حبى وفؤادى، ولا معنى للياس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس!!».

لكن محمد بك فريد الزعيم الوطنى الذى خلقه لم يكن يتمتع بهذا الثراء العريض الذى كان يتمتع به مصطفى كامل فى طبقات صوته، ومن ثم كان محمد فريد رغم شهرته الذائعة أقل حظاً من مصطفى كامل من حيث التأثير واجتذاب واستقطاب الجماهير، بيد أن عطاء محمد فريد بك وإغداقه على الشعب من أمواله التى ورثها عن آبائه، ونضاله المستمر وكفاحه المرير ضد الاستعمار كانوا أهم مقومات نجاحه بوصفه أحد ألمع زعماء الأمة المصرية.

وكان سعد زغلول على عكس محمد فريد، حيث كان سعد بليغا ضليعا قوياً خطيباً مفوهاً يشعل الحماس بمجرد أن يطل على المنصة، وهو ما يذكرنا بخطيب الثورة الفرنسية ميرابو حين كان يتصدر مؤتمر جماهيريا حاشداً، وقد اقترب منه مبعوث الملك يهمس في أذنه بطالبه بفض المؤتمر نزولاً على رغبة الملك، وهى الرغبة التى اصطدمت مع ذكاء ميرابو الذى أشعل ثورة جديدة كانت للجماهير الغفيرة وقودها، حيث صاح بأعلى صوته قائلاً فى شجاعة: قل لجلالة الملك، لن نخرج من هنا إلا على أسنة الرماح. وهى العبارة التى دفعت الجماهير للانقضاض على مبعوث الملك فى إشارة واضحة لكسر إرادة القصر، ومن يسكنه.

والشيء بالشيء يذكر، حيث كان زعيم الثورة الفرنسية التى اشتعلت فى الرابع عشر من يوليو ١٧٨٩ كان قد ألقى به فى غياهب السجن بتهمة الانقلاب على الملكية، وبينما كان الزعيم دانتون يقف وراء القضبان الحديدية داخل قاعة محكمة نصبتها الحكومة التابعة للملك لويس السابع عشر لمحكمة دانتون احتشدت الجماهير الغفيرة المتعاطفة مع دانتون، وفى بداية الجلسة راح رئيس المحكمة يسأل دانتون على النحو التقليدى قائلاً له: ما هو اسمك أيها المتهم؟! من ناحيته تظاهر دانتون بعدم سماعه ما تفوه به رئيس المحكمة الذى عاد يسأل فى إصرار قانونى: أجب أيها المتهم، ما هو اسمك؟ فالتفت دانتون ناحية جماهير فرنسا الغفيرة التى جاءت تتابع فصول المأساة التى كان بطلها دانتون، وراح يتأمل صفحة مياه نهر السين الذى تحتشد على صفته المواجهة لقاعة المحكمة هاتفا بأعلى صوته: أيها الشعب الفرنسى العظيم... إن رئيس

المحكمة يسألني مراراً: ما هو اسمي، فأجبه أنت أيها الشعب الفرنسي العظيم.. أحبه حتى يعرف من أنا ومن أكون؟!

وجاءت الإجابة عبر انطلاق الحشود صوب قاعة المحكمة للفتك برئيسها وتخطيطها في ثورة غضب عارمة أشعلتها قدرة دانتون وذكاءه وإلمامه بفن الخطابه، ولولا ذلك لمضت الأحوال لما هو مخطط لها من قبل السلطات الملكية المستبدة.

وهكذا كان للخطب الثورية والعبارات الحماسية تأثيراً بالغاً في تحريك القوى الشعبية وإيقاظها من سباتها العميق، وهذا ما يتطلب من هؤلاء الخطباء الأفاضل الإتيان ببعض الحركات المسرحية والتمثيلية لنفت الأنظار واجتذاب الجماهير ومحاولة إشعال حماسهم، والزعيم النازي أدولف هتلر كان ممثلاً بارعاً في أدائه أثناء خطابه التي حركت الأمة الألمانية وأشعلت ثورة الرائح الثالث، ولولا مهارة هتلر وحسن أدائه واعتماده على بعض الحركات المصطنعة ما كان قد استطاع أن يقود الجماهير الغفيرة حيث أراد.



على أية حال كانت الحماسة الخطائية والمقالات النارية هي زاد بنيتو وأدواته ورأسماله وأهم عناصره الجاذبة للجماهير، ولولا ذلك ما كان له شأن يذكر، ولاضحى واحداً من ضمن أصحاب المنابر والصحف الاشتراكية التي كانت تتوالد وتتكاثر مع بزوغ الحركة الاشتراكية، وتوحش النظم الرأسمالية.

لكن بنيتو كان له قصب السبق في الإقدام على أفعال لا يتجاسر غيره على القيام بها، ومن جملة ذلك حينما كان ذات ليلة متوجهاً إلى إحدى دور

المسارح برفقة زوجته راشيل، وقد لاحظ تأخر إدارة المسرح فى رفع الستار، وهو ما دفعه للوقوف أمام جماهير المسرحية شاهراً حذائه مهدداً أعضاء الفرقة المسرحية بالضرب بهذا الحذاء إذا طال تأخرهم عن ذلك!!

كان هذا التصرف الأحمق يشير على نحو مألوف أن صانعه هو فقط بنيتو موسولينى، ولا أحد غيره يمكن أن يقوم بمثل هذا السلوك الحاد.

ثم تأمله حين تقدم ذات مرة جماهير مدينة فورلى متوجها إلى قاعة البلدية وهو يتفوه بأقذع الشتائم والسباب واللعنات على المسئولين بها، وقد صب جام غضبه عليهم مهدداً أمام الجماهير الغفيرة رئيس البلدية أن يلقي به جهاراً نهاراً أمام الناس من نافذة مكتبه إذا هو لم يسرع الخطى فى العمل على تخفيض سعر عبوات لبن الحليب الذى ارتفع ثمنه بصورة صادمة ومفاجئة.

وما من شك أن موسولينى ما كان ليصبح زعيماً وطنياً متألفاً فى عيون أبناء الأمة الإيطالية لولا أن تصدر المشهد السياسى العام مستخدماً أدواته التى اعتاد على ممارستها، وعباراته التى لم يكن يكف عن إطلاقها، وشعاراته التى طالما تغنى بها، فغدت تتصدر جدران الشوارع وواجهات الميادين على اعتبار أنها أقوال مأثورة محفورة فى وجدان الشعب الإيطالى.

وتجلت شخصية بنيتو، وتأكد من زعامته وشعبيته العنيدة الراسخة فى قلوب أبناء الشعب الإيطالى حين تلقى نبأ وفاة والده أليساندرو أثناء اجتماع كان يعقده فى مكتبه مع محررى صحيفته الشهيرة «الصراع الطبقي»، حيث انتشر خبر وفاة والده فى أنحاء فورلى التى خرجت جماهيرها فى التو متوجهة إلى

بيت والده لتقديم واجب العزاء لبنيتو ومشاركته تشييع الجثمان إلى مثواه الأخير .

كانت الوفاة التي اهتزت لها فورلى فى أواخر عام ١٩١٠ ، وقد التفت الحشود حول بنيتو تدعّمه وتشد من أزره ، وكأنه إزاء مصاب جلل ، فيما كانت الحقيقة أن بنيتو لم يكن متأثراً بوفاة والده قدر تأثره البالغ لتلك الجموع الغفيرة التي توافدت على بيته ، حيث لم يكن والده ذا شأن عظيم فى حياته على عكس والدته التي وهبت حياتها من أجله هو وأشقائه .

فى أثناء تشييع جنازة المهية أدرك بنيتو موسولينى كم غدا مرموقا لامعا بازغاً بين أبناء فورلى وخارجها ، الأمر الذى دفعه لكى يسعى من أجل الحفاظ على هذه الشعبية الجارفة ، وأن يبذل قصارى جهده لزيادتها ومضاعفتها ضماناً للوصول إلى رأس السلطة ، ذاك الحلم الذى داعبه منذ صغره ، وراح يحدث عنه أمه وأشقائه وأقرانه .

وأمام قبر والده وبعد أن وراه الثرى وقف بنيتو بقامته الصلبة وبنياته المتين يلقى على أسماع المشيعين كلمات الشكر والثناء والتقدير لمشاركته أحزانه ومأساته ، ثم سرعان ما تحول فى كلمته التي كانت من المفترض أن تستعرض تاريخ الأب وراثته والإشادة بما قدمه ومنحه له ، وهو بالطبع ما لم يحدث على الإطلاق .

واضطر فى استغلال واضح فاضح إلى شن هجوم عنيف كعادته على رموز الملكية المستبدة وعلى حكومة جيوفانى جوليتى التي لم تكن تراعى أهمية

تكريس قواعد وآليات البعد الاجتماعى لحماية أبناء الشعب الإيطالى من الوقوع فى براثن الفقر والمرض والشقاء.

كانت الكلمات ملتهبة والعبارات نارية والشعارات ساخنة، فتحولت الجنازة إلى مؤتمر سياسى حاشد مناهض للسلطات الحاكمة، الأمر الذى أثار عاصفة من الإعجاب والامتنان سرت فى قلوب المشيعين الذين أطربهم أداؤه وهجومه وطبقات صوته المفعم بالحيوية والقوة والحماس.

من هنا تجلت شخصية بنيتو موسوليني الذى أصبح حديث الجميع، حين راح أغلبهم يستشهدون بما صنعه فى جنازة والده على اعتبار أنه وضع مصلحة الأمة وحقوق الشعب ومطالبه فوق مصلحته الشخصية، ولو كان ذلك فى أثناء تشييع جنازة والده.



كانت راشيل آذاك قد تأكد لديها سلامة اختيارها لهذا الزوج الذى أمسى زعيماً لا يشق له غبار فى عيون الإيطاليين، وراحت تمنحه كل ما تعتلج به من عواطف وأحاسيس لدفعه إلى الأمام، ولمزيد من النجاح على المستوى العام.

والواقع أن بنيتو موسوليني كان زوجاً رائعاً على عكس ما كان يتظره الجميع منه، بل إنه ظل يدين بالولاء والوفاء والنجاح لتلك الزوجة العظيمة التى ارتضت به زوجاً رغم أنف والدتها، وكأنها قد راهنت على حصان السباق الأسود الذى سيجتاح حلبة السباق، وهى قد تبين لها مدى رجاحة عقلها وصدق حدسها حين تمسكت به زوجاً وأباً لأطفالها على اعتبار أنه سوف يكون له شأن عظيم فى المستقبل.

ومع قدوم صيف عام ١٩١١ اجتمعت الحكومة الإيطالية برئاسة (جيوفاني جيوليتي) لاتخاذ قرار عاجل يقضى بضرورة إرسال حملة عسكرية ضخمة إلى برقة وطرابلس لحماية الرعايا الإيطاليين وصيانة ممتلكاتهم، وإعادتهم إلى روما قبل أن يلحق بهم أى أذى.

وكان بنيتو موسوليني يعلم أن هذه مجرد ذرائع لاسند لها من الحقيقة، وقد لوحث بها الحكومة لضمان موافقة الشعب ومباركته لهذه الحملة الاستعمارية الظالمة التى استهدفت حياة الشعب الليبى الطيب المسالم، والذي كان يوفر كعاداته السلامة والطمأنينة ويثر بذور المحبة فى أرجاء بلاده ليتظلل الجميع بالأمان بغض النظر عن هوياتهم وجنسياتهم.

لكن الواقع الذى كان موسوليني على بينة منه أن إيطاليا أرادت أن تحذو حذو القوات البريطانية والفرنسية والروسية فى حملاتهم الاستعمارية على أفريقيا وآسيا، لا سيما الحصول على كعكة دولة الخلافة التركية التى وهن عظمها وشاب شعرها وتقوس ظهرها وتجلت التجاعيد على وجهها.

وحين ترمى للأسماع هذا النبأ المفجع ثارت ثائرة بنيتو موسوليني ومعه زعماء وقادة الاتحادات والصحف الاشتراكية الثورية التى ساءها صدور مثل هذا القرار الذى ينتهك حرمة البلدان المسالمة، ويدنس أعراضها، لا سيما وأن هناك علاقات شعبية وطيدة وعميقة وقديمة مع أبناء الشعب الليبى المسالم بيد أن ساسة إيطاليا لم يكونوا ممن يعبأون بمثل تلك العلاقات الإنسانية، حيث إن ليبيا باتت مطمعا ولو لم تسرع الخطى نحوها لاكلها الذئب الفرنسى أو الأسد البريطانى أو النمر الروسى.

وراحت الحكومة تعلق حملتها وتذرع بالأكاذيب والأوهام أمام غضبة الشعب وثورته العنيفة التي أشعلها غلاة المذهب الاشتراكي، وكان بنيتو على رأسهم كما هو متوقع.

لم يكن احتجاج بنيتو يتعلق بالتظاهر الشعبي لرفض القرار فحسب، بل راح يصعد من حملته القاسية وطالب مع زعماء الاتحاد العام بضرورة اللجوء إلى الإضراب الشامل والعام لإصابة البلاد بالشلل لعل الحكومة تتراجع عن قرارها الغاشم والظالم الذي كان يعبر بجلاء عن أطماع الإمبريالية والرأسمالية المتوحشة والجائعة.

ومضى بنيتو يوما بعد آخر يطالب بالمزيد من الإجراءات العقابية لتلك الحكومة العدوانية، وقد بلغ أوج حماقته حين ناشد جماهير الشعب الإيطالي الساخطين على قرار الحكومة بالحضور إلى مؤتمر سياسي سيقامة أمام مقر جريدته، شريطة أن يحملوا معهم أسحتهم النارية لشن هجوم كاسح على مقر السلطات الحكومية، بدلا من الاكتفاء بالتصفيق الحار وإطلاق الشعارات والهتافات التي ولى زمانها، حيث لم يعد الأمر يحتمل مجرد التظاهر السلمي.

ولاقت دعوة بنيتو قبولا غير مسبوق، حيث توجهت الجموع الغفيرة إلى حيث دعاهم، يحملون ما طالته سواعدهم كقضبان السكك الحديدية وفؤوس حقولهم ومسدساتهم وعصيانهم الغليظة حتى اندلعت المظاهرات في مدينة فورلى، الأمر الذي دفع الحكومة الإيطالية برئاسة جيوفانى جيوليتى بسرعة إلقاء القبض عليه وايداعه السجن بتهمة تحريض الجماهير وتآليبهم وتثويرهم على النظام الحاكم.

وإزاء ذلك التطور الخطير ألقى القبض على بنيتو موسولينى وإيداعه السجن عقاباً له على ما اقترفه فى حق البلاد، ومسئوليته المباشرة فى تدمير المقار الحكومية وإلحاق الأذى ببعض رجال الشرطة، وتطاوله على الملك وحكومته، وإضرار الحرائق فى بعض الممتلكات العامة والأخرى التى يستحوذ عليها أثرياء إيطاليا، وظل بنيتو نزيل زنزانه الاعتقال يترقب ساعة خروجه لمعاودة نشاطه ومتابعة جريدته رغم النشوة التى تحتويه داخل السجن، لإدراكه للمغزى الذى ينطوى عليه سجنه من تزايد شعبيته وتآلق نجمه ولمعانه كلما واجهته المحن وحاصرته الشدائد، وبات أسيراً مكبلاً بقيود السلطة الغاشمة.

لكن بنيتو كان يتوق إلى رؤية زوجته راشيل وطفله الجميلة إيد، وكثيراً ما تقدم بطلبات عاجلة لرؤيتهم ولقائهم، وقد كانت السلطات تستجيب لمطالبه وتستدعى زوجته وطفله لمقابلته، الأمر الذى كان يسعى إليه بنيتو للوقوف على آخر التطورات والأوضاع فى الشارع الإيطالى عبر حديثه الطويل مع زوجته راشيل.

أما راشيل فلم تكن خلال تلك الفترة العصبية مجرد زوجة سجين، بل شريكة مناضل سياسى يسعى جاهداً على نحو غير مسبوق لإشعال فتيل لثورة الاشتراكية ضد الحكام والأثرياء، وهو يدفع نظير ذلك ثمناً فادحاً من حريته وأعصابه.

وراحت راشيل تدلى بدلوها عن حياة بنيتو ومواقفه وصفاته كزوج وأب وزعيم سياسى، وهب شبابه وحياته من أجل رفعة إيطاليا، وأملاً فى مستقبل

مشرق لأبنائها الذين عانوا من الفقر، وتألوا كثيرا من الجوع، واكتوا من الظلم .

ومع انقضاء خمسة أشهر قررت السلطات الإيطالية فك سراح بنيتو موسوليني بعد أن لمست السلطات هدوء الأوضاع وعودة الانضباط إلى الشارع، وظنها أنها تمكنت من تأديب بنيتو وكبح جماح غضبه وتمييع حركته الثورية وإطفاء جذوته المشتعلة.

لكن بنيتو ذلك الثوري العنيد العنيف لم يكن يستكين لمجرد أن ألقى به داخل زنزانه، زهاء خمسة أشهر، حيث إن الأمر أهم وأكبر وأخطر مما تظنه السلطات به.

لذلك لم يهدأ ولم يهادن، بل خرج من السجن أكثر عناداً وصلابة وتحدياً، بيد أنه قرر أن يبادر باتخاذ خطوات شجاعة وحكيمة وعقلانية تمكنه من قيادة الجماهير بصورة رصينة منظمة بدلاً من الفوضوية والعشوية التي يتهجها ليقضى في نهاية الأمر الربح في كلتا يديه.

صحيح أنه يمضي إلى الأمام، ويتصدر زعامات إيطاليا، وبات نجماً يثير الألباب، وأن شعبيته في تزايد مستمر، لكنه أضحي يتدبر أمره، ويسعى لصياغة سياسة جديدة تؤهله للصدارة دون أن ينازعه أحد من غلاة الاشتراكية في مكانته.



على ضوء هذا التطور راح بنيتو يتأمل المشهد السياسي العام في إيطاليا، وأين هو منه، وانتهى به الأمر أن قرر تأسيس حزب اشتراكي ثوري شعبي

يحتوى تلك الجماهير الغفيرة التى تسانده وتؤازره وتعضد مواقفه السياسية المناهضة.

كان بنيتو يتطلع إلى زعامة الجمهور الاشتراكى، حيث رأى أنه الأحق والأفضل لما قدمه لهذا الشعب من تضحيات جسيمة، آخرها اعتقاله وابتعاده عن بيته، وحرمانه من أفراد أسرته، كان بنيتو يعتمد فى اتخاذ مثل هذه الخطوة على منصبه المتميز داخل اتحاد فورلى الاشتراكى.

كانت هناك بالطبع مؤامرات ينسجها خصومه من الاشتراكيون الثوريون الذين أزعجهم ظهوره على نحو لافت للانتباه، حتى أن بعضهم راح يصفه بالجهل والفوضوية وضيق الأفق، وسلاطة اللسان، وافتقار الذوق واللياقة.

والواقع أن هذا الهجوم الضارى الذى شنه أعضاء المؤتمر القومى الاشتراكى قد أثار أعصابه وأزعجه، مما اضطره إلى التصدى له ومقاومته، والرد عليه بأعنف مما يتصورون، حتى لا ينبس أحد منهم ببنت شفة بعد اليوم، وراح يطوف البلدان لحشد أنصاره وكسب تأييدهم له فى زعامة حزب الاشتراكيين.

وكان لخطبه التى ألقاها مفعول السحر، لا سيما عندما يطالب أنصاره بالتخلص فوراً من أعضاء الحزب الذين يلعبون ويمارسون السياسة بوجوه متضاربة، حيث يمدحون الملك ليلاً فى قصره ويقدحونه نهائراً لكسب أنصارهم.

لم يكف بنيتو بذلك، بل راح يفضح أسماء الثورين المتعاونين مع ملك البلاد، مما أضاف إلى رصيده بوصفه الرجل الشجاع الذى نازل خصومه وفضح ممارستهم والأعيابهم، وفى مؤتمر الحزب الاشتراكى الذى انعقد فى

شهر مايو ١٩١٢ استطاع آنذاك السيطرة على اروقته بعد أن تعرض خلاله لضربات موجعة كادت تقضى على مستقبله السياسى، ويخفت نجمه لقوة خصومه وصلابة مقاومتهم وضراوة هجومهم على شخصه وسلوكه المتهور والمستفز.

وفى أواخر العام الذى شهد أحداثاً دامية بين موسولينى وأتباعه من جهة وزعماء الاشتراكية المناهضين من جانب آخر، رجحت كفة بنيتو موسولينى بعد أن احتشدت الجماهير تطالبه بتنصيبه مسئولاً فى الحزب، بيد أن مراكز القوى داخل الحزب كان تحول بينه وبين علو مكانته.

وأمام الضغوط التى شنها أعضاء الحزب ورؤساء لجانه ومؤتمراته انعقدت اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى، وأصدرت بياناً مطولاً يشير جماهير الحزب بالامتنال لرغباتها، وبالفعل جاء فى قرار اللجنة بعد انعقاد جلسات مطولة ومناقشات جادة تهدف إلى الصالح العام للحزب قررت اللجنة التنفيذية بالإجماع تنصيب البروفيسور بنيتو موسولينى من بلدة فورلى رئيساً لتحرير صحيفة الحزب «أخانة».

وكان القرار المفاجئ تأكيداً على تغلب بنيتو موسولينى على خصومه داخل دائرة الحزب، وتوسيع دائرة نفوذه وتألقه وتزايد المد الجماهيرى الذى يبارك خطاه ويدفعه إلى مزيد من التقدم والانتصار حتى تخلص له الساحة مستقبلاً.

وما أن تولى بنيتو مهام منصبه الجديد كرئيس تحرير الجريدة الرسمية للحزب والتى تعبر عن آماله وسياساته وبرامجه ناضل وقاتل وكافح من أجل زيادة توزيعها حتى يبرهن لمن رشحوه أنه جدير لهذا المنصب، ومن ثم بلغت النسخ

التي طبعتها أكثر من مائة ألف نسخة، مما أثار دهشة الخصوم وإعجاب الأصدقاء والذين كانوا يراهنون على قدرته الفذة في الوصول بالجريدة إلى أعلى مستوياتها بما يمكن أن يفوق جميع الصحف التي تنافسها.

لكن بنيتو الذي أكد جدارته وكفاءته في تحرير الجريدة كانت تتراقص طموحاته وأحلامه أمام عينيه، حيث لم يكن راضياً بحال من الأحوال على استمراره رئيساً لتحرير جريدة الحزب مهما بلغ توزيعها، حيث كان يتطلع إلى رئاسة الحزب رغم إدراكه صعوبة ذلك في الوقت الحالي بعد أن تجلّى خصومه وبادروا لعرقلته وتجميد حركته.

على نحو أو آخر بذل بنيتو قصارى جهده من أجل الوصول إلى مراده مهما تعاظمت التحديات وتوحشت الصعوبات وتعمقلت الخصومات في طريقه، ومن ثم كان بنيتو يوطد علاقاته مع أعضاء الحزب عبر العمل الدؤوب على مجاملتهم وملاطفتهم، وإبداء اهتمامه بهمومهم وقضاياهم ومشكلاتهم الشخصية، حتى تمكن من استئثارهم واجتذابهم في سياسة اعتمدت على المكر والذكاء والدهاء.

في تلك الأثناء كان بنيتو لا يتورع عن دك حصون الملكية المستبدة وأنصارها من الرجعيين والرأسماليين ورجال الكنيسة الموالين للملك من خلال مقالاته النارية وخطبه الحماسية التي لم يكن يدخر وسعاً في تدشينها من أجل الحفاظ على مكاسبه التي حصدها طوال السنوات المنصرمة.

وأمام نفوذه الطاعن بين أعضاء حزبه وجماهير إيطاليا كان بنيتو يخطط سراً للوصول للبرلمان الإيطالي بوصفه أحد أعضاء الحزب الاشتراكي على اعتبار أن هذه الخطوة تعد الأهم والأخطر في تاريخه الحزبي النضالي.

الفصل الخامس

موسوليني .. رئيسا للحكومة

(أوه ما أروع هذا الرجل) هكذا صاحت زوجته راشيل التي لم تكن تأبه بما بلغه موسوليني الذي بات قاب قوسين أو أدنى من منصب رئيس وزراء إيطاليا وأقوى رجالها على الإطلاق، لا سيما وأنها قد انكبت في بيتها بميلان للتفرغ لتربية ولديها فيتوريو المولود في عام ١٩١٦ وشقيقه ١٩١٨ .

كانت راشيل تخجل من الظهور بجوار زوجها إعلاميا واجتماعيا انصياعا لرغبته التي لم يفصح لها عنها، حيث اعتاد على الظهور بمفرده لإدراكه مدى حيائها إزاء الآخرين، وعلى الرغم من أنها كانت على يقين من تعدد علاقاته الغرامية التي لم يكن يكف عن نسج خيوطها كلها إلا أنها منحت له الفرصة، فقد كانت تقول لمن حولها: «لكنه يحبني بجنون» .

الشاهد أن بنيتو موسوليني انتقل بمفرده إلى روما على إثر القرار الذي تسلمه من الملك بتشكيل حكومة جديدة، لعله بذلك يضع حداً للفوضى والثورة التي عمت أرجاء البلاد تحت زعامة موسوليني الذي أشعلها ويات عليه وجوب إخمادها .

وفي صباح الثاني والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٢٢ وقف بنيتو بقماته أمام مجلس النواب الإيطالي بوصفه رئيس الحكومة الجديد قائلاً في خيلاء أثارت دهشة من لا يروق لهم، وإعجاب من يميلون لأسلوبه وسياسته:

«أيها السادة.. أود أن أبلغكم في هذا المقرر التاريخي العريق أنه كان بمقدوري أن أحيل تلك القاعة الهادئة إلى قاعدة عسكرية مكتظة بالأسلحة يحملها أنصاري من ذوى القمصان السوداء.

كان بوسعي أيضاً يا سادة أن أنصب هنا بالتحديد متحفاً للجثث، وأحفر بحراً من الدماء وآخر من الدموع، بل لا أغالى إذا قلت لكم بملء الفم أنني كنت على استعداد أن أوصد أبواب قاعتكم هذه بالمسامير ولن يستطيع كائن من كان أن يقاومني أو يعارض.

كانت الكلمات لكلمات على وجه الملك وحاشيته، وصفعات على وجه أعضاء البرلمان الذين روعتهم حدته وصلفه وغروره ووحشيته.

في تلك الأثناء كان أنصاره من أصحاب الياقات السوداء يتوافدون عبر وسائل المواصلات وخصوصاً قطارات السكك الحديدية لمؤازرته ودعمه أمام الملك وحاشيته.

وعلى إثر التكليف الذي تسلمه من الملك راح يشكل حكومته الوليدة من مختلف القوى السياسية الإيطالية، باستثناء تلك القوى التي كانت تجاهر بعدائها للقومية الإيطالية، ومن ثم حظى الديمقراطيون الاجتماعيون أو الاشتراكيون وجماعات الكاثوليك والأحرار بعدد وافر من الحقائق، حتى إن أنصار موسوليني من أصحاب الياقات السوداء أو ممن أطلقوا على أنفسهم الفاشيين قد نالوا نحو أربعة مقاعد فقط

كانت سياسة بنيتو موسوليني تهدف إلى الاستحواذ على جميع أدوات السلطة وإغلاق أبوابها أمام أعداء حزبه بيد أن عنصر الزمن لم يكن ملائماً

فى تلك الفترة، ومن ثم أثر أن يتحلى بفضيلة الصبر ريثما تتراقص أمامه اللحظة المناسبة.

كان بنيتو لا يصدق أنه بات رئيس وزراء إيطاليا، وراح يتذكر مقولته لوالدته من أنه سوف يكون له شأن عظيم فى بلاده، وهى العبارة التى كان يتناقلها أقرانه بين مصدق له ومستخف به.

وللتأكيد على رغبته الجامعة فى الاستئثار بالسلطة راح يحتفظ بمنصبى وزارة الخارجية والداخلية إلى جانب رئاسته للوزارة.

وفى بحر عشرين يوماً من توليه رئاسة الحكومة راح يطلب عقد اجتماع برلمانى عاجل وطارئ لعرض بعض مقترحاته التى من شأنها إتاحة الفرصة لحكومته لتصفية الفجوة بين طبقات الأغنياء والفقراء، والسيطرة على الأسعار التى انفلتت ولم يعد القانون الذى يحكم البلاد رادعاً لها.

كان موسولينى كثيراً ما تغنى وعزف على أوتار الفقراء والضعفاء والبؤساء، للتربيع على أفئدة الشعب الإيطالى الذى كان يئن ويتوجع ويتطلع إلى من ينتشله من براثن الفقر المدقع الذى يضرب قاعدته العريضة، وفى اجتماعه الطارئ راح بنيتو يلقي كلمته المطولة أمام أعضاء البرلمان بصوته الجمهورى الجذاب، وبكلماته الساحرة الساخنة الملتهبة المثيرة.

فى مستهل كلمته تحدث بنيتو عن الأوضاع الاجتماعية المتدهورة، والاقتصادية الطاحنة، والسياسية المهترئة، ثم سرعان ما طلب من أعضاء البرلمان منح حكومته بعض الصلاحيات الواسعة والسلطات الاستثنائية المطلقة لفترة لا تقل عن عام واحد فقط.

وأمام مطالبه التي باغت بها أعضاء البرلمان الذين استولى عليهم الصمت الرهيب راح يفند لهم في طلاقة انعكاسات تلك المطالب الإيجابية على الشعب الإيطالي والأمة بأسرها، وكانت المطالب محل قبول من البعض واعتراض من البعض الآخر، ولما تجلّى له غلبة مؤيديه اقترح اللجوء إلى التصويت السري والامتنال لما سوف تسفر عنه نتيجة تصويت أعضاء البرلمان على اقتراحه الخطير.

لقد استطاع بذكائه الحاد أن يدرك مدى التأيد الذي تجلّى على وجوه الأعضاء بعد أن تفرس وجوههم، ولو كان يعلم أن التصويت السري سوف يأتي برياح عاتية لا تشتهيها سفنه ما اقترح عليهم ذلك.

وفي غضون نصف الساعة من إجراءات الاقتراع السري المباشر أسفرت العملية عن قبول اقتراحاته بأغلبية بلغت نحو ٢٧٥ صوتاً مقابل ٩٠ صوتاً أبدوا مخاوفهم من توسيع صلاحياته.

لقد كانت النتيجة تفوق توقعاته وتنبؤاته، وهو ما دفعه للعمل والاستغراق في كيفية النهوض، فضلاً عن السعى إلى اكتساب المزيد من صلاحياته وسلطاته حتى يتسنى له حكم البلاد من خلال قبضة حديدية وإن أدى الأمر فيما بعد إلى الإطاحة بالملك والقضاء على حاشيته وتصفية أنصاره رمياً بالرصاص إذا دعا الأمر لانتهاج مثل هذا الأسلوب الدموي العنيف.

ومضى في سياسته الحادة والعنيدة، وقد كان كثيراً ما يختلى بنفسه في مسكنه الجديد لحفظ بعض الأرقام والبيانات قبل إجراء أية مقابلات أو إلقاء أية خطابات حتى يلقيها أمام الجماهير أو الضيوف بصورة عفوية تظهر مدى قدرته

العقلية الفذة فى حفظ المعلومات والإحصاءات بغرض جذب الجماهير واستقطابهم والاستحواذ على إعجابهم به .

ويبدو أن هذه الحيلة كان يتحلى بها الطغاة على مستوى العالم، حيث إن أغلب زعماء العالم العربى لا يكفون عن ترديد الأرقام والإحصاءات والبيانات بصورة تلقائية تدفع السامعين للدهشة والاستغراب، وهى للأسف حيلة انطلت على الشعوب طوال العهود الماضية .

لم يكن ذلك فحسب، بل إنه كثيراً ما تظاهر علناً بالوقوف مع أبناء الطبقات الفقيرة كلما أبدى الشعب سخطه من أحد الوزراء، حيث كان يلومه ويقرعه ويصرخ فى وجهه أمام الإعلاميين حتى تنتقل تلك الواقعة إلى الشعب ، ومن ثم كان يطلق عبارات حماسية مثيرة تسحر ألباب الفقراء، أما الغريب فإنه كان يلاطف أولئك الوزراء الذين لامهم أمام الصحفيين إذا ما اختلى بهم فى مكتبه، الأمر الذى كان يثير دهشة الوزراء وامتعاضهم من طريقته .

كان أيضاً كعهد التاريخ بالطغاة والمستبدين لا يكف عن الخطابات الحماسية والملتهبة والمتأججة بنيران الوطنية والقومية والاشتراكية، حيث كان مولعاً بالتواجد بين العمال فى مصانعهم والفلاحين فى مزارعهم والطلاب فى جامعاتهم، ولم يكن يمل من التقاط الصور عبر عدسات الصحفيين المرافقين له ونشرها فى صدر صفحات الجرائد الإيطالية، وفى صفحاتها الأولى على وجه الخصوص .

كان يظهر وهو يحصد القمح، ويقبل الفلاحين ويحمل أطفالهم ويداعبهم فى حنو الأب وعذوبته، كما ظهرت صورته إلى جوار العمال ووراء الآلات

والماكينات، حتى أضحت من أهم مقتنيات الشعب الإيطالي الذي أثر الاحتفاظ بصورة حبا ورعباً، وهو الأمر الذي لاحظناه لدى البلدان التي كان يحكمها ويتحكم في مصائرهما الطغاة وأصحاب التزعة الديكتاتورية دون غيرهم.

لقد تبين لنا على مدار التاريخ أن الدول التي تحكم عبر صناديق الاقتراع السري المباشر التزيهة أن جدران بيوتها ودواوينها تخلو من أية صورة، كما أن زعماءها لا يهدرون الوقت الثمين فيما لا طائل من ورائه، حيث لا يعيرون عدسات الإعلاميين اهتماماً يذكر.

نهايته.. لقد استطاع الدوتشي تغيير وجه الحياة البائسة في إيطاليا إلى حياة مشرقة متوهجة متألقة بعد أن سن تشريعات صارمة، واتخذ إجراءات حازمة، وأصدر قوانين رادعة تلزم كل من تسول له نفسه المساس بقوت الشعب بالتراجع وإلا واجه عقوبات مشددة لم يعهدها الشعب من قبل.

كان تطبيق القوانين لا يعرف المجاملة أو الاستثناء الذي كان متفشياً ومنتشراً في ربوع إيطاليا، حتى بات الفساد أحد أهم معالم السياسة الإيطاليين الذين كانوا لا يتورعون عن الاستحواذ والتكويش والنهب والسلب دون وازع من ضمير، لم يكن الدوتشي على استعداد لإفشال سياسته الرامية إلى نهضة إيطاليا، ومن ثم انتهج سياسة ارتاح لها الشعب حيث لم يكن يفرق بين طبقة وأخرى.

كان موسوليني مفعماً بالأمل، مملوءاً بالنشاط والقوة والطاقة والحياة والانطلاق، لا سيما وأنه لم يكن قد بلغ الأربعين من العمر.

وما من شك أن سياسة موسوليني الحازمة الصارمة الحديدية أسفرت عن نتائج مبشرة، حيث تحولت القطاعات التي كانت قد شهدت عجزاً هائلاً في إيراداتها إلى قطاعات رابحة لم تعد تعرف العجز والخسارة.

لم يكن ذلك في قطاع واحد فحسب، بل امتد هذا النجاح إلى جميع القطاعات والمصالح الحكومية، حتى أن الدقة والالتزام والنظام والنظافة أضحت من أهم سمات ومزايا الشعب الإيطالي الذي استجاب على الفور لنداء الدوتشي ودعوته إلى إحياء إيطاليا التاريخية العريقة.

في تلك الأثناء تزايدت شعبية الدوتشي وتجلت زعامته وبرز دوره حتى أصبح معبوداً للشعب الإيطالي الذي لم يكن يمل من إطلاق الشعارات والعبارات المعبرة عن محبته وعشقه وتقديسه لهذا الزعيم العظيم.

كانت الجماهير الغفيرة تتربص خطبه وتتوق لعباراته وكلماته، ولو امتد بها الانتظار تحت لفحة الشمس المحرقة طوال ساعات النهار فداء من أجل رؤية الدوتشي والاستماع لسحر بيانه. ولم يكن هناك ما يدعو للغرابة حين ارتقى الدوتشي القمة وبات أعظم رجالات إيطاليا على الإطلاق، وأقل ما يوصف به أنه كان كذلك في عيون أمته.

ومن ثم أطلق عليه البعض أنه أحد الآلهة أو ما يشبه ذلك وهو ما ورد في كتاب «كريستوفر هيرت» حيث قال بالنص في الصفحة العشرين من كتابه «بنيتو موسوليني»:

«وانطلق صوت أحد القادة في السلم الفاشي ويقول وهو يرقبه واقفاً وكأنه

إله يطل من فوق قمة الأولب.. انظر إليه.. إنه أشبه ما يكون بالإله... فرد رفيقه الذى يقف إلى جانبه.. لا إنه لا يشبه الإله بل هو إله.

تأمل كيف استطاع الدوتشى بنيتو موسولينى أن يستولى على مشاعر الإيطاليين ويترعب فى قلوبهم ويتعشش كالعنكبوت فى خلايا عقولهم؟!!

ولأن الدوتشى قد بادر بالقول مراراً وتكراراً حال وصوله للسلطة بأنه لا يحمل فى صدره عقيدة بقدر ما يحمل فى يديه برنامجاً يعتمد على العمل، فقد بذل هو نفسه مجهودات حثيثة فى سبيل إعلاء الفاشية التى يتبناها حزبه، والتى تتعارض كلياً مع الأيدلوجيات الشيوعية والاشتراكية، حتى تمكن من فرض نفوذها ودحر أية عقائد أخرى يمكن أن تشكل خطراً على مسيرته، كان الدوتشى لا يدخر جهداً فى تسويق مفاهيم الفاشية وتفسيرها للعامة حتى يمكن للجميع قبولها واستيعابها.

وعلى ضوء ما يأمله راح الدوتشى يردد فى خطبه قائلًا: إن الفاشية الصادقة والحقيقية تتميز دون غيرها من الإيدلوجيات الأخرى بالحزم والصرامة والجنوح نحو القومية، فضلاً عن انفرادها بالترعة السلطوية لكونها تحمل أمانة إبلاغ عقيدة ترتكز على الانضباط الصارم لكونها مركز صناعة الخليفة الشرعى «ملك البلاد».

لم يكن ذلك ما يقصده الدوتشى من وراء ترويجه النشاط للسلعة الفاشية التى لم تكن تحمل جناحين لتحلق بهما فى الفضاء الكونى الواسع، حيث اقتصر حبوها على الأرض الإيطالية دون أن تسعى للطيران خارجها، نظراً

لقسوة وغلظة أديياتها التي كان يتعذر على الدوتشى تبسيطها، ويصعب على الفرد فهمها كما نجح القادة الماركسيون الشيوعيون فى بيع سلعتهم لنصف الكرة الأرضية، حتى أن بعضها تمسك بمبادئها وظلت على إيمانها بعد أن كفر الاتحاد السوفيتى بها!!!.

المهم أن الدوتشى كان يقول بصورة دائمة أصابت من حوله بالملل والضجر من فرط ما نما لمسامعه بنفس مخارج حروفه وألفاظه أن الفاشية ترفض النظريات الديمقراطية للدولة ترى أن المجتمع لا يوجد من أجل الفرد، وإنما يخلق الفرد من أجل المجتمع ولا تلغى الفاشية وجود الفرد كما ألغى الأفراد وجود المجتمع فى بعض العقائد البدائية، وإنما تخضع الفرد للمجتمع تاركة إياه حراً فى تنمية شخصيته فى خطوط يفيد منها مواطنوه.

وفى مواقف أخرى كان يقول متحدثاً عن الفاشية «إنها - أى الفاشية - يمكنها القيام على أكمل وجه بدور الحرية والحقيقة والغنى والديمقراطية والاشتراكية».

ولم تعتمد خطب الدوتشى على مثل هذه الكلمات الواضحة البسيطة الرقيقة، بل إنها فى العالم قد تضمنت مصطلحات شديدة التعقيد عسيرة الفهم عامداً فى ذلك متعمداً، بغية إظهار ثقافته وإبراز مواهبه وإبداعاته وطلاقة لسانه وقدرته على الإلمام بكافة المفاهيم التى لا تتلوکها الأفواه، وأما ما يدعو للدهشة من تصرفات الدوتشى فهو إدراكه ويقينه بأن معظم ما يرد على لسانه خلال خطبه لا يمكن للمواطن الإيطالى فك شفرته، لكنها الحيلة التى لجأ إليها لتعظيم نفسه وتفخيم عقله وتضخيم ذاته.

لذلك قال ذات مرة فى إحدى خطبه معلقاً على هذا الأمر: (على الشعب الإيطالى أن يتوقف عن محاولاته الدؤوبة فى فهم الفاشية، حيث إن على الشعب ممارستها عملياً دون الاعتناء بالنظريات، لأنه يجب عليهم الإحساس بها بدلاً من الاستغراق فى التفكير بشأنها!!).

واستطاع الدوتشى غرز بذور الفاشية فى تربة الأمة الإيطالية طوال سنوات حكمه، وسرعان ما أصابها العطب بعد أن فاضت روحه إلى السماء ليقتلها الشعب من جذورها أسفاً وندماً على سنوات أهدرها عشقاً لهذا الرجل الأسطورة..



الفصل السادس موسولينى... الإنسان

لم يكن الدوتشى بالأنيق أو الرقيق، بل كان على العكس من ذلك تماماً، حيث اتصف بالفوضوية والعشية فى مظهره، كما اشتهر بين قومه بالخشونة والقسوة وسلاطة اللسان، ولم يكن رث الثياب فحسب، حتى بعد أن تولى منصب رئاسة الوزارة الإيطالية، وقلما شاهدوه فى هندام جميل وأنيق.

والحاصل أن الرجل قد اعتاد ذلك منذ صغره، حتى أن رجاله الذين كانوا يعشقونه حتى الجنون قد سئموا قذارة ثيابه المتسخة بصورة دائمة، غير عابئ بنظرات الآخرين متعللاً أن ذلك من أبرز مظاهر تواضعه، والواقع أن بنيتو استطاع توظيف نشأته الفقيرة البائسة التى استعرضناها على نحو تفصيلى دقيق من أجل اجتذاب الشعب من حوله، مردداً عبارات بليغة مثيرة حافلة بالشجاعة والبساطة والتواضع، فقال: «لقد جئت من بين فقراء هذا الشعب العظيم»، و«أنى أشعر بمعاناة أولئك البؤساء لأننى عشت فقيراً بائساً مثلهم».

وكثيراً ما كان يحتضن العمال ويتأبط ذراع الفلاحين، وابتسامة مشرقة تتجلى على وجهه تبرهن على بساطته وطيبة قلبه ومحبته لأُمته.

كان بنيتو إلى جانب كل هذه المظاهر مولعاً بممارسة الرياضات العنيفة من أجل الحفاظ على صحته، وابتغاء رشاقة جسدية يتمتع بها، لا سيما وأنه قبل أن يبلغ الأربعين من العمر قد بدت على ملامحه معالم الشيخوخة المبكرة،

الأمر الذى دفعه لممارسة كافة أنواع الرياضات، كما كان موسولينى نادراً ما يستحم أو يسبح فى حوض سباحة شأن جميع أبناء شعبه، فقد اعتاد على إزالة رائحة عرقه من خلال استخدام الروائح العطرية النفاذة، وهو ما يذكرنا بما كان يتهجه نابليون بونابرت ذلك القائد الكورسيكى الأصل، الفرنسى النشأة والتكوين والانطلاق، الذى كان لا يكف عن تعطير جسده بالقطن المبلل بالعطور لمقتته الشديد للاستحمام، وكأن القذارة البدنية إحدى أهم معالم شخصية الطغاة أيضاً، وما أكثرها.

وكانت عشيقات بنيتو موسولينى قد فضحن أمره كما جرى لنابليون من قبل، حين أكد أن بنيتو لم يكن يغتسل بعد أن يقضى وطره معهن، شأنه فى ذلك شأن نابليون، أما موسولينى فكان يتعلل بأنه عاش ردىاً من الزمن عازباً، وأنه ما زال حتى الآن يسلك مسالك العازب، بعد أن أصرت زوجته راشيل على البقاء فى ميلان مع ولديها بعيداً عن السياسة وأوجاعها.

لم يكن الدوتشى يهتم بتلميع حدائه، أو تصفيف شعره، أو كى ملابسه، أو تنظيف أسنانه، وحتى إذا استدعى الأمر لقاء ملك البلاد فقد كان يلتقى به غير عابئ بما عليه مظهره رغم توسلات رجاله وإلحاحهم فى أن يبدو فى ثياب أنيقة، وكان الدوتشى يشيح بوجهه فى إشارة تبرهن على مدى استخفافه بملك البلاد وتهكمه عليه، رافضاً أن يظهر أمام أبناء وطنه على شاكلة الأثرياء الموسرين الذين ظل طال سنوات عمره يمقتهم ويشن عليهم أعنف هجماته، وإذا دعت الضرورة لسبب ما لارتداء ثياب رسمية بدا أمام الجميع متضايقاً

ومنظره يدعو للرتاء، كما يدعو للضحك، لا سيما وأن رابطة عنقه لم تكن فى موضعها أبداً.

ولعل استقباله لملك أسبانيا وزوجته قد أثار دهشة الملك ورجاله حين لاحظوا دون جهد عدم اعتناؤه بمظهره، وإطلاق لحيته بصورة مقرزة، ناهيك عن أكمام قميصه التى كانت متسخة لا يتعذر على أحد رؤيتها.

وعلى الرغم من ذلك فإن الرجل كان لا يكف عن معاشرة النساء، ولا يتوقف عن اصطيادهن حتى بعد أن تولى رئاسة الحكومة، رغم ما عرف عنه من عنف وقسوة فى معاملته لهن.

كان الدوتشى عصبى المزاج، يبدو مضطرباً، متوتراً، قلقاً، عجولاً، رغم عبقرية الفذة التى شهد بها بعض أصدقائه، وإن كان البعض الآخر قد أقسموا على أن صاحبهم لم يكن سوى إنسان فقد عقله، وأنه سوف يقود إيطاليا إلى مجهول لا يعرف أحد عقباه، وكان كما قالوا.

أما عشقه للذات وعبادته لصورته، وتقديسه لنفسه، فقد كان ذلك من ألمع تصرفاته وطباعه، وإن كان ذلك لا يعد مدعاة للدهشة، أو مثاراً للاستغراب، بوصفه ديكتاتوراً مستبداً وطاغية عتيداً.

وللتأكيد على ذلك، ولعه باصطحاب مصورى الصحف فى جولاته التفقدية، وتركيزه الشديد على عدساتهم لالتقاط الصور خلال زيارته للميادين والمصانع والمزارع، فضلاً عن إصراره الشديد على مشاهدة الصور واختيار ما يراه مناسباً لنشره فى صدر صفحات الجرائد الإيطالية.

والحقيقة التي تجلت في شخصية هذا الرجل أنه كان لا يطيق جمع المال والثروات، عازفاً عنها، مستشهداً بالمليونير الشهير «جون روكفلور» الذي جمع ثروات طائلة وعجز عن تناول أبسط أنواع الطعام انصياعاً لتعليمات الأطباء، وخوفاً من مغبة ذلك على صحته!!.

لذلك كان لا يتقاضى أجراً أثناء رئاسته للحكومة الإيطالية متذرعاً بأن يتقاضى مبلغاً من المال نظير بعض المقالات التي يبعث بها إلى الصحف الإيطالية.

وربما كان ذلك من أبرز مناقب هذا الرجل الديكتاتور حيث أبى واستعصى على معاونيه الذين بذلوا قصارى جهدهم في محاولة إقناعه بالعدول عن رفضه تقاضى راتب شهري قدر آنذاك بنحو ١٢٥ ألف ليرة إيطالية شهرياً، حيث كان يجيب وهو يتسم قائلًا: «وما حاجتى لكل هذا المال»، هنا فقط لن يكن بنيتو متوافقاً مع الطغاة والحكام المستبدين الذين لا يكلون ولا يملون من جميع الثروات من أقوات الشعوب الجائعة، وتكديسها في خزائن سويسرا تحت مسميات متنوعة، بل إن تلك السمة أراها في ظني من شيم الصوفية الحقة التي لا تبالى ولا تعير اهتماماً بمباهج الدنيا وزخارفها.

إن هذا المسلك يشير إلى حرص موسوليني على الظهور أمام شعبه بالرجل المتصوف، وصاحب الرؤيا المتصوفة الباطنية حسبما اصطلاح عليه حيثئذ. وكانت الصوفية الباطنية تتخذ من الطقوس والقواعد الدينية وأساليب الرقص وموسيقاه والرجوع الروحاني إلى الماضي أهم ركائزها وأدواتها.

وللتأكيد على ذلك فقد كان موسولينى يقول دائما حتى فى أحاديثه الصحفية دون خجل أو تردد، لإدراكه مدى انعكاسات تلك الأقوال على وجدان الشعب الإيطالى: إن الجوع الذى ذقته مرب صالح، مرب صالح بالفعل كالسجن والعدو.. لم تكن أمة تتقاضى أكثر من ٥٠ ليرة شهرياً مقابل اشتغالها كمعلمة، أما والدى فلم يكن يربح أكثر مما يقدر كحداد متواضع، كنا نقيم فى غرفتين فقط ولم نكن نذوق اللحم تقريبا، ولكننا كنا نأمل ونتفاءل ونتناقش.

سجن والدى من أجل لصقه للافتات الاشتراكية، وقد حرضنى ذلك على أن أسعى لكى أكون على ما أنا عليه الآن، إن تربية خلقى فى دارنا تربية شديدة، ولو تفرس الناس فى حيثئذ من قريب، وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة لراوا فى ما أنا فيه حالياً.

إن خروجى من صفوف هذا الشعب الرائع أهم حدث فى حياتى على الإطلاق.

ويضيف قائلاً: إن لنشأتى الفقيرة البائسة تأثيراً بالغاً وعميقاً، وسيظل ملازماً لى حتى أرحل عن هذه الدنيا، إن من يعمل فى الحدادة، ويمسك بالمطرقة أمام النار يعشق المادة التى يسخرها كيفما شاء.. إننى أشعر بمحبة وعطف شديدين نحو أولئك الصناع الحرفيين، وخصوصاً البنائين، لأننى أشعر إذا التقيت أحدهم أننى أود أن أعمل بدلاً منه.

لقد عاش بنيتو متبسطاً متواضعاً راضياً قانعاً، وهو الذى إن أراد أن يستحوذ لكان له ما أراد.

ولكن رغم أنه كان يكتفى بارتداء بدلة واحدة طوال أيام الأسبوع، والحق أولاده الثلاثة «بتاً وولدين» بالمدارس الحكومية فقد كان يمتلك طائرة خاصة بعد أن تعلم فنون الطيران، وقد علل ذلك بعشقه للتحليق فى الفضاء للهروب من جحيم مسئولياته، كما كان يمتلك سيارة فارمة يقودها بأقصى سرعة ليلاً داخل شوارع روما كلما استأنس إحدى عشيقاته للتنزه معها متخفياً، فضلاً عن حرصه على شراء الجياد الأصيلة التى اكتظت بها اسطبلاته الخاصة.

أضف إلى ما سبق عشقه وهومسه باقتناء الحيوانات الأليفة والمتوحشة، حتى أن بيته كان أشبه بحديقة حيوان عامة، ثم كان يمتلك أحد القصور الفخمة ذات البصمات الإقطاعية التاريخية، وهى كلها ممتلكات تتعارض كلياً مع تقشفه وزهده، وتبين مدى انفصام الشخصية الذى كان يعانى منه هذا الرجل الذى أراد أن يظهر أمام شعب بلاده كأحد الرهبان وهو فى ذات الوقت يتنسم عبير قريته عبر إقامته داخل القصر الإقطاعى الذى استولى عليه.

ويبدو أن بنيتو كان زاهداً متقشفاً بالفعل، بيد أنه كان يتضاءل أمام هوايات تعذرت عليه مقاومتها أو الابتعاد عنها، لكنه على أية حال صار قديس الشعب وملهمه ومعبوده الذى لا ينازعه أحد فى ذلك.

أما هوس الجماهير الإيطالية فمرده لسحره وبلاغته وطلاقة لسانه، وقدرته الفذة على دفع سامعيه للتغنى باسمه «دوتشى... دوتشى... دوتشى»، والأكف لا تكف عن التصفيق، والدموع لا تتوقف عن الجريان، من فرط ما يلقيه من عبارات حماسية، قلما يكون لها مثيل.

ومع استمرار بقائه على السلطة راحت الأساطير تلاحقه والقصص الخيالية تحيط به أينما حل، وقد تجلى ذلك أثناء ثورة بركان إتنا في جنوب إيطاليا، وحين راح يتفقد الأحوال خمدت ثورة البركان، فأشاع الإعلام الإيطالي أن الدوتشى نجح في تكسير إرادة الطبيعة الغاضبة، على اعتبار أن ظهوره في البلدة المنكوبة أدى إلى إخماد الثورة البركانية، وقد راجت هذه الأسطورة في صفوف الشعب الإيطالي دون أن يتجاسر أحد على تكذيبها أو دحضها بما لا يستقيم مع المنطق.

وروى كريستوفر هربرت على مسئوليته نادرة أخرى وثيقة الصلة بهذا الشأن أيضاً، مؤكداً أن سيدة إيطالية توجهت لزيارة قبر أورفينو الأيتروسكانى وفيل: قد لاحظت أن أحد الزائرين يحاول فهم الكتابات المتناثرة على شاهد القبر دون جدوى، فإذا بالسيدة العجوز تقول له فى ثقة و يقين: ربما كان السبب وراء جهلنا بهذه اللغة المكتوبة على الشاهد أن الدوتشى لم يتسنى له زيارة هذه المقبرة وأنى واثقة أنه وحده فقط سوف يكشف طلاسمها ويفك ألغازها.

وهكذا أضحى الدوتشى من أهل الخطوة، والذين يمشون على الماء ويخلقون فى الفضاء، أو قل: هو شامبليون إيطاليا المعاصر الذى لا تستعصى عليه الحروف والكلمات، بغض النظر عن هويتها ومصدرها.

لقد بلغ الدوتشى عنان السماء فأصبح الرجل الذى لا يخطئ، ولا يأتيه الباطل، وكأنه أحد الرسل الذين أرسلتهم السماء إلى الفاتيكان عاصمة المسيحية العالمية.

لكن لم يكن أولئك السذج البلهاء يعلمون أن الدوتشى نشأ مثلهم فى أجواء فقيرة تخلو من النعومة وحتى الاكثراث بالإيمان، حيث عرف منه أنه اشتهر بعدائه للكنيسة والديانة المسيحية، بل والسيد المسيح، واحتقاره لرجال الدين ورهبانهم.

ومن ثم لم يكن يتورع منذ صغره عن إلقاء الحجارة على رواد كنيسة بلدته معلناً عن استيائه وامتعاضه من رجال الدين، كما أن أولئك البسطاء لا يعرفون أن الدوتشى زير نساء يتضاءل أمام المرأة ولو كانت خادمة ما دامت قد رافت له، وأنه يعشق أفلام لوريل وهاردى الكوميديية رغم جديته وصرامته وملامحه القاسية وتكاثر تجاعيد وجهه المكتئب دائماً، لقد كان أسير أفلام لوريل وهاردى وكان ذلك داعياً لتدشين قاعة سينمائية فى بيته لمشاهدتها كلما تاق لرؤيتها.

أما علاقاته مع الآخرين فلم تكن على ما يرام، حيث اعتاد أن يرتاب فى سلامة نوايا الآخرين، وربما كان ذلك من أهم معالم شخصيته، ومن ثم كان جانباً نحو العزلة والانطواء، لا يقطع خلوته إلا صوت ناعم يتناهى إلى مسامعه، ولذلك كان يتفاخر قائلاً بمشاعر باردة بل ثلجية: لم أشهد فى حياتى صداقة حقيقية دافئة المشاعر.. لا أقصد العلاقات النسائية، فهذه قصة أخرى، إنما أنا أقصد العلاقات القوية بين الرجال بوصفهم أصدقاء، فمن المؤكد أننى لم أصادف علاقة صادقة مخلصه مع أى رجل آخر منذ أن رحل أخى أرنالدو عن الدنيا.

وفى تأكيد جلى على رفضه القاطع لتوطيد صداقته مع أحد يقول فى مذكراته التى تضمنت العديد من العبارات الإلحادية التى تستخف بالدين قائلاً:

[لو أن الأب الأقدس جاءنى ليقول أنه صديقى لرفضت قوله وسأهدده بقبضة يدي هذه . . ثم إن والدى ذاته لو عاد مرة أخرى إلى الحياة فلن أمنحه ثقتى فيه مطلقا .

والواقع أن بنيتو كان يتخذ من شقيقه أرنالدو صديقا وفيا، فهو ما يعزز إدعاء بالكراهية والمنفور وسوء الظن بمن حوله جميعا .

وفى ٢١ سبتمبر ١٩٣١ توفى شقيقه بعد بضعة أشهر كان يصارع خلالها لمرض وقد تألم بنيتو لفراقه وبكى لرحيله كما لم يبك من قبل .

وفى كتابه «خواطر زعيم»^(١) سجل بنيتو موسولينى مشاعره قائلا [كان أرنالدو طيبا، فضيلة الطيبة فطرية فيه، طيبا وهذا لا يعنى ضعفاً منه، فإن الطيبة تستطيع كل الاستطاعة أن تتفق وأشد قوى النفس وأصلب الميول إلى القيام بالواجب الشخصى، ليست الطيبة مسألة خلق فقط، فهى مسألة تربية أيضاً، ثم إنها فى سنوات النضج نتيجة تصور العالم تصوراً تظهر فيه العناصر المتفائلة على العناصر المتشائمة . . لأن الطيبة لا تستطيع أن تكون شاقة، ويجب أن تكون دينة .

لذلك كان هذا النوع الثلاثى من العناصر يحمل أرنالدو على الطيبة، فلم يدفعه إليها يوماً أى حساب سياسى، أو أى تلمس للشعبية، فقد كان عملة طينية متحفظاً شديد التحفظ، كان يرجو ألا يفشى أعماله، ويضرع ولا سيما فى أيامه الأخيرة أن ينجزوا كل شئ فى سكون، إنتى أشعر اليوم فقط من

(١) كته موسولينى نشرته دار مجلتى للطبع والنشر .

الخطابات التى تصلنى بأثر المدى الذى اتخذه هذا الإحسان الذى لم يكن من النوع المادى فقط، فإن مثل هذه الجريدة كمثل شاطئ محيط تدفع الأمواج الهائجة إليه قليلاً قليلاً كل من استعصت عليهم مشكله الحياة، وكل من آلتهم إيلا ما لا تعرف فيه هوادة، ومع وسع الإنسان أن يكون طيباً بتقديمه مساعدة، أو باهتمامه بمركز أو بعثوره على مأوى، أو بمجرد قوله كلمة طيبة أو بتوجيهه لوماً صارماً، فكينونة فالطيبة تعنى أن يقوم الإنسان بالطيب من الأمور من غير أبواق الإذاعة دون أمل فى الجزاء حتى الإلهى منه، الدأب على الطيبة كل الحياة، هذه فصيلة تمنح معايير العظمة الحقيقية فى نفس من النفوس الدأب على الطيبة رغم كل شئ ورغم الخدع التى ينصبها الخبثاء للسلام الطوية، رغم جحود المنة والنسيان، رغم عدم مبالاة المثقفين . . ها هى قمة كمال أدبى يصل إليها القلة، ويلازمها القليلون للغاية.

ويضيف بنيتو قائلاً عن سمات شقيقه أرنالدو المنشورة فى كتاب (خواطر زعيم) سجل قائلاً.

إن الرجل الطيب لا يسأل نفسه يوماً هل يستحق عمله تعبته؟ ويظن أنه يستحقه دائماً، حيث إن مساعدة المصاب حتى لو لم يستحق، وتجفيف الدمعة ولو كانت غادرة، والتفريج عمن به كرب، وتقديم العزاء ومشاطرة الأحزان، وكل ملمح يسرهن على أن النفس الإنسانية لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن الإنسانية، بل إنها تشترك فيها لحماً ودماً، يعتبر نسجاً لإهاب المحبة بخيوط لا ترى، وإن كانت متينة قوية تربط الأرواح وترقيها.

من أجل هذه الفضيلة كرم شقيقى أرنالدو كل نفسه بعد وفاة ابنه سندرينو، فهو لم يفكر بعد ذلك غير فكرة واحدة، ولم ينو على غير أمر واحد، الإحسان لتكريم ذكرى ابنه، الإحسان للجميع أصدقاء وغرباء وأعداء أيضاً لا لشخصه، فلعله لم يعاد أحداً بقدر ما كانوا لزمنا وظفرنا... لقد كان بعيداً جداً عن أن يقصد ما أرى الآن، ولكن لا محل للشك فى أن عمله هذا كان يفيد الفاشية أيضاً.

ويستطرد بنيتو موسولينى قائلاً: كانت الفاشية تتخذ به شكلاً آخر، ولا تقتصر على شكل الثورة الشديد، ضرورة كان النظام الفاشى «يتشر» بعمه، كان الحساب السياسى يترك مكانه لدافع القلب، ولم لا يجرى شريان الطيبة فى صحراء السياسة المجذبة، ولومسترا ولكن فى صفاء وإفادة، ألم يخفف الأقوياء دائماً وفى كل عصر من شدة القوة بعمل الطيب؟ ولكن.

ولكن أرنالدو لم يشأ يوماً أن يكون قويا، كان يشعر بنفسه شعور المرؤوس والرجل «الوضيع» فهذه الكلمة الإنجيلية تطفر فى وصيته طفراً، ألم يكن أرنالدو يتحدث عن الوضعاء فى خطبته الأخيرة، أيضاً ٢٠ ديسمبر أى قبل وفاته يوم واحد فقط، ألم يكن الحشد الذى لا يحصى والذى اجتمع خلف تابوته دليلاً على أن نفس الشعب تحترم القوة ولكنها تحب الطيبة؟ فضيلة الطيبة تأتى معها بسجية أخرى هى سجية العفو، وقد كان أرنالدو يعفو حتى وقبل كل شئ عن الذين كدروه ونغصوا عليه عيشته، وكانت تدفعه إلى ذلك عقائده الدينية الدائمة العميقة، فقد كان ديناً لكنه لم يكن مؤمناً كما قال بنفسه فى آخر محاضراته بمدرسة الفلسفة الفاشية.

إن وصية شقيقى أرنالدو التى حررها عام ١٩٢٨ كانت تتضمن اعترافا بتدين لا يقل عن هذا.

لقد ظلت معه هذه العقيدة طوال سنوات عمره، حيث إنها لم تكن بالعقيدة التى تهبط على المرء فى ساعة الشفق، عندها تخدع الأرض الإنسان وتضيق عليه فيذكر السماء، ولكنها كانت عقيدة الحداثة الأولى، ثم عقيدة كل الحياة.. الإحسان باسم سندرينو هذا ما كان يبغيه أرنالدو بعد شهر أغسطس المشؤم عام ١٩٣٠.

ويؤكد بنيتو أن من بين الأوراق التى عثرت عليها فى مكتبته بقصر مرجريتا نسخة من «العهد القديم» وورقة صغيرة مكتوبة بخطه تقول: انظر مزمو ١٣٠.

والمزمور ١٣٠ هو نشيد الحجيح ويقول:

من الأعماق صرخت إليك يا رب

يا رب استمع إلى صوتى

لتكن أذاك منضتتان

إلى صوت تضرعى

ثم سرعان ما عرج بنيتو موسولينى بالقارئ إلى وصيته التى سبق وأن نشرتها جميع الصحف الإيطالية الصادرة حيثذ وقد تصدرتها عبارة موجزة قال فيها:

«لا تطيلوا موكبى... اقتصدوا فى تأيبنى

ولا تسرفوا فيه»

وقد علق بنيتو على مسألة الوصية قائلاً: «لم ولن أكتب وصيات من أى نوع كان، لا روحية ولا سياسية ولا خاصة، لذلك من العبث أن يبحث عنها أحد بعد رحيلى، وليس على سوى رغبة واحدة، وهى أن أدفن بالقرب من ذوى قربتى فى مقبرة (سان كسينو).

ولعلنى أكون شديد السذاجة لو طلبت أن أترك فى سلام بعد أن أموت . . فمن المستحيل أن يستقر السلام حول مقابر رؤساء تلك الانقلابات العظيمة التى تدعى بالثورات . . ولكن أحدا لن يستطيع أن يمحو كل ما قمت به، بينما ستحيى روحى خلاصها من المادة، وبعد هذه الحياة الدنيوية الفانية من حياة الله الأبدية اللانهائية.



الفصل السابع

الانفراد بالحكم

بدأ موسوليني يسعى جاهداً لتثبيت أقدامه فى أرضية الحكم عبر الارتكاز على الصناديق الانتخابية لتمرير أهدافه وغاياته باسم الديمقراطية، تلك التى قال عنها الفيلسوف الفرنسى العظيم فولتير: كم من الجرائم ترتكب باسمك أيتها الحرية؟! صحيح لقد تمكن الطغاة من الوصول إلى سدة الحكم عبر الصناديق الانتخابية ثم سرعان ما ألقى كل منهم بحجر فى الكلوب لإفساد عرس الديمقراطية تحت مسميات الأمن القومى ومصالح البلاد العليا وتكريس السلام الاجتماعى وحماية الوحدة الوطنية، وهى مصطلحات أجاد موسوليني وهتلر توظيفهما لخدمة أهدافهما المتعلقة بتوطيد نفوذهما وسلطانهما واستبدادهما.

الشاهد أن بنيتو موسوليني كان قد طالب فى صيف عام ١٩٢٣ عبر مشروع انتخابى قدمه إلى البرلمان الإيطالى تقسيم البلاد إلى خمس عشرة دائرة انتخابية، على أن الحزب الذى يفوز بأعلى الأصوات بشرط ألا يقل عدد الأصوات الفائزة بها عن ٢٥٪ من مجموع أصوات الناخبين المقترعين يسيطر فى مثل هذه الحالة على ٧٠٪ من مقاعد البرلمان، فى حين تتقاسم الأحزاب الأخرى النسبة المتبقية والتى تعادل ٣٠٪ طبقاً لنسبة الأصوات التى قام بها الحزب.

طبعاً كان بنيتو يسعى من خلال هذا المشروع إلى تدعيم حزبه، بحيث يتمكن من تهميش بقية الأحزاب الأخرى ريثما ينجح في توطيد نفوذه ثم يصبح لكل حادث حديث فيما بعد.

وطبعي أن تبدى الأحزاب بمختلف اتجاهاتها وتوجهاتها انزعاجها واستياءها من هذا المشروع الظلامى الذى أعده موسوليني خصيصاً لنفسه، بيد أن هذه الأحزاب قد اضطرت تحت ضغوط أعضائها إلى الموافقة على المشروع، لا سيما وأن نزعة موسوليني الاستبدادية لم تكن قد تجلت بعد.

وجرت جلسات تصويتية على مشروع القرار، وقد أيدته البرلمان بأقلية ساحقة، قيل أن أصحاب القمصان السوداء الذين يتبعون لحزب موسوليني قد هددوا أعضاء البرلمان بالويل والثبور وعظائم الأمور ما لم يصوتوا جميعاً لصالح المشروع، وهو ما حدث بالفعل، فأقر البرلمان مشروع الدوتشى بأغلبية لا نظير لها.

وفى السابع من أبريل ١٩٢٤ دعا الدوتشى إلى إجراء إنتخابات برلمانية جديدة، وكان الهدف لا يخفى على من فطن وأدرك ما يضمره الدوتشى فى نفسه وما يصبو إليه، وتحت إشراف أصحاب القمصان السوداء جرت العملية الانتخابية وسط تهديدات غير جلية، حتى أن الأحزاب قد تراجعت وانكمشت، وصحف المعارضة هدأت من نبراتها الحادة، وبدأت مستأنسة كما لو كانت إحدى أبواق الفاشية التى روج لها الدوتشى رغم أنف الجميع، ولم يكن أمراً مفاجئاً أن تسفر العملية الانتخابية عن فوز حزب الدوتشى بنسبة

٢٥, ٦٥٪ من مجموع الذين أدلوا بأصواتهم، وهى نسبة غير معترف بها فى أوروبا، تلك التى تشهد نتائج لا تزيد عن ٥٢٪ أو أقل قليلاً من ذلك.

لكن سرعان ما أفسد غلاة الفاشية فرحة الدوتشى بهذا الانتصار المزعوم، حين أطلق النار على أحد الزعماء الرأسماليين والذى كان يناصر الدوتشى عداءً هائلاً لم يفلح فى إخفائه رغم تعاظم التهديدات التى تلقاها مراراً على يد أصحاب القمصان السوداء.

وكان لهذا الحادث ردود أفعال غاضبة، حيث لم يكن الأول من نوعه، بل سبقه العديد من الجرائم التى ارتكبتها الفاشيون ذوو القمصان السوداء، الأمر الذى أدى إلى تراجع أسهم موسوليني لدى الشعب الإيطالى، ولا سيما بعد أن نددت بالحادث الأخير كبريات الصحف الإيطالية، بل والأوروبية.

وعلى أثر الاحتجاجات والدعوات المطالبة بمحاكمة قتله اضطر الدوتشى إلى إحالة المتهمين إلى المحاكمة لإنهاء هذا الملف الذى بات صدىً مؤلماً يدق رأسه بعنف.

ولم يكن قرار موسوليني مهبطاً للمشاعر الغاضبة أو مسكناً لآلامهم وأحزانهم، بل على العكس من ذلك فقد تضاعفت أعداد الساخطين وتعالى صرخاتهم، وتضاعفت حدة غضبهم، حيث لم تكن مطالبهم تقتصر على محاكمة قتلة ما يتونى السياسى الرأسمالى، بل كانوا يطالبون بفتح ملفات الحوادث التى ارتكبتها أصحاب القمصان السوداء الفاشيون الذين يقود الدوتشى حركتهم ذات الطابع العنيف، وتوالى المظاهرات الاحتجاجية يوماً

بعد آخر، حتى أن الدوتشى كاد يفقد توازنه، فأضطر تحت ضغط الشعب الإيطالى إلى السعى لتهدئة خواطره وكسب رضاه حتى لا يستفحل الخطر الذى بات يتربص به.

وفى صباح الثالث من يناير ١٩٢٥ وقف الدوتشى بنيتو موسولينى أعلى منصة مجلس النواب متجههم الوجه زائع البصر يتأهب لإلقاء كلمته التى وجهها إلى الشعب الإيطالى طمعا فى التأثير على مشاعره وقد وقف يقول بصوت جهورى وعبر حركات تمثيلية لافتة ومثيرة وغريبة على المواطن الإيطالى: «أيها الشعب الإيطالى، أيها السادة أعضاء البرلمان، إننى أتطلع إلى خطب ودكم وتهدئة خواطركم، والسعى إلى إرضائكم، ومن ثم فأنا أتعهد أمامكم بالعفو عن خصومى الشريرين الذين أشاعوا الفوضى وحاولوا أن يعبثوا بمقدرات الأمة، لأننى أهدف إلى الالتفات للعمل، والعمل فقط هو الذى ينتظرنا حيث لا جدوى من وراء مثل هذه الصدمات الهزلية.. إن بلادنا فى حاجة إلى سواعدنا وطاقتنا وجهودنا وكفاحنا وعرقنا وإرادتنا وعزيمتنا وصلابتنا، أيها السادة، إننى أعلن أمامكم هنا.. بل أمام الشعب الإيطالى بأكمله.. بأننى وحدى فقط الذى أتحمل المسئولية السياسية والتاريخية عن كل ما حدث، فإذا كانت الكلمات التى أسىء نقلها تكفى لإعدام مواطن فى إلى الجحيم إذن بالمشقة والحبل.. وإذا كانت الفاشية قد تحولت إلى طعم غير سائغ كالعلقم، أو بدت فى أعين الآخرين هراوة ولم تعد مجرد فكرة نبيلة رائعة تسكن فى قلوب شباب أمتكم، فإن الذى يتحمل اللوم والمؤاخذه هو أنا، وأنا فقط.. نعم أيها

الشعب، أنا فقط ولا أحد غيرى، وإذا كانت الفاشية قد تحولت إلى أوكار للمجرمين، وأضحت مؤامرة إجرامية على الشعب فإننى أنا فقط، أكرر أنا فقط المسئول عن كل ذلك... وإذا كان العنف قد نما فى ظل مناخ سياسى وتاريخى وأخلاقى فإن المسئول أيها السادة... نعم أنما المسئول لأننى ببساطة أنا الذى هيات لهم هذه الأجواء دون أن أتوقع أن هذا من شأنه أن يشير متاعبكم وأحزانكم.

إن ما تتطلع إليه إيطاليا هو الهدوء والسلام والعمل والطمأنينة، وسوف أمنح بلادى ما تريده بالحب إن شاء ذلك... وبالقوة إذا تطلب الأمر ذلك.

واستطاع موسوليني عبر هذا الخطاب أن يستقطب قلوب الأمة الإيطالية بأسرها ويحاصر خصوم الفاشية بتحملة المسئولية الكاملة.

وما من شك أن هذا الخطاب الذى بادر موسوليني بإلقائه على البرلمان الإيطالى قد نجح فى تحجيم الخصوم، ولم يترك لهم فرصة أخرى لتوجيه سهام النقد الجارح إليه، ومن ثم استطاع سحب البساط من تحت أقدامهم لتهتز الأرض اهتزازاً فيسقط منهم على الأرض من يسقط، ويجتاح الخوف صدور بعضهم، لا سيما الذين أدركوا أن الدوتشى يضمّر شيئاً فى الأفق البعيد، وقد لاح لهم ذلك من كلماته وأقواله التى وردت فى الخطاب.

ولأن الفاشيين الذين يرعاهم موسوليني وكانوا فى حمايته ويستظلون بمظلته قد أسعدهم خطابه فقد استفحل خطرهم وتوحش نفوذهم، فانكشفت أمامهم الأحزاب المعارضة، وتقوقعت الصحف المناهضة لموسوليني تجنباً لغضب

الفاشينين واتقاء لشروورهم، لا سيما وأن القمصان السوداء التى يرتدونها باتت علامة للبطش والقوة والعنف والطغيان.

لقد كان الخطاب جواز مرور للديكتاتوريه وإنهاء عصر الديمقراطية فيها هو الدوتشى يسعى لتوسيع الفاشية فى أرجاء البلاد، ويدعو فى جراءة إلى حل جميع الأحزاب لخطورتها على الأمن العام والسلام الاجتماعى، ومجلس النواب بات يدين بالولاء للدوتشى خوفا ورعباً بل وراح يعين أتباعه فى جميع مناصب البلاد الصغيرة والكبيرة وما بينهما ضمانا لتعظيم الفاشية حتى السلام الوطنى لم يسلم من إدراج نشيد الفاشية الذى أمر موسولبنى جماهير الشعب بحفظه ناهيك عن طبع الكتب والمنشورات الداعية للفاشية، وبث البرامج الاذاعية التى لا تكف عن التغنى بعظمتها وأهميتها فى تنمية ونهضة إيطاليا.

لقد أصبحت إيطاليا تدين بالفاشية رضوخا لمطالب الدوتشى بين عاشق وكاره لها... لكنها فى نهاية المطاف أصبحت هى دين الدولة وميثاقها وفكرها، بل وأملها، وراح الدوتشى يلقي الخطب النارية كلما سنحت له فرصة مخاطبة جماهير إيطاليا، حتى أنه أصبح أسطورة تدعو للإعجاب لا سيما وأنه أدخل إصلاحات هائلة داخل قطاعات خدمية عانى منها الشعب طوال العقود المنصرمة والسابقة على ظهوره.

لقد تمكن من تحسين الأوضاع المعيشية، وضاعف من رواتب العاملين والموظفين، وطالب الفلاحين بزيادة مزروعات القمح للاكتفاء الذاتى، وتوفير كافة الاحتياجات الضرورية.

كما سعى جاهداً إلى تدشين قواعد نهضة صناعية عملاقة عبر برنامج اقتصادى طموح لا شك قد أثار عاصفة من الدهشة ممزوجة بالإعجاب لدى خصومه قبل أنصاره.

ونجح الدوتشى أيضاً فى تهيئة أجواء ملائمة لبناء إيطاليا الحديثة، ومن ثم أسس المدارس والمعاهد والجامعات كما شيد المستشفيات والمصحات، ولم يكن يدخر وسعا فى القيام بزيارات ميدانية للوقوف على حقيقة ما آلت إليه قراراته على أرض الواقع، تمكن من شق الترع والبحيرات، وتمهيد الطرق وتوسعتها شبكات الكهرباء والمياه، ومدد خطوط السكك الحديدية وتحسين خدماتها وتحديث نظمها، كما حرص على غزو الأراضى التى لم تستصلح للاستفادة منها فى توفير المواد الغذائية .

الواقع أنها كانت نهضة شاملة طالت إيطاليا دون استثناء، الأمر الذى ضاعف من شعبية الدوتشى الذى تصدرت صورته وأقواله جدران المنازل والبنائات الحكومية، كما تزينت الشوارع والميادين الرئيسية بصوره التى يبدو خلالها متواضعا وبسيطا ودافئ المشاعر كعهدنا دوماً بصور الطواغيت فى مختلف أنحاء العالم.

لقد تحول بمرور الزمن إلى نصف ثم سرعان ما تحول إلى إله يعبد به الإيطاليون ويقدسونه، ولا يصدقون أنه بشر، رغم أن أغلبهم كان يتفاخر بلصق صورته فى غرفته وكأنه نجم سينمائى أو أحد القديسين .

وبلغ الأمر بأولئك الإيطاليين أن احتفظوا بمقتنيات الرجل، فلو أنه تواضع وشارك الفلاحين عملهم فى حركة تلفزيونية لمغازلة الشعب الإيطالى لتشاجر

الفلاحون معا من أجل الاحتفاظ بالفأس التي حملتها يده الكريمة، على اعتبار أن الفأس قد دخلت التاريخ من أوسع أبوابه.

وآه لو أن الدوتشى طبع قبلة على جبين طفل فهو فى عداد المحظوظين الذين تبسمت لهم الدنيا، وكم تستولى علامات الكبر والخيلاء على أفراد أسرته.

وهكذا تضخمت الذات الموسولينية وانتفخت أوداجه وعظمت نفسه، وبات الرجل الأسطورة المقدس الذى صار معبوداً ومرهوباً ومحجوباً، وقد تجلت مشاعر الإيطاليين الدافئة نحو الدوتشى حين تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة عام ١٩٢٥ حين انتابت الجماهير موجة من الحزن والغضب العام، حتى أن بعضهم دعا للانتقام ممن حاولوا اغتيال الرمز والأب والقائد والإله، ولأن الدوتشى لم يكن على استعداد لتمرير هذا الحادث دون أن يلقي بخطبة نارية كما جرت العادة، حيث صرخ قائلاً فى جموع الجماهير التى احتشدت لحمايته والاطمئنان على سلامته: (أيها الجماهير الإيطالية العظيمة ذات الحضارة والأصالة.. أود أن أطمئنكم على نفسى، وأن ما جرى مجرد حادث عارض، وأن الجرح النازف حتما سوف يندمل، وأن المجرم بالطبع سيندم أشد الندم).

يا شعب إيطاليا العظيم.. يا من احطمتونى بمشاعركم الدافئة، وأمطرتونى بدموعكم التى ألهمت مشاعرى وعواطفى.. أود أن أقول لكم قولا صريحا مدوياً إذا تقدمت للأمام فاتبعونى، وإذا أنا تراجع للـخلف فاقتلونى، وإذا هم قتلونى فاثاروا لى.

كانت الجماهير الغفيرة البائسة تتضرع إلى الله أن يشفى موسوليني الأسطورة التي تمشى حية على قدمين كالبشر، لم يكن هؤلاء يملون من الصلوات في الكنائس من أجل شفائه، وهو الذي أنكر وجود الله واستخف بالسيد المسيح وأساء إلى تعاليم الإنجيل، وهاجم رجال الدين المسيحي طوال حياته، لكنه حب الجماهير حيث ظنت أن الحياة ستوقف بموته.

وأن شعلة الأمل التي تضيئ وتسير إيطاليا ستطفأ وهي التي تشتعل من نور عينيه، ومن ثم لم يكن مستغرباً أن يطوف أهل إيطاليا شوارعها ويتوقفون في ميادينها يتحبون ويلطمون الخدود أماً في تماثيل الدوتشي للشفاء.

ولم يكن هناك ما يلفت الأنظار حقيقة عندما كانوا يصرخون جميعاً في صيحة واحدة تهز أرجاء إيطاليا: قلوبنا معك يا دوتشي... نحن نحبك يا دوتشي... كلنا فداؤك يا دتشي تموت من أجلك يا دوتشي.

وفيما كانت الجماهير تبكي وتصرخ وتتحب صاح مساعدته والسكرتير العام للحزب روبرتو فاريناتشي: إن العناية الإلهية تحرس الدوتشي... إنه يا شعبنا الوفي أعظم وأنبل من أنجبته إيطاليا، بل هو خليفة بوليوس قيصر، من جانب آخر لم يتوقف هدير الجماهير المحتشدة تدعو للثأر والانتقام ممن أراد به سوءاً وحاول إيذاءه!!

وحيث إن الدتشي قد تنبه لهؤلاء الذين أبهرهم وسحرهم، وألقى على أعينهم غشاوة لا تبصر ماهيته وحقيقته فقد استغل هذا الحادث وما تبعه من حوادث أخرى، قيل أنها كثيرة، كان هو المستهدف والمطلوب، فقد قرر فرض سيطرته على جميع المناصب الخطيرة والمؤثرة.

كان الدوتشى يتذرع بما يتعرض له من مخاطر تستهدف حياته، الأمر الذى قد يلقى بظلال قاتمة على البلاد إذا سقط صريعاً فى أيدي أعدائه الذين هم أعداء الأمة والوطن.

الشاهد أن الدوتشى استحوذ على جميع السلطات فى توظيف جلى لشاعر لشعب نحوه، وذلك أثناء محاولات اغتياله، الأمر الذى أثار فى نفسى شكوكاً وهو اجس تدفعنى للقول بأن هذه المحاولات ما هى إلا خطط ربما رسمها الدروتشى بدعم ومساندة من سكرتير حزبه الذى كان ذراعه اليمنى من أجل إزاحة الآخرين، والتكويش على مفاتيح الأمن والاستخبارات، وشتى مناحى الحياة السياسية والحزبية والعسكرية، ثم كيف يتباطأ فى استغلال هذا المناخ الذى تهيأ له أو ساهم هو ومن حوله فى تهيئته وهو الذى بات المعبود بل وخليفة يوليوس قيصر ذلك الإمبراطور الذى كان معبود الشعب الإيطالى فى زمن العصور التاريخية الرومانية القديمة.

ويبدو أن الدوتشى كان متأثراً بشخصية يوليوس قيصر الذى كان يجيد مخاطبة الشعب الإيطالى والتأثير على مشاعره، وقد تجلّى ذلك حين عاد ذات مرة على رأس قوات جيشه مهزوماً، وحين أراد أن يستدر عطف شعبه قبل أن يغضب فيعصف به راح يقف وسط جماهير روما قائلاً وقد اغرورقت عيناه بالدموع: (يا شعب روما العظيم، إذا كان لدى أى منكم بقية دموع... فليذرفها الآن)، وهى العبارة التى ألهمت عواطف الشعب فالتف حوله يؤازره ويساند ويدعم مسيرته ويطالب ببقائه.

على أية حال انفرد الدوتشى بالسلطة على نحو غير مسبوق، وعبر مسالك ملتوية تركزت على استقطاب جماهير الأمة الإيطالية، ومن ثم صار هو نفسه رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الداخلية ووزيراً للتعاون والقائد الأعلى للمليشيات القمصان السوداء، بل كان هو أيضاً وزير الحربية ووزير البحرية وقائد سلاح الطيران ورئيس المجلس الأعلى للسياسات!!

إذن لم يكن الدوتشى منفرداً بالسلطة، بل الواقع أنه كان مستحوذاً على جميع السلطات ممسكاً بكافة الصلاحيات، حتى أن زوج ابنته قد شغل فيما بعد منصب وزير خارجية إيطاليا.

ولأن الدوتشى كان دكتاتوراً متسلطاً مستبداً طاغية فقد فتح أبواب السجون والمعتقلات، وزج بداخلها الآلاف ممن لا يروق لهم طريقته فى الحكم، وممن لا يتصفون بالجن والسذاجة، وأولئك الذين لم تنطل عليهم مثل هذا الألاعيب السياسية.

فعاشت الصحف فى عهده تتغنى بمآثره وأمجاده وإنجازاته دون أن تقترب من المساس به أو بمن معه من قريب أو حتى من بعيد، حيث لم يعد لصحف المعارضة وجود بعد أن مارس مع مسئوليتها وأصحابها أبشع أساليب القمع والقهر والتنكيل، ولم تكن أحزاب المعارضة أوفر حظاً حيث تعرضت للتعسف والإغلاق، فاستقبلتهم زنازين المعتقلات طوال سنوات حكم الدوتشى.

وعلى الرغم من أن موسولينى قد تعرض للاعتقال كثيراً فلم يكن ذلك ليشفع لأحد من خصومه أو يعفو عن أحد معارضيه، وقد قال ذات مرة فى حديث صحفى: (لقد تعرضت للسجن أكثر من عشر مرات عانيت وكابدت

فيها المتاعب وواجهت خلالها المصاعب.. وكان السجن يمنحني متعة وراحة وسعادة لم أكن أحصل عليهم خارجه.. ولعل ذلك هو السبب في أنني لا أشعر قط بالحقد على سجانى) وحين أجاب على سؤال الصحفى الذى سألته عن رأيه فى هؤلاء الذين زج بهم فى غياهب سجونهم المترامية فى أنحاء البلاد قال فى ثقة وخيلاء: أنا؟ لا.. لا إطلاقاً.. فأنا لا أتردد، لقد كانوا هم الذين بدأوا فى إعتقالى وسجنى، واليوم جئت لأرد لهم دينهم بنفس طريقتهم).

ولعل ما رواه الكاتب الإيطالى الشهير ألبرتومورافيا فى حوار صحفى نقله كريستوفر هيربرت بالنص يبرهن على مدى طغيان الدوتشى حيث يصف مورافيا أحوال إيطاليا الثقافية والصحفية قائلاً: (كنا فى أثناء معارك الحرب العالمية الثانية بما حملته من فاشية طاغية ورقابة حازمة صارمة كنا نقدم ما نكتبه من يوميات أو مخطوطات إلى وزارة الثقافة الشعبية لنيل موافقتها، وكانت تلك الوزارة مزدحمة بمعلمى المدارس الأولية، حيث كانوا يتقاضون ثلاثمائة ليرة مقابل مراجعة كل كتاب).

وكان أغلبهم إمعانا منهم فى الحفاظ على وظيفته يسجل توصية بمصادرة الكتاب حتى ولو لم يتضمن الكتاب ما يدعو لمثل ذلك، لكنهم كانوا يبرهنون بالمنع والمصادرة على مدى ولائهم ومحبتهم وخوفهم على نظام حكم الدوتشى ورواتبهم أيضاً.

وأذكر أننى تقدمت ذات مرة بمقال إلى الوزارة أما الذين بادروا بقراءتها امتنعوا عن اتخاذ أى قرار نحوها، وتمت إحالتها إلى مساعد وكيل الوزارة،

وعلمت من مصادر موثوقة أن الرجل كان يعاني اضطراباً نفسياً خوفاً من أن يصدر حكماً سلبياً لا أستحقه وأن يوافق على نشرها فيتعرض للتنكيل إذا تبين للسلطات عدم ملاءمتها للنشر، ولم يجد الرجل مفرّاً من هذا العذاب سوى رفعها إلى وكيل الوزارة نفسه للتخلص من المسؤولية، ثم واجه وكيل الوزارة نفس المشاعر المتضاربة والمخاوف والهواجس فاضطر بدوره أن يبعث بها إلى مكتب وزير الثقافة الذي استخف بنفسه واستصغر منصبه في اتخاذ ما يلزم إزاء هذه المخطوطة الملعونة، فما كان منه سوى أن سلمها بيده إلى موسوليني!!

وهكذا كان يدير موسوليني شئون بلاده بالحديد والنار، حيث لم يكن هناك من يجرؤ أو يتجاسر على اتخاذ قرار قد يكون تافهاً أو سطحيّاً ما دام في صدر الدوتشي قلب ينبض بالحياة وعين تبصر الأشياء ويد تبطش بالأعداء.



الفصل الثامن

الدوتشى الفاشى والفوهرر النازى

ما من شك أن الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية قد كان لهما تأثير بالغ، لعلى لا أبالغ إذا قلت أن العالم قد حبس أنفاسه طوال وجود الفوهرر أدولف هتلر والدوتشى بنيتو موسولينى على سدة حكم بلديهما.

لقد تزامن ظهور الحركتين معاً فى أجواء ملبدة بالغيوم، حيث إن ألمانيا كانت تلحق مرارة هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وتداعياتها التى أسفرت عن سيطرة الفرنسيين على أحد أجزائها، الأمر الذى ألقى بظلال قاتمة وكثيرة لدى الشعب الألمانى الذى كان يتعجل ساعة تحرير أرض الأجداد وتطهيرها من دنس الفرنسيين على حد تعبير الألمان حيثئذ، ولأن هتلر كان يتطلع كالنمر لالتهام النمسا على اعتبار أن الدولتين لا ينبغى انفصال أى منهما عن الأخرى وأن لألمانيا حقوقاً تاريخية فى النمسا، فقد كانت الأجواء فى أوروبا تدعو للتشاؤم.

من ناحيته لم يك الدوتشى رغم ثورته المتأججة معجباً بالفوهرر أدولف هتلر، ومن ثم أبدى انزعاجه بصورة علانية إزاء تصريحات هتلر ورجاله التى كانت تستعرض مستقبل التحركات الألمانية .

ومن ثم لم يكن موسولينى يميل إلى التقارب مع الساسة الألمان حرصاً على مصالح إيطاليا العليا، حيث إن الاعتداء على النمسا شأنه أن يهدد الاستقرار

فى إيطاليا، فضلاً عن أن توحش القوة الألمانية أيضاً قد يوتر على سلامة الأراضى الإيطالية ويهدد أمنها أمام رجل عنيد وصلب ومتوحش وطامع فى تأسيس إمبراطوريته .

قد تكون إيطاليا ضمن مخططاته التى يتطلع للاستيلاء عليها مستقبلاً، لا سيما وأن برنامج أودلف هتلر كان ضبابياً لسانة أوروبا، حيث حار الجميع فى قراءة عقل الرجل وكيفية التفاهم معه، أضف إلى ذلك أن بنيتو موسوليني الثورى لم يكن ممن تروق لهم الحركة النازية وتجربتها، وكثيراً ما دافع عن فاشيته محاولاً على نحو أو آخر التمييز بينها وبين النازية.

كان موسوليني يرى أن الفاشية تتضارب مع النازية فى رفضها القاطع للديمقراطية، وعدائها لليبرالية والنظم البرلمانية، واعتمادها على التسلط والحشد الشعبى، بيد أنه لم يكن يؤمن بما نادى به النازية من ضرورة تفوق الجنس الأرى وفقاً لما ورد فى نظرية الفيلسوف الألمانى (كارل هاوسهوفر) الذى كان قد عرض تفاصيلها على أودلف هتلر أثناء وجوده فى السجن قبل وصوله إلى السلطة.

وأصل الحكاية أن رودلف هس النائب الأول للزعيم أدولف هتلر كان على علاقة وطيدة بالفيلسوف كارل هاوسهوفر، وكان شديد الإعجاب بما يسمعه منه، حتى أنه راح يلح على هتلر أثناء اعتقالهما فى أحد سجون ألمانيا بضرورة أن يلتقى مع هذا الفيلسوف الذى يحمل فى رأسه مشروعاً فكرياً يحتاج إلى زعيم يتمكن من تفعيل نقاطه وعناصره وخطوطه على أرض الواقع، ويبد أن هس كان على يقين من أن هتلر هو الزعيم القادم الذى تنتظره الأمة الألمانية

فقد كان أيضاً على نفس الدرجة من اليقين بأن كلا الرجلين فى حاجة ملحة لبعضهما البعض.

وتحت ضغط وإلحاح هس اضطر هتلر إلى التقدم بطلب إلى إدارة السجن بطلب خلاله استقبال أحد أقاربه من الأم ويدعى كارل هاوسهوفر فى خديعة رسمها بالاتفاق مع هس.

وحين قام الفيلسوف بزيارة هتلر داخل السجن دار بينهما حوار مطول أسهب فيه هاوسهوفر وصال وجال يشرح ما يؤمن به من أفكار ورؤى مستقبلية، فيما لاذ هتلر بالصمت، وبدا وكأن الطير قد استقر على رأسه فى دهشة بالغة ولسان حاله يقول: أحسنت يا هس .. لقد أهديتنى كنزاً ثميناً لا ينبغى التفريط فيه قط.

استمرت اللقاءات الثنائية داخل السجن تجمع بين الرجلين متى سمحت إدارة السجن بذلك.

أما الفكرة فقد شرحها الفيلسوف لهتلر، وكانت تدور حول رؤية الرجل للمجال الحيوى الألمانى، حيث إن هاوسهوفر كان قد سافر ذات مرة عبر البحر الأبيض والبحر الأحمر ثم المحيط الهندى حتى استقر به بالمطاف فى طوكيو، كانت تلك الرحلة فى بواكير عام ١٩٠٩ وكان قد اقتطع خلالها بضعة أيام للراحة والتنزه فى قبرص والإسكندرية وعدنا والهند ثم سنغافورة.

الشاهد أن الرجل استخلص من رحلته أن الأساطيل اليابانية والبريطانية والأمريكية كان لهم السبق فى فتح آفاق المجال الحيوى أمام بلدانهم ، ومن ثم

أدرك مدى حاجة ألمانيا هي الأخرى لخلق مجال حيوى، وهو أمر لا يتأتى إلا بعد أن تتأمل السياسة الألمانية بإمعان وبدقة جدوى رؤية الجغرافيا السياسية. والجغرافيا السياسية التى أشار إليها هاوسهوفر تعنى وفق مفهومه تلك العلاقة التى تربط بين طبيعة الأرض وبين التطورات السياسية التى تتركز فى الأساس على معطيات جغرافيا تتضمن التاريخ والجغرافيا وعلم الأجناس والاجتماع وعلم النفس والاقتصاد، وعلوماً أخرى يمكنها إذا توحدت معا أن تصنع وتشكل قوة الدولة متى تم تحريكها بكفاءة واقتدار لتنصهر كلها داخل بوتقة واحدة.

وكان هاوسهوفر يردد على مسامع هتلر بصورة ملحة أن من يملك البحر يملك العالم. وهو قول صحيح على حد بعيد، ولعل سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية فى عصرنا الحديث تبرهن على صحة هذه المقولة، حيث إن أساطيلها البحرية الحربية ويوارجها وناقلاتها تجوب بحار الدنيا ومحيطاتها دون أن ينبس أحد بينت شفه احتجاجا أو امتعاضا، ثم إن فرنسا وإنجلترا كانت لهما اليد الطولى فى العالم بفضل قدراتهما فى السيطرة على البحر وبهدف السيطرة على العالم.

ومن يعود بالذاكرة التاريخية إلى العصور القديمة والوسطى يتأكد له مدى عراقية وأصالة هذه الفكرة التى أحيها هاوسهوفر وأشعلها فى رأس هتلر. صحيح أنها لم تكن الفكرة الوحيدة التى طرحها، بل طرح عليه فكرة الأجناس، وضرورة تفوق الجنس الأرى ليكن الشعار هو ألمانيا فوق الجميع.

أضف إلى ذلك عدااء هتلر للجنس اليهودى وملاحقته له داخل ألمانيا تبنى سياسة عنصرية لتتقيه وتطهير الجنس الأرى وعدم امتزاجه بدماء اليهود، وهى النظرية أو الأفكار التى لم تكن تروق للدوتشى بنيتو موسولبنى، وكثيرا ما شن عليه هجوما لاذعاً وعنيفاً.. رافضاً تأييد بلاده لها لتعارضها مع مبادئ الفاشية الإيطالية.

الحاصل أن موسولبنى الذى سمي تلك الدعوة العنصرية بأنها بلاده وسخف مطلق وإنه لا توجد فى إيطاليا مشكلة يهودية ولا يمكن أن تقوم مثل هذه المشكلة فى بلاد تتمتع بنظام حكم سليم وفق ما ذكره، فقد التقى أدولف هتلر فى صباح الرابع عشر من يونيو ١٩٣٤ فى مدينة سترامطة على نهر برنيتا القريبة من مقاطعة بادوا .

كان اللقاء يتعلق بالأحداث الجارية والتهديدات التى يطلقها هتلر من حين لآخر لاحتلال النمسا، بيد أن حالة من النفور انتابت الرجلين حتى إن المراقبين السياسيين أجمعوا على أن كلا الرجلين بدا وكأنه على حلبة ملاكمة، يتربص ويتوعد كل منهما الآخر.

ويروى أتباع الرجلين أن موسولبنى قد بدأ ممتعضاً من الرجل الذى ظهر أمامه بعينين شاحبتين وشعر يتدلى على عينيه، ثم إنه سريع الكلام وعصبى المزاج ويتسم بالتفاهة، حتى أن موسولبنى أخبر وزير خارجيته قائلاً: أنا لا أطيق رؤية هذا الرجل الكريه. قالها بالفعل خلال استراحة قصيرة كان قد اقترحها موسولبنى لنيل قسط من الراحة على أن تعود المباحثات بينهما مرة أخرى بعد ساعة فقط.

الغريب أن موسوليني أكد في مذكراته أن هتلر رجل مجنون بالفعل ، ومن ثم لم يكن مستغربا ما جرى بينهما من صراخ وصياح خلال المباحثات حتى كادا يشتبكا معاً .

وهو ما دفع وزير خارجية هتلر (قسطنطين فون نوارث) ليصف الواقعة بقوله : (لقد بدا الزعيمان أمامي ككلبين من كلاب الدرواس الكبيرة الضخمة يعوى كل منهما نحو الآخر) .

ولتهدة الأجواء الساخنة اصطحب موسوليني ضيفه العنيد المتحجر أدولف هتلر إلى رحلة بحرية على متن قارب صغير جمعتهما فقط ، فيما التف حولهما على بعد أمتار رجال حرسهما الخاص . وبينما كان موسوليني يهدف إلى تهدئة أعصابهما وتبريد سخونة الموقف بينهما راح هتلر يتوتر حول نظرية تفوق الجنس الآرى على جميع الأجناس بما فيها الجنس الإيطالى الذى اختلط بالجنس الزنجى ، الأمر الذى أثار امتعاض موسوليني ، وتظاهر بعدم الاهتمام بما يقول ، حيث قاطع محدثه اللفظ قائلاً : هلا تأملت يا فوهرر هذه الطبيعة الساحرة الخلابة؟! إنها خاصة بإيطاليا فقط دون غيرها ، وكأن موسوليني يريد أن يخبره بضرورة التوقف عن الاسترسال فى الحديث ، والاستمتاع بالمناظر الطبيعية الجميلة .

ويقال أن موسوليني راح يغمغم بكلمات إيطالية لمحها رجاله الذين بادروا بسؤال عما كان يتمم به جانباً ، فأجاب : كنت أقول فى نفسى يا له من رجل مجنون!!

لكن يبقى السؤال: إذا كان موسوليني لم يكن يطبق رؤية هتلر في اللقاء الأول الذى جمعهما، فهل كان ذلك فى مصلحة البلدين؟ وبمعنى آخر: هل هذا البرود والجفاء يصب فى خانة إيطاليا أم ماذا.

وبعد أن انتهى اللقاء بينهما وعاد الرجلان لبلديهما لتدارس الأمر وتأمل ما جرى بينهما اكتشف الدوتشى أنه من الأهمية بمكان توثيق العلاقة مع هتلر، حيث إن جدواها ومتافعها كثيرة ومتعددة، على عكس العلاقة مع الدول الأخرى كفرنسا وبريطانيا مثلاً.

والواقع أن الدوتشى الديكتاتور المستبد ارتاح للعلاقة مع هتلر بوصفه دكتاتوراً وطاغية ينتهج نفس منهجه الاستبدادى، ومن ثم فاللقاء بينهما يخلو من اللوم والتأنيب والمقارنة بين الديمقراطية والديكتاتورية والعدل والظلم، والتميز والمساواة، بل كان اللقاء مع هتلر يتصف بالتوافق والتناغم والانسجام مهما كانت الخلافات التى شهدتها لقاؤهما الأول.

واقع الحال أيضاً أن موسوليني لم يكن يملك القدرة على توثيق علاقاته مع بلاد تدعو لتفعيل الحرية والديمقراطية رغم ما حظيت به حركته من إعجاب أفصح عنه زعماء أوروبا، لكن على أى حال خشى عدوى الديمقراطية والإصابة بفيروس الحرية القاتل لحركته، فارتقى فى أحضان هتلر، حيث إنه هو الآخر عدو للديمقراطية وأحد المؤمنين بالحكم المستبد.

أضف إلى ما سبق رغبة موسوليني فى تسوية النزاع بين النمسا وهتلر بصورة هادئة حفاظاً على سلامة حدوده المتاخمة مع النمسا وألمانيا.

وما من شك أن نفس المشاعر التي يحملها الدوتشى فى صدره نحو هتلر هى نفسها التى كانت مستقرة فى صدر الفوهرر نفسه، وحتى الهدف من توثيق العلاقة بينهما كانت كلها أفكار مشتركة وموحدة، ومن ثم سعى الرجلان لتدعيم أواصر العلاقة بينهما للتواءم مع التحديات التى تشكلها بريطانيا وفرنسا.

وفى إحدى خطبه راح بنيتو موسولينى يبشر العالم بأن روما وبرلين بصدد تدشين محور يجمع العالم من حوله، لا سيما تلك البلدان المحبة للسلام والاستقرار.

وكانت دعوته الحماسية عقب لقاء جمعه بمبعوث أرسله هتلر حاملاً برقية تدعو الدوتشى لزيارة ألمانيا.

فى تلك الاثناء كان الدوتشى يعتصر ألماً من السياسات الإنجليزية المستفزة لبلاده، وقد تجلّى ذلك حين أعلنت إنجلترا عن إبرام اتفاق جديد مع فرنسا بغرض فرض حماية بحرية على السفن الفرنسية التجارية فى البحر المتوسط بعد سلسلة طويلة من الاعتداءات والقرصنة التى مارستها إيطاليا وأسبانيا ضدهما، وهو الأمر الذى ابتهج منه هتلر، حيث أدرك أن موسولينى قادم فى الطريق ولن يتردد فى التحالف معه، كما أن الدعوة التى وجهها الملك البريطانى جورج السادس إلى هيللا سلاس إمبراطور الحبشة الذى كان يناصر موسولينى العداء السافر لزيارة بريطانيا بمثابة الطعنة الغادرة القاتلة التى لم يقو موسولينى على تحملها.

كان موسوليني أيضاً يسعى إلى توثيق علاقاته مع ألمانيا لإجهاض أى اتفاق مستقبلى قد تعقده مع بريطانيا، وما يمكن أن يمثله ذلك على مصير إيطاليا مستقبلاً.

إذن لا مفر من قبول الدعوة التى بعث بها هتلر وقبولها لتدشين قواعد علاقة جديدة ينبغى الإسراع فيها لمواجهة التكتلات العالمية التى بدت خطيرة ومثيرة.

وفى ظهر الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٣٨ كان موسوليني فى زيارة تاريخية لألمانيا حيث اصطفت الجماهير الألمانية على جانبى الطريق بمدينة ميونخ لرؤيته والاحتفاء به.

كان الدوتشى الذى لم يكن يميل إلى ارتداء أفخر الثياب قد أصدر أوامره بتجهيز ثياب رسمية أنيقة صممت خصيصاً لهذه الزيارة، وبدأ للمرة الأولى فى أجمل صورة لم يكن أحد قد اعتاد رؤيتها من قبل، كانت الزيارة مثيرة ومؤثرة، حيث لاقت إعجاباً هائلاً لدى موسوليني الذى لم يكن يظن أن ألمانيا كلها ستخرج فى استقباله.

ولم تكن حرارة اللقاء الشعبى هى أهم دواعى إعجاب موسوليني، بل دقة وتنظيم وبراعة وروعة وعبقرية العروض والمتاورات العسكرية والشعبية هى التى أبهرت الدوتشى، الأمر الذى دفعه للقول ذات مرة بأن هذه الزيارة لم تبارح رأسه قط، ولا سيما أن مشية الأوزة التى كان الجنود الألمان يخطونها أمامه قد أعجبته، حتى أنه أمر قادة جيشه باقتباسها وتطبيقها فى صفوف جيش بلاده.

لكن ملك إيطاليا أبدى سخطة ورفضه لتطبيق خطوة الأوزة مما أثار حنق موسوليني الذي نهض من مكانه مخاطبا مبعوث الملك بقوله: (أوه.. إن عصر الملكية حانت شمسها أن تغيب بغير رجعة.. وجلالة الملك في السبعين من العمر وأنا أنشد الطبيعة أن تساعدني في التخلص منها، لقد تحملت ما لا طاقة لي حرصا على استقلال وسيادة بلادنا، وما زلت أتحدى بالصبر، فلا داعي لاستنفار أعصابي).

الشاهد أن زيارته لألمانيا لم تقتصر جداوها على اقتباس مشية الأوزة، بل إنها امتدت إلى ما هو أعمق وأوثق من كل هذه المظاهر والشكليات، حيث اضطر موسوليني أن ينحى منحى الفوهرر أدولف هتلر في دعم سياسة التمييز العرقي ضد اليهود كتلك التي انتهجها الفوهرر، وأدت إلى استقرار الأوضاع داخل الأمة الألمانية، أو هكذا ظن.

وعلى ضوء إيمانه بتعكير صفو اليهودي الإيطاليين، وهي الكارثة التي كان يستكفها ويستنكرها ويلوم النازي على انتهاجها اضطر موسوليني إلى اتخاذ إجراءات عقابية وتأديبية وعنصرية ضد اليهود، وقد علق على ذلك بقوله: (إن هذه الإجراءات سوف تزيد من كراهية الأجانب لإيطاليا.. حسنا، فليكن.

أما الإجراءات التي اتخذها الدوتشي فقد كانت مماثلة لنفس تلك التي قررها الفوهرر من قبل، وتمثلت في حرمان اليهود من العمل في قطاعات الصحافة والبنوك والتعليم والمحاماة، وطرد جميع اليهود الذين وفدوا على إيطاليا بعد عام ١٩١٩، ثم كان أن أسس مدارس ابتدائية خاصة بتعليم أطفال الأسر

اليهودية، كما أنه أمر بعدم الزواج من غير أبناء الجنس الأرى، وحبس كل من يتزوج من إفريقيات أو من يتورطون فى علاقات جنسية!!

والحقيقة لم يكن أحد يعرف هل موسولبنى كان يملك قناعة كافية عند إصدار حزمة الإجراءات العقابية المضطهدة لليهود، أم أنه كان يغازل الألمان ويرهن على حسن نواياه ووفائه لهم بالعهد.

أغلب الظن أن الدوتشى الذى كان صعب المراس يتعذر على من هو على شاكلته أن يتغير كلياً هكذا إلا إذا كان بفى وراء الأسمه ما يتعذر على سواه رؤيته واستكشافه.

وظنى أن موسولبنى لم يكن كارها لليهود بقدر ما كان يسعى جاهداً للتقريب مع النازيين قبل إتمام أية اتفاقيات بينهما وبين الإنجليز بعد أن ترددت أنباء مفادها أن تحركات سرية تجرى بين الجانبين على قدم وساق.

وقد تأكد ذلك حين أبلغ موسولبنى أحد رجاله الذى نقل إليه المأساة التى يتعرض لها اليهود بقوله: إننى أشاطرك الرأى تماماً.. فأنا بالفعل لا أؤمن قط بنظرية العداء للسامية رغم أنى أطبقها لأغراض سياسية بحتة.

وشهدت إيطاليا ملاحقات أمنية لليهود واضطهاداً عرقياً حيث أصدر موسولبنى قراراته الرامية لمصادرة اممتلكات اليهود فى ١٩٣٩، بهدف مغازلة هتلر والتأكيد على التضامن معه علاوة على أن ذلك قد يؤدى إلى تحسين الأوضاع المعيشية للشعب الإيطالى إذا ما استرد أموال اليهود وممتلكاتهم.

ولم تقف الأمور عند هذا الحد المسرحى بين الرجلين ، بل امتدت ليصل إلى التفاهم بينهما بشكل جوهري وعميق من خلال توقيع تأسيس حلف بينهما باسم (ميثاق الصلب) تمت أزعج البلدان الأوربية والغرب لا سيما وأن أطماع الرجلين لم تكن خافية على أحد.

وقد ترددت أنباء مؤكدة تشير إلى اعتزام الفوهرر أدولف هتلر ضرورة استعادة الأرض الألمانية المستقطعة لصالح فرنسا، فضلاً عن رغبته فى تطبيق نظرية المجال الحيوى على الأرض .

وللتأكيد على ذلك فقد اجتمع هتلر فى تلك الاثناء مع قادة جيشه فى غرفة مكتبه وأخبرهم قائلاً فى حزم وصرامة:

إن مدينة دانزيج ليست هى هدف برنامجنا الطموح . . لكن الهدف الأسمى والأعظم والأهم هو توسيع رقعة مجالنا الحيوى فى الشرق، وأمامنا قرار لا مناص منه، وهو أن نشن هجوماً مفاجئاً على بولنده متى لاحت لنا أقرب فرصة . . وليس فى وسعنا أن نتعرض فيها لنفس ما تعرضنا له فى تشيكوسلوفاكيا . . لأنه ستكون هناك حرب، وعلينا أن نحرق سفنتنا، ولم تعد القضية مسألة تتعلق بتمييز أيهما على خطأ وإيهما على صواب.

الحاصل أى الحلف الجديد كان يعتمد على التعاون العسكرى فى الاساس لاسيما وأن موسولينى وهتلر امتدت أطماعهما دون أن يتحكم أى منهما فى إخفاء نواياه الشريرة والماكرة والعدائية نحو أوروبا، وكان هتلر قد اقتحم تشيكوسلوفاكيا ويرنو ببصره صوب بولنده ، فيما كان موسولينى قد أرسل قواته

لاحتلال أسبانيا وألبانيا مما جعل موجة من الهلع والفرع تجتاح ساسة وعروش أوروبا.

وعلى ضوء معاهدة الحلف العسكرى المشترك طالبت الحكومات الأوربية من سفرائها فى روما بالاستفسار عن نوايا هذا الحلف وأهدافه ومراميه، وانعكاساته على الاستقرار والسلام فى أوروبا.

والتقى موسولبنى بعدد من السفراء الغربيين، وقد تعمد أن يبلغهما بصورة غير مباشرة أنه يعتزم شيئاً ما مستقبلاً بقوله: «إننى فى حقيقة الأمر أناضل لتدريب إيطاليا على الحرب» !!

أريد أن أقول: إن العلاقة بين الفوهرر هتلر والدوتشى موسولبنى ارتكزت على أوضاع روادتهما وزعامة شعبية أراد كلاهما تأكيدها وزعامة تاريخية سعيًا منهما لتكريسها دون أن يعبأ أى منهما بالآثار والعواقب الوخيمة التى قد تتداعى من جراء تلك القرارات المجنونة والتى برهنت الأيام بعد ذلك على أنها بالفعل كانت مجنونة لا تصدر من عقلاء أو حكماء أو زعماء.

* * * *

الفصل التاسع

الطريق إلى الحرب العالمية

ما من شك أن طريق الدوتشى إلى أتون الحرب الثانية الكبرى كان مرصوفاً بالنوايا الماكرة التى كانت تتجلى لدى جميع الأطراف، وكان كل فريق يتربص للآخر ويتحين الظرف الملائم للانتقضاى على الآخر، خصوصاً وأن حلف الصلب أو الحديدى بين ألمانيا وإيطاليا قد كان له تداعيات خطيرة على استقرار أوروبا التى أدركت أن الزعيمين قررا اصطياى بلدان أوروبا واحدة بعد الأخرى، وأنه ينبغى التصدى لهما قبل أن يستفحل خطرهما.

لكن وبصراحة لم تكن أسباب الحرب العالمية الثانية منفصلة أو بعيدة عن نتائج وأثار الحرب العالمية الأولى، أو بمعنى أدق لم تكن الحرب العالمية الثانية سوى إنهاء هدنة بعد استراحة محارب طال أمرها منذ عام ١٩١٨ حيث تهاى المسرح الدولى لحرب مجنونة تستكمل وتحقق ما عجزت عنه الحرب الأولى.

وأصل الحكاية أن ألمانيا عقب انقشاع غمامة الحرب العالمية الأولى وإسداى الستار على خشبة مسرحها اضطرت تحت وطأة الهزيمة القاسية التى منيت بها أن توقع على هدنة فى الحادى عشر من نوفمبر ١٩١٨، كانت هذه المعاهدة قد قضت إملاءات مجحفة وشروطاً قاسية منها الانسحاب إلى ما وراء نهر الراين، ثم تسلم ألمانيا بقية المستعمرات.. أضف إلى ذلك الشعور بالمرارة والإحساس بالمهانة التى راودت الشعب الألمانى أمام صلف وعناد وصفاقه وابتزاز المفاوض الفرنسى المتغطرس والذى أكد الخط من الشعب الألمانى.

وكانت فرنسا الدولة بضغط هائل من قيادات الجيش قد تمسكت خلال مفاوضات الهدنة بتوسيع حدودها الشرقية باستقطاع أراضي ألمانية مواجهة لفرنسا ناحية نهر الراين، رغم اعتراض حلفائها كالولايات المتحدة والمملكة المتحدة، ثم كان أن استقطعت بلجيكا هي الأخرى أجزاء من الأراضي الألمانية وفق معاهدة الهدنة والصلح، ومن ثم أصبحت مناطق أوين وماليدى ضمن مناطق النفوذ والسيادة البلجيكية.

كما أن هولندا قد حصلت على أجزاء من الأراضي الألمانية أيضاً، حيث ضمت إليها مناطق يوستانيا وبوميدانيا وسيليزيا العليا.. وكان الحلفاء يهدفون من وراء توسيع وتضخيم بولندا لتتحول إلى دولة كبرى تمتد حدودها لتستقطع من روسيا والنمسا وألمانيا لصد الأفكار الشيوعية، ولتبقى هي حائط الصد المنيع الذي تتكسر عليه موجات المد الشيوعي.

ولم تتوقف أطماع الحلفاء المتصيرين عند هذه الشروط القاسية والظالمة، بل إن فرنسا أصرت على امتلاك مناجم إقليم «سار» الألماني حتى يتحدد مصيره بعد مرور خمسة عشر عاماً على وضعه تحت إدارة لجنة انتداب خماسية تتبع مباشرة عصبة الأمم.

ثم بلغت المأساة الألمانية حداً غير مسبوق حين استقطع الحلفاء أراضي السوديت الواقعة في منطقة شرق ألمانيا لتوسيع حدود دولة تشيكوسلوفاكيا بهدف عرقلة نمو أي اتحاد أو تعاون مستقبلي بين ألمانيا والنمسا، لا سيما وأن تشيكوسلوفاكيا قد نهضت وتوسعت بعد أن استقطع لها الحلفاء أجزاء هائلة من

الإمبراطورية النمساوية، أما الشروط العسكرية فقد كانت أشد ظلماً وذلماً ومنها:

- تحديد أعداد الجيش البرى بما لا يزيد على مائة ألف مقاتل من حملة الأسلحة الخفيفة لحفظ الأمن الداخلى.

- منع استعمال الأسلحة الثقيلة من جميع وحدات الجيش.

- نزع أسلحة الجيش الألمانى المتمركز فى منطقة شرق الراين.

- تدمير الأسطول البحرى الألمانى باستثناء عدة قطع بحرية صغيرة وغير ذات جدوى.

- إغلاق جميع المدارس العسكرية باستثناء عدد محدد تحت إشراف الحلفاء.

- إقرار ألمانيا بتحمل المسؤولية كاملة عن أسباب الحرب وتداعياتها.

- الموافقة على صرف تعويضات لضحايا الحرب.

- منح ألمانيا بعض سفنها التجارية لفرنسا تعويضاً عما لحق بها من خسائر.

- إخضاع بعض أراضى الراين لقوات الحلفاء لحين الانتهاء من سداد التعويضات.

- إعلان حالة الطوارئ فى الإقليم المحتل.

وهكذا تضمنت معاهدتا فرساي شروطاً كانت مهينة وقاسية، حيث غالت فرنسا وتشددت تحت تأثير نشوة الانتصار الساحق بيد أن الألمان كانوا قد

أبرموا تلك المعاهدة تحت ضغط الهزيمة المدوية ومن ثم لم تكن لديهم القدرة على معارضة هذه الشروط التي أدت إلى تفسخ وتشرذم دولتهم العظيمة.

فى أعقاب معاهدة فرساي مضت الأمور نحو مستقبل محفوف بالمخاطر، حيث ظل الشعب الألماني يعتصر ألماً ويكتوى جزئاً، ويعرض نواجذه على ما تعرضت له أرض الأجداد التي سلبها الفرنسيون الطغاة.

كان الألمان جميعاً يتطلعون إلى زعيم يرد لألمانيا كرامتها ويسترد لها أراضيها المنهوبة، ومن ثم كان هتلر هو الزعيم المرتقب الذي يتنظره الشعب الألماني، ويحملة مسئولية تطهير أراضى الآباء من دنس الفرنسيين الطغاة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن إيطاليا قبل عهد الدوتشى كانت ضمن قوات الحلفاء، ولما توثقت العلاقة بين النازى والفاشى، وألقى كل منهما بنفسه فى أحضان الآخر حرصت إيطاليا على إخراج ألمانيا من عزلتها، وتفكيك أغلال معاهدة فرساي بدعم غير مسبوق لجومستن ومعنوى توج فى نهاية المطاف (بحلف الصليب) الذى عزز العلاقات وكرس قواعد صداقة متينة بينهما.

وعلى أساس هذه العلاقة المتميزة بادرت إيطاليا عام ١٩٣٣ إلى إعلان جلى عن نواياها الطيبة إزاء الألمان لتطالب دول الحلفاء بأهمية إعادة النظر فى بنود معاهدة فرساي، وتقويمها بما يتواءم مع المستجدات الدولية والأوضاع الراهنة.

كان الدوتشى يعتمد فى دعوته على المادة ١٩ التى أشارت إلى إمكانية إدخال بعض التعديلات إذا اقتضى الأمر لتعزيز سبل السلام، ولم تكن مطالب إيطاليا قاصرة على مجرد خطابات دبلوماسية مرسلة إلى ذوى الشأن

بل تضمنت مباحثات ومفاوضات شاقة خاضها الدوتشى بنفسه على أمل التوصل إلى اتفاق جماعى لمطالبه.

وأمام ضغوط الدوتشى ورغم احتجاج فرنسا وامتناعها من الدعوة التى كانت بمثابة زلزال هز عروشها وهدد استقرارها اضطرت دول اللجنة الرباعية للانعقاد فى صباح السابع من يونيو ١٩٣٣ لبحث المطالب الإيطالية ومناقشتها فى محاولة جادة لإغلاق هذا الملف الشائك، إما بتلبية رغبات روما، وإما بإنهاء الأمر كلياً وفق ما سوف تتوصل إليه اللجنة الرباعية.

وبعد أن انفض الاجتماع أذيعت التوصيات التى لم تكن سوى أقراص مهدئة للأعصاب شريطة أن تبقى الأوضاع على ما هى عليه أو تغييرها وفق رغبات الدول التى استقطعت الأراضى الألمانية لتوسيع حدودها.

وجاءت التوصية التى تمخض عنها جمل المباحثات فآراً مذعوراً حيث أصيب الدوتشى بخيبة أمل دفعته للتقارب مع ألمانيا وتحريض هتلر الذى كان يعيش على فوهة بركان يتحين اللحظة الملائمة لاستعادة أراضى الأجداد.

صحيح أن موسولينى لم يكن يهدف إلى تدعيم الفوهرر فحسب، بل كان يعمل على قدم وساق من أجل إفشال مخطط التعاون المشترك المزمع تأسيسه، والتحالف الوليد بين النمسا وألمانيا، لا سيما وأن تحركات وأنشطة النازيين فى النمسا لم تكن خفية أو عسوية على أحد لكى يتفهم دوافعها وبواعثها.

بالطبع كان هذا التقارب النمساوى الألمانى من شأنه أن يزعج الدوتشى الذى لم يكن مستعداً لقبول اتحاد (نمساوى ألمانى) على حدود بلاده، ومن ثم سعى

على نحو أو آخر لإجهاض هذا المخطط، وكلما أخفق راح يبحث عن بديل قبل أن تقع الفأس الألمانية النمساوى فى الرأس الإيطالى ويحدث ما لا تحمد عقباه.

* * * *

احتلال إيطاليا للحبشة

كان الدوتشى تتنازعه أطماعه الإقليمية الدولية، ومن ثم راح يرقب الخريطة الدولية، ويتفرس خطوطها وتضاريسها لعله يحظى بما عجزت عنه حكومات إيطاليا السابقة فى اقتناص أى بلد أفريقى يسلب خيراته وينهب ثرواته تمشياً مع السياسة الاستعمارية التى امتازت بها لندن وباريس.

ولما تأمل الدوتشى الخريطة الإفريقية أبصر استقلال ليبيا والحبشة، فسال لعبه وزاغ بصره عليهما، لا سيما وأن أطماع إيطاليا فى الحبشة على وجه الخصوص لم تكن وليدة رحم سياسة الدوتشى، بل كانت سابقة على ذلك، فضلاً عن أن ثاراً يتوجع منه الإيطاليون عقب هزيمتهم التاريخية فى موقعة عدوة بالحبشة عام ١٨٦٥، وهو الجرح الذى ظل يتزف فأصاب الإيطاليين بالرعب والفرع من تكرار ما جرى من قبل.

لكن الدوتشى أثر القفز على هذه المحنة، وتصفية هذه العقدة التى تمددت كالعنكبوت فى نفوس الإيطاليين، وقرر إرسال قوات عسكرية ضخمة إلى الحبشة لبسط نفوذه عليها، لا سيما وأنه قد تأكد من موافقة أوروبا التى لاحت

أمامه بالصمت تارة وبالإمبالاة تارة أخرى، الأمر الذي اعتبره ضوئاً أخضر لتمير مشروع في إحياء أمجاد إيطاليا وبسط سيادتها ونفوذها على بعض المناطق المستقلة.

كان موسوليني قد احتلت قواته أراضي الصومال بموافقة أوروبية، بيد أن أطماعه لم تكن ترضى بالصومال فيما كانت لندن وباريس قد تقاسمتا معاً الكعكة الأفريقية والآسيوية دون أن يبدى أحد أي قدر من الاحتجاج والمعارضة.

والحقيقة أن لندن وباريس كانتا تخشيان معاً تنامي القوة الإيطالية وتوحش أطماعها ومردود ذلك على الخريطة الاستعمارية إذا تهيأت لإيطاليا سبل السيادة والهيمنة.

وفي الخامس من ديسمبر ١٩٣٤ قرر الدوتشي اقتحام الحبشة واحتلالها زاعماً أن الأحباش حاولوا الاعتداء على القوات الإيطالية المربطة على حدود الصومال أثناء ترسيم الحدود بين الحبشة والصومال.

والواقع أن القوات الإيطالية كانت تتذرع بترسيم حدود الصومال مع الحبشة لتوسيع حدود الصومال على حساب جارتها، فضلاً عن استفزاز الأحباش وجر شاكلهم لعل الصدام يندلع بينهما وتندفع القوات الإيطالية لاجتياح الحبشة بعد أن احتدمت نيران الفتنة بين البلدين.

وللتأكيد على أن الدوتشي كان قد اعتزم احتلال الحبشة من قبل وقوع هذا الصدام الحدودي فإن إمدادات وتعزيزات عسكرية قد وصلت الصومال وهو

ما يقطع بالنية الحقيقية لاحتلالها، وبغض النظر عن الأسباب، فالدوافع كانت كامنة في العقول، والبواعث مستقرة في القلوب، والقرار كان ممهوراً ينتظر ساعة الصفر.

وفي أوائل العام ١٩٣٥ وبعد مناوشات حدودية اجتاحت القوات الإيطالية الضخمة حدود الحبشة لتنطوي تحت لواء الفاشية الإيطالية وسط صمت أوروبي مريب، رغم أن هذا الاجتياح قد مثل تهديداً خطيراً على الاستقرار الاستعماري الذي فطن لوحشية الإيطاليين، ومن ثم أثر أن تتوقع إيطاليا داخل هذه البلدان: أريتريا والصومال والحبشة على أن تظل بداخلها دون أن تتمدد وتتوسع على حساب الدول الاستعمارية.



على أية حال كان شبح الحرب الثانية العظمى يتراقص أمام ساحة أوروبا وفقاً لأوضاع السياسة المتدهورة بين إيطاليا وأوروبا من ناحية، وألمانيا وأوروبا من ناحية أخرى، بل وتعميق العلاقة بين إيطاليا وألمانيا مع توافق سياسي ويشبه بعضه بعضاً، وأطماع وطموحات تتفرض وتنشد الخلاص والانطلاق.

ولما أدركت أوروبا مدى صعوبة الأوضاع القائمة وانعكاساتها على السلام والاستقرار في أوروبا وفي شتى أرجاء العالم قررت بريطانيا التحرك الدبلوماسي لعلها تستطيع نزع فتيل أزمة على وشك الانفجار قد تحرق الأخضر قبل اليابس، من هنا جاءت مساعي الإنجليز تهدف لتهدئة الأجور الملتهبة وتبديدها قدر الإمكان، وهو ما دفع تسمبرلين إلى إقناع الفوهرر

أدولف هتلر بالتعاون قدر الإمكان مع باريس ولندن وروما لتوثيق العلاقات بينهم جميعاً.

كان تشمبرلين رئيس الحكومة البريطانية قد ألح للفوهرر من خلال مبعوثه الشخصى إمكانية تقويم بعض بنود معاهدة فرساي لا سيما الشروط التى كبلت حرة الألمان الذين عجزوا عن تحرير وطنهم.

كانت التلميحات البريطانية تتضمن مسألة نزع سلاح وإعادة بعض المستعمرات الألمانية لها، والنظر فى كيفية عودة ألمانيا إلى عصبة الأمم إلى جانب استخدام تعبير «تعديلات طفيفه على الوضع الراهن».

على الجانب الآخر كانت ألمانيا النازية تشهد تنامى القوة العسكرية بصورة لافتة للنظر وسط موجة من التهديدات التى كان يطلقها لفوهرر من حين لآخر لانتزاع صيحات وصرخات الجماهير الغفيرة التى كانت تحتشد تحت حبات المطر الغزير لتستمع ولتعاطى منه جرعات الأمل نحو مستقبل أفضل لألمانيا ملوحاً بشعاره الأثير «ألمانيا فوق الجميع».

ومن ثم تقرر بعد اجتماع عاجل عقده الفوهرر مع قادة جيشه أن رسالة تشمبرلين لا ترقى إلى مستوى طموحات الألمان، وأن الإنجليز إنما يبحثون عن مرحلة هادئة ينشدون خلالها الاستقرار والسلام حفاظاً على إمبراطوريتهم التى بدا الوهن يدب فى أوصالها، والشيب يجتاح رأسها، والرعب يملكها من تنامى القوى الأمريكية التى تتطلع إلى أن تتبوأ الصدارة بدلاً منها.

المهم . . أن محاولات الإنجليز ومساعدتهم قد باءت بالفشل .

جدير بالذكر أن العلماء الألمان كانوا قد توصلوا إلى تصنيع أسلحة حربية حديثة لم يشهد لها العالم مثيلاً، وهو ما أدى إلى انتفاخ في ذاتية الفوهرر المتغطرس والساعى والمندفع والمهرول نحو حرب مجنونة مدمرة اعتماداً على تقنيات حديثة ألهمت خياله وأطلقت كالجواد الجامح.

وتجدر الإشارة إلى أن النازي قد أحى القوة العسكرية الألمانية حتى بدت على وشك الانفجار من فرط قوتها وتعاضم قدراتها، ولأن القادة العسكريين يحذرون دوماً من الإفراط في حشد الأسلحة وتكديس الذخائر وتدريب الجنود والارتقاء بمستواهم إذا لم يكن هناك حرب يترجمون ما بين أيديهم وفي أذهانهم إلى واقع فقد ينفجرون بين لحظة وأخرى في أصحاب القرار بتهمة التواطؤ أو الخيانة أو لسبب آخر لتبرير انفجارهم.

ولأنها نظرية جديدة بالتأمل فما من شك أن الفوهرر الذى استطاع ضم مليون ونصف مليون جندي في صفوف القوات المسلحة الألمانية وقد تلقوا أرقى وأقوى البرامج التدريبية الميدانية، كما أنهم قد تدربوا على أحدث الأسلحة، فقد كان هتلر يجنح إلى الطرف المناهض للسلام والمنادى بضرورة استرداد أرض الأجداد بالقوة ما دامت المفاوضات أضعف، والرسى أعجز من أن يعبدوا المسلوب والمنهوب.

كانت الاستعدادات نحو حرب عالمية وشيكة تجرى في ألمانيا على قدم وساق، حيث وضع هتلر خطة تعبئة شاملة تضمنت عمليات الإمداد والتموين والتخزين، وتطوير الصناعات وتحفيز العمال على تصنيع ما أوكل إليهم عبر حوافز مالية ومكافآت تشجيعية.

كما تزينت جدران البنايات الألمانية بالخطب الهتلرية الرنانة والعبارات الحماسية الداعية للقتال والاستقلال.

وبالطبع لم تكن روما بعيدة عما يجرى فى برلين حيث كانت الأمور فى دولة الفاتيكان تتحرك نحو جبهة القتال الدامى على نفس الخطى الألمانية التى كانت أشبه بقفزات حصان.

صحيح أنها خطى حصان جامح لا خطى أوزة نازية، ومن ثم أصدر الدوتشى أوامره بتخزين المواد الغذائية والعمل على زيادة الإنتاج الاقتصادى لمواجهة أعباء الحرب ونفقاتها الباهظة فضلاً عن ذلك فقد اهتم الدوتشى بالتدريبات العسكرية وتزويد وحدات جيشه الضخم بأحدث الأسلحة الثقيلة والخفيفة.



لكن على الرغم من درجة التأهب القصوى التى أعلنت فى ربوع إيطاليا فقد كان موسولينى يتطلع إلى فترة سلام تمتد خمس سنوات كاملة حتى يفرغ الجيش الإيطالى من تدشين قواعده ورسم خططه وتوفير قوته وأسلحته وذخائره ومتطلباته وحاجياته، لا سيما وأن الحرب لن تبقى ولن تذر.

ولأن رغبة الدوتشى كانت مدروسة وحكيمة وعاقلة، وثبت فيما بعد صحتها، فقد أرسل إلى الفوهرر مبعوثاً سرياً حاملاً رسالة عاجلة أكد فيها بوضوح أن إصرار الألمان على خوض أية حروب فى الوقت الراهن هى معامرة مجنونة محفوفة بالمخاطر، وقد أشار على هتلر فى خطابه بضرورة تحاشى الهجوم على بولتدة، حيث إن معظم النار ستشتعل من مستصغر

الشرر، وقد تكون بولنده نقطة البداية، لكن لا أحد يدري أين محطة النهاية، وماذا بينهما؟!!

كان موسوليني يعي ويدرك مدى المخاطرة التي يعتزم هتلر الإقدام عليها، وما سوف يترتب على هذه المخاطرة من خسائر رهيبة وفادحة، وخراب شامل سيطول الجميع، ولن ينجو منه أحد، لكن المدافع والطائرات والعيون الألمانية كلها مصوبة نحو بولنده، والعد التنازلي يقترب من ساعة الصفر، حيث لم يأبه هتلر بما ورد في رسالة الدوتشى.

كان موسوليني يتميز غيظاً من اندفاع هتلر وغطرسته، وعدم إدراكه لما هو قادم، وجهله بقراءة العلوم العسكرية على أرض الميدان، كما عاب عليه هرولته نحو الحرب، رغم أن الانتظار لسنوات ثلاث أو حتى خمس قد تجعل الموازين العسكرية تصب في خانة المحور، بيد أن العناد الهتلري لم يكن ليلبي رغبات الدوتشى ويطيع أوامره، حيث كان هتلر لا يسمع سوى صوته، ولا يلبي سوى ندائه.

من هنا أدرك الدوتشى أن هتلر قد جذبته إلى مستنقع قد يشهد نهايتهما وزوالهما، لا سيما وأن إيطاليا كانت قد بسطت نفوذها على ألبانيا، وهو ما يتطلب تهيئة الأجواء داخل مستعمراتها حتى لا ينفرط عقدها وتتأزم الأمور وتتعدد الأوضاع.

وقبل أن يتحرك الفوهرر النازي بقواته إلى احتلال بولنده للبدء في أولى خطوات الحرب العالمية الثانية كان قد أرسل إلى الدوتشى خطاباً مقتضباً جاء فيه ما يلي:

عزيزى المخلص الدوتشى بنيتو موسولينى، أخبرونى أنك تتطلع إلى تسويق موعد اندلاع الحرب، وأنا أقدر لك هذه الأمنية، لكن كنت أصبو إلى أن تضع نفسك فى نفس موضعى، فماذا أنت فاعل؟ أنا على يقين يا عزيزى أنك كنت ستخذ ما اتخذته أنا الآن، ومن ثم أراك تتفهم موقفى، أليس كذلك؟

فما كان من الدوتشى سوى أن بادر بالرد العاجل قائلاً: عزيزى الفوهرر / هتلر.

كم يؤسفنى أنكم لم تحيطونى علماً مسبقاً بما اتخذتموه من خطوات مصيرية بوصفى شريكاً وحليفاً لكم، وبيننا اتحاد صلب، لكن انفرادكم بالقرار قد أثار حنقى، لا سيما وأن الأمر بات خطيراً ومزعجاً للغاية.

ولأننى ناشدتك كثيراً بالحرص على تسويق المواجهة القادمة حين الانتهاء من استعداداتنا، فإننى أود أن أبلغك بموقفنا حتى نتخذ حساباتك وقراراتك وفق موقفنا الطارئ والمستجد، إذ إننا لا نستطيع الآن دعمكم ومساندتك عسكرياً حسبما كنا نظن، حيث لم تكتمل استعداداتنا حتى الآن، لا سيما وقد طلبنا منكم أننا قد نستطيع خوض أية حرب قادمة فى غضون خمس سنوات من الآن، وهى الرغبة التى لا نزال نتمسك بها، ومن ثم لا يسعنى سوى أن أشارككم وأدعمكم سياسياً واقتصادياً فحسب، ولذا أرجو قبول اعتذارى، وتفهم موقفى، وليتكم تدرسون موقفى بعناية، وتضعون أنفسكم موضع منصبى وما يمكنكم اتخاذه، وأنا لا يخالجنى الشك فى أنكم ستقررون ما قررته، وتتخذون ما اتخذته من قرارات أراها منطقية وعقلانية فى مرحلة تتطلب الحكمة والعقلانية وتوخي الحذر.

ولما تلقى هتلر الرسالة أدرك أن الدوتشى قد تخلى عنه فى ساعة الحسم التى كان ينبغى عليه التواجد خلالها كما كان متوقعا منه، وحين علم الدوتشى أن هتلر يتميز غيظا ويعتصر ألما على الموقف الإيطالى المفاجئ والمزعج أحس الدوتشى بالضيق ووخز الضمير رغم قناعته بما اتخذته وتمسك به، بيد أنه أراد تخفيف حدة الأمر والتهوين من موقفه، وإرضاء الفوهرر، وتهذئة خواطره، حيث إن الدوتشى لا يقبل أن يكون هو الذى تخلى وغدر وخان.

ومن ثم أرسل الدوتشى أحد مبعوثيه لكى يشرح لهتلر المرامى والأهداف التى كانت وراء ما اتخذته وقرره، فضلا عن رغبة موسولبنى فى إجراء وساطة سلمية بين هتلر والحلفاء لانتزاع فتيل الأزمة التى باتت على وشك الانفجار.

لكن هتلر قد قرر عدم العودة إلى الوراء قيد أنملة، حيث إن قواته العسكرية سواء البرية أو البحرية والجوية تقف على قدم وساق فى حالة تأهب قصوى بلغت أقصى درجاتها ويتظرون بين لحظة وأخرى ساعة الصفر، ومن ثم بات التراجع لا محل له من الإعراب.

ولأن التحرك العسكرى قد بدأ بالفعل خلال وجود مبعوث موسولبنى فقد استقبل الفوهرر النازى مبعوث الدوتشى وأخبره أن بنقل للدوتشى تحياته، ثم اختتم رسالته التى سلمها للمبعوث بقوله: بالرغم من أن طريقنا قد افترق الآن.. فقد كنت واثقا من أن المستقبل سيعمل لصالح وحدثنا.. وليس لدى شك أيها الدوتشى فى أنك لا تختلف معى فى ذلك قط.

والواقع أن وساطات عديدة جرت بين بولنـدة وألمانيا، بيد أن البلدين تمسكا بموقفهما دون اللجوء إلى تقديم أية تنازلات من أى نوع، وإن صدر هتلر قد بات أكثر ضيقا من ثقب الإبرة كما أن صبره بات رصيده صفراً.

حتى إن مبعوث بولنـده الذى أراد مقابلة المسئولين الألمان قد تلقى رداً حاسماً يعنى بأن السيف قد سبق العزل، ولم يعد هناك مجال للتباحث والتعارض فيما لا طائل من ورائه.

وجاءت ليلة ٣١ أغسطس ١٩٣٩ ليجمع الفوهرر طوال ساعات الليل مع مجلس الحرب المصغر لمتابعة الأوضاع، والوقوف على حقيقة الاستعدادات والتحركات لحين بلوغ ساعة الصفر التى تحدت فى تمام الساعة الرابعة فجراً، حيث بادرت الجيوش الألمانية بإطلاق الرصاصة الأولى فى مسرح الحرب العالمية الثانية ليتحول العالم إلى ميدان رماية لا تتوقف فيه طلقات وقذائف وقنابل وصواريخ الجيوش طوال ست سنوات خلف ملايين القتلى وأضعاف هذا الرقم من الجرحى والمفقودين والمرضى النفسيين

ودارت معارك حامية الوطيس كانت الغلبة فى نهايتها لصالح النازيين الذين كانوا قد حشدوا على الجبهة البولندية أكثر من ٢٠٠٠ طائرة و ٥٨ فرقة عسكرية .

فى حين كانت القوات البولندية تمتلك ٣١٠ طائرة ونحو ٣٩ فرقة عسكرية فقط، وقد أبليت تلك القوات بلاء حسنا فى ميادين القتال حتى استمرت الحرب طوال أسبوعين كاملين، تكبد فيها الجانبان خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد، حتى كانت الكلمة الأخيرة للجيش الألمانى العنيف.

والحقيقة التي لا تخفى على أحد أن أدولف هتلر كان يراهن على أن فرنسا وإنجلترا لن تشاركاً في حرب تدميرية للدفاع عن بولندا وغيرها، ومن ثم كان متمسكا بالمضى قدما لتحقيق أهدافه وغاياته.

وكانت إسكندناوة هي جبهة القتال الثانية التي شهدت جحافل القوات الألمانية تصبح صيحتها الشهيرة: «هاى هتلر» وتغنى شعارها الأثير «ألمانيا فوق الجميع». ولأن الانتصارات الألمانية كانت ساحقة ومأحقة فقد استولى الغرور على رأس الفوهرر، وتحت تأثيرات نشوة الانتصارات قرر أن يجتاح الحدود الفرنسية ظنا منه أن ما حققه من انتصارات من شأنه أن يردع الفرنسيين ويبيث المخاوف في صدورهم.

وفي العاشر من مايو ١٩٤٠ أعلن الحرب على فرنسا، لا سيما وأن ألمانيا التي كانت قد خاضت حربها على بولندا بحوالى ٥٨ فرقة تستطيع أن تغزو فرنسا بأكثر من مائة فرقة من جملة ١٩٠ فرقة هي الرقم الاجمالي للجيش الألماني.

كانت فرنسا لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وكانت تلقى بالمسئولية على كاهل الحكومة البريطانية التي كانت تمتلك أسطولا بحريا يفوق قدرات الأسطول الألماني، بيد أن القوات البريطانية كانت موزعة على مستعمراتها في شتى أرجاء العالم لحماية مصالحها، ومن ثم باتت المواجهة مع الجيوش الألمانية الجرارة تتطلب مزيداً من الوقت لدراسة الأمر وتوفير الأعداد والعتاد اللازمة، والواقع أن القوات الفرنسية كانت في حال من التحلل لا تقوى معها على مقاومة

الجيش الألمانية الغازية باستثناء تدشين خط ماجينو الذى كانت تعتمد عليه باريس اعتماداً كلياً لحين توفير الاستعدادات الكاملة.

ولم يكن الهجوم الألمانى بواسطة البوارج البحرية أو القوات البرية، بل اشتمل على الطائرات الحربية التى كانت أخطر المفاجآت فى ميادين القتال، خصوصاً وأنها المرة الأولى التى تستخدم فيها الطائرات لهذا الغرض، وهو ما ألقى بظلال قائمة على الحلفاء الذين عادوا يدبرون أمرهم فى كيفية التصدى لهذا السلاح الجديد والمفاجئ.

ولم يكن هتلر يتطلع إلى فرنسا فحسب، بل امتدت أطماعه إلى احتلال بلجيكا وهولندا رغم ما عرف عن الدولتين من انتهاج رسمى لسياسة الحياد، وهو ما كلف البلدين ما لا طاقة لهما به.

ورغم الاحتجاجات الدولية الواسعة على انتهاك سيادة دول حيادية، فقد بررت القيادة الألمانية قرارها بأن خط ماجينو قد شيد على طول الحدود الألمانية الفرنسية، ومن ثم بات الأمل معقوداً على نقاط ضعف وثغرات واسعة تتسلل من خلالها القوات الألمانية، فكان القطاع الشمالى المقابل لهذين البلدين هو أهم وأبرز النقاط الضعيفة التى يمكن اختراقها، ورغم سقوط هولندا المدوى والسريع فقد كانت بلجيكا على العكس من ذلك، حيث ناضلت وقاتلت، وظلت تتصدى وتقاوم حتى كادت تحقق نصراً ساحقاً ولولا الإرادة الألمانية الفولاذية لظلت بلجيكا على صلابتها وقوتها كما كان عهد الحلفاء بها فى الحرب العالمية الأولى.

وبينما كانت الحرب دائرة على صفيح ساخن كان هتلر قد أصدر أوامره بضرورة الدفع بفرقة مدرعات لتحترق الجبهة الفرنسية عبر المنطقة الممتدة بين آخر نقطة فى خط ماجنيو وبين الحدود البلجيكية، حيث لاحظت فرقة الاستطلاع الألمانية أن هذه النقطة على وجه التجديد تشهد فراغا عسكرياً فرنسياً ينبغي استغلاله، الأمر الذى حدا بالفوهرر للتحرك الحاسم فى استغلال عبقرى لهذه الفرصة.

وعلى إثر هذا الاختراق الناجح توغلت القوات الفرنسية حتى ميناء بفيل الواقع فى منطقة الشمال الشرقى لفرنسا، وكانت ألمانيا تسعى من وراء هذه المحاولة الناجحه إلى فصل وعزل قوات الحلفاء التى تركزت فى شمال فرنسا وحدود بلجيكا وبين بقية الجبهة، الأمر الذى أدى إلى تدهور الموقف الميدانى لقوات الحلفاء.

ولم تقف الجيوش الألمانية عند هذا الحد، بل إن أطماعهم دفعتهم لتنشيط حركاتها وتعاضم دورها لتنخر كالسوس فى عظام الحكم الفاشى الذى بدا مهترئاً ومنكسراً.

ففى الوقت الذى كان الدوتشى يرصد أنفاس أسرة الملك والنبل الذين يحرصون على إزاحته والتخلص منه كانت قوى معارضة أخرى تمارس أخطر أدوارها للتخلص من موسوليني الذى غفل عنها ولم يفتن لخطورتها وأهميتها. كان موسوليني يعتمد على الوجود الألمانى لحمايته رغم كراهيته له، وحتى الألمان أنفسهم قد ظنوا أن أعداء موسوليني من طبقة النبلاء مما عجل بانقياد الفاشية ودفعها إلى أتون جحيم مستعر.

كانت النكات الساخرة واللاذعة تنتقد موسوليني وتحط من شأنه، ولا تعباً بما قدمه، حيث تبين للشعب الإيطالي أن الدوتشى لم يكن عبقرى أو زعيماً محنكاً بقدر ما كان مجرد خطيب مفوه اقتفى أثر هتلر وراح يرتقى فى أحضانه، ومن ثم وجب سداد فاتورة هذا الاختيار الذى كان نابعا من ذاته دون ضغط أو إكراه.

كان السخط والندم يجتاح أرجاء إيطاليا، وراح البعض يصبو إلى ساعة الحسم التى تسدل الستار فيها على هذا الحاكم الطاغية المستبد الذى أهدر إمبراطورية يتعذر تأسيسها مرة أخرى بعد أن تغيرت خريطة الدنيا وتبدلت أحوال العالم، وعلى الرغم من التحذيرات والإنذارات التى كان يتلقاها من راشيل وشقيقة إيدفيج حول انهيار الأمور . فلم يكن يعبأ بها أو يعيرها قدراً ولو بسيطاً من اهتمامه، وكان يقول فى خيلاء: إننى على يقين من ولاء الملك لى، فلا تصغون لأقوال السفهاء وأعداء الفاشية.

وحين أبلغوه أن رفاقه من الفاشيين يجهزون للانقضاض عليه ابتسم قائلاً: هذا سخف وجنون، إنهم أبنائى. وعندما شرحوا له حقيقة الأوضاع العسكرية السيئة لجيوش المحور كان يضحك كالذبيح قائلاً: ولكن عندى أمل أن الأوضاع ستغير وستحول لصالحنا فى النهاية، انتظروا واصبروا وترثوا، وسوف ترون.

ولما أخبروه عن أعداء الفاشية برقت عينه وراح يصدر أوامره الصارمة ببناء معتقلات جديدة لاستقبال نزلاء يناصبونه العدا، وحان التخلص من وجوههم

الكريهة. وإذا ما اشتدت أوجاع الناس وتزايدت شكواهم وراح أغلبهم يتنفض ويتظاهر أقال مسئولى الأمن الداخلى، ويوم أبلغوه أن الشائعات تتشتر فى البلاد كالنار فى الهشيم حول تدهور صحته وترديها على نحو مخيف دعا أعضاء حزبه وأبناء الشعب الإيطالى وراح يطل عليهم من شرفة قصر البندقية وألقى خطبة حماسية أكد خلالها أنه لا يزال ينبض بالقوة والحيوية والحماس، حيث قال لهم بصوته الجمهورى: (أيها الشعب الإيطالى العظيم . . . يا أبناء روما التاريخية . . . يا أيها الفاشيون الأوفياء . . . يا أحفاد قيصر . . . ما لى أرى فى عيونكم وأحس فى أصواتكم خفق الإيمان الذى لا يخالجه ذرة شك . . . أراكم خائفين . . . لا تخشوا شيئاً يا سادة فالنصر النهائى سيكون لنا . . . وليس لدى أدنى شك فى أن تضحياتكم ستحصدون ثمنها، فأنا لا أشك فى هذا، كما أننى لا يساورنى الظن فى عدالة الله، وإن إيطاليا العريقة ستظل خالده.

والواقع أن هذه الخطبة النازية لم تكن سوى نهاية خطب موسوليني، وطلته على أبناء أمتة المخذوعين، حيث أعلنت قوات المحور فى إفريقيا استسلامها دون قيد، وسرعان ما اجتاحت نيران الحلفاء لاجتياح إيطاليا للقضاء على أنصار الفاشية وعناصر النازية المتمركزة فى شوارعها وميادينها تمهيداً لتصفية الوجود النازى فى ألمانيا بأسرها.

كانت تلك الأنباء المزعجة والمؤسفة قد أشعلت نيران الغضب داخل أوساط الشعب الإيطالى الذى فاض به الكيل من الهزائم المتوالية، فيما كان الدوتشى لا يزال يتغنى بخطبه وبأناشيد الشعب وهتافاته، مما يبرهن على أن الرجل كان غائباً لا يدرى ما يجرى من حوله.

وأمام هذه التطورات تحرك الملك بإيعاز من ونستون تشرشل وستالين الذين نصحاه بإنتهاز اللحظة التي أصبحت ملائمة، فلم تكن كذلك من قبل، حيث ينبغي توظيف وتسخير غضب الشعب وسخطه للإطاحة بالديكتاتور المستبد.

وعلى ضوء هذه التداعيات راح الملك الإيطالي يستدعى المارشال بادوليو الذى جاء على عجل، وقد بادر الملك بسؤاله عما إذا كان يمكنه أن يخلف موسوليني متى تمت الاطاحة به أم لا؟ أجاب على الفور أمرك يا جلالة الملك، فأنا رهن إشارتك متى أبلغتنى بذلك.

بيد أن علامات القلق لاحت على محياه، فأخبره الملك قائلاً: أعرف يا أيها المارشال أنك قلق من الدوتش أليس كذلك؟ أجاب المارشال: نعم يا جلالة الملك كيف السبيل إلى ذلك؟ فأجاب الملك لقد تلقيت نصائح ذهبية تطالبني بصدق وإخلاص بإصدار قرار عاجل بالقبض على موسوليني فى أحد أيام الأسبوع الإثنين أو الخميس، حيث أنه يذهب فى كلا اليومين إلى قصر الكيرنيالى أو فيلا سافويا للقائنا.

ولما ترامت للألمان أنباء تفيد باقتراب نزول موسوليني عن الحكم قسراً هاتفه الفوهرر للمقابلة بينهما على جناح السرعة لتوضيح ما غاب على الفوهرر أن يراه، فضلاً عن مطالب الفوهرر المستمرة فى ضرورة قبول القادة الألمان المتواجدين فى إيطاليا والرضوخ لأوامرهم.

لكن سقوط صقلية وغارات الحلفاء العنيفة على روما ضاعفت من استياء الشعب وآمال الملك الذى خدع موسوليني عند لقائه به، جمعت مقابله الدوتشى مع الفوهرر، حيث أبلغه الملك بنبرات لا تخلو فى ظاهرها من

الصدق وفي باطنها من الغدر والخيانة، وقد قال بالحرف لموسوليني: أعتقد أنك تعيش يا دوتشى أياماً مفزعة، ولكن بمقدورك أن تثق وتطمئن إلىّ، ومن الحماقه أن تتصور أن جميع الناس سيتركوك وحيداً بمفردك، أو يقفون من حولك مكتوفى الأيدي رغم ما قدمته لبلادنا العظيمة.. على أية حال اطمئن يا عزيزى الدوتشى، أنا معك قلباً وقالباً، ولن أتخلى عنك قط، وإذا تخلى عنك الجميع سأكون أنا آخر من يفعل ذلك.

رغم أن تشيافو وزير خارجية إيطاليا وزوج ابنة الدوتشى قد نقل إليه ما يجرى سرّاً بين أعضاء الحزب الذين لا يدخرون جهداً فى الإطاحة بالدوتشى عند خروجه من قصر الملك، بيد أن الدوتشى كان يقول بصوت واهن: إنهم مجانين وجبناء، ولا يريدون سوى إشعال النيران فى ربوع بلادنا ذات الحضارة لعريقة.

كانت كلمات الدوتشى لا تعكس حقيقة الرجل الذى أشعل لنيران كما أشعل نيرون من قبله بيد أن نيرون كان يغنى كلما ازدادت الحرائق اشتعالاً وارتفعت ألسنة اللهب، فيما كان الدوتشى يخطب ويهتف كلما سقطت مدينة بعد أخرى، ولا أظن أن هناك ما يميز أحدهما عن الآخر.

الشاهد أن المؤامرات التى كان تحاك ضده وتستههدفه كان تضاعف من صلابته وعناده وتحجره لا سيما تلك التى ترامت لمسامعه حول تحرك رفاقه القدامى وفى طبيعتهم (بوتاي) أبرز وألمع القادة الفاشيين والذى تميز بقدرته وبراعته فى تكريس النظرية الفاشية وقد قاتل وناضل من أجلها.

فى تلك الأثناء كان موسولبنى يتذكر هتافات وصيحات أولئك الذين تشير
الأملاء حول ضلوعهم فى مؤامرة انقلابية ضده، ومن ثم لم يكن يبالى
بالتحذيرات والنصائح، وكيف لمثله أن يحتاط ويحذر ممن قال له أحدهم منذ
أسابيع: إن حياتى وروحى وإيمانى كلهم رهن إشارتك. وآخر يقول فى نبرات
حماسية: أنت أعظم من أنجبته إيطاليا. ثم إن الشعار الذى يتصدر جدران
بيوت وبنيات إيطاليا لا يزال براقاً، مشرقاً، وجلياً، ذاك الشعار الأثير
«موسولبنى على حق دائماً».

لكن المجلس الأعلى للحزب الفاشى كان قد قرر عقد جلسة عاجلة لإبلاغ
الدوتشى بضرورة اتخاذ ما يراه مناسباً وملائماً وفق الأوضاع الطارئة
والمستجدة لإنقاذ إيطاليا من دمار شامل وخراب قادم.

وفى بداية انعقاد الاجتماع كانت نظرات الدوتشى للحضور تبرهن كما أراد
على أنه لا يزال الرجل الأوحى والزعيم الملهم والقائد المحنك الذى لا يزال
يمسك بيديه كل خيوط اللعبة فى المسرح الإيطالى، وأن ما يتناثر من أقاويل إنما
هى أباطيل وأراجيف لا تركز على حقائق بقدر ما تستند على أوهام.

الشاهد أن موسولبنى استهل الاجتماع قائلاً بصوت هادئ النبرات يعكس
حكيمته وعقلانيته حيث يقول:

تشهد الحرب الآن مرحلة خطيرة للغاية حيث جرى على أرض الميدان ما
كنا نحسبه مستحيلاً، بل لا أعالى إذا قلت أنه كان مجرد افتراض ساذج،
على الرغم من دخول أمريكا الحرب فى منطقة حوض البحر الأبيض

المتوسط، ويمكن للمرء أن يقول: إن الحرب الحقيقية سرعان ما اندلعت عقب سقوط بانتلاريا، وكان الهدف من حرب الساحل الأفريقي هو تحاشي هذه الفرضية وإجباطها، وفي مثل هذه الأوضاع كان مألوفاً أن تتوحد كل الاتجاهات الفكرية والرسمية أو غيرها في مخاصمتها لنا، أو بالأحرى عدائها لنا خفية أو بصورة علنية.

كان الخطاب اعتذارياً وتبريرياً وتفسيرياً للسقطات التي أدت إلى انهيار إمبراطورية إيطاليا.

كان الدوتشى يتحدث بطلاقة وإسهاب رغم الآلام المبرحة التي داهمته، وبدا يعرض على نواجذه من فرط قسوتها وشدتها، وقد خيم الصمت على القاعة ولاذ الجميع بالسكوت خوفاً وأملاً، حيث خشي البعض غضبه وتطلع أغلبهم إلى قرار شجاع وحكيم يشير إلى اعتزامه التنحي عن السلطة، ونقل جميع صلاحياته إلى قادة المجلس الأعلى ليتخذ قراره المناسب لإدارة الأزمة.

لكن نظرات البعض لم تكن تخلو من استخفاف مما يقول، فكانت العيون كاشفة وفاضحة، الأمر الذي دفع الدوتشى للقول دفاعاً عن نفسه: هلا علمتم أنني كنت وسأظل أرغب في استلام القيادة العليا للقوات المحاربة في ميدان المعركة، تلك المهمة التي حملتها على كاهلي بإلحاح من المارشال بادوليو. . . وأذكر أنني عندما أصبت بوعكة صحية في أكتوبر عام ١٩٤٢ قررت أن أتخلى عن مهام القيادة، لولا أنني تصورت أن من الحماسة أن أتخلى عنها في هذا الوقت بالتحديد الذي كانت تمنح يميناً تارة ويساراً تارة أخرى بفعل عواصف هوجاء هبت عليها من كل ناحية، ومن ثم كنت قد اتخذت قراراً هاماً بالمضي

قدما فى قيادة السفينة ريثما تنجلي شمس نهار جديد من بين عتمة الليل وظلمته السوداء، وهى اللحظة التى لم تأت بعد.

وأنهى خطابه الطويل والختامى لحقبة قائلاً: واجبنا أن نقر ونشير إلى أهمية القول بقدر هائل من الوفاء والإخلاص بأن أصدقاءنا الألمان عاملونا دوما بروح عالية لا تخلو من الكرم والتقدير والاحترام.

وأضاف قائلاً فى ختام كلمته التى وجهها للحضور: إن المشكلة الكبرى التى تواجهنا الآن هى التقرير بين الحرب والصلح، أو بين الاستسلام والمقاومة حتى النهاية.

كان الخطاب مفعما باليأس زاخراً بالمعاناة والبؤس، حتى أن الحاضرين قد اعتبروه وثيقة تنازل قدمها الدوتشى بملء إرادته، وأن شمس حانت للمغيب بعد وهج وإشراق استمر أكثر من عشرين عاماً.

كان الخطاب بابا ملكياً لعبور موجة هائلة من النقد واللوم للدوتشى للمرة الأولى منذ أن تولى مقاليد السلطة حيث تجلّى أعضاء المجلس الأعلى وفى طبيعتهم جراندى الذى بادر قائلاً فى شجاعة نادرة ومؤجلة موجهاً حديثه للدوتشى الذى كان كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة ولا يقوى على الرد والصد والصياح كما كان معتاداً، ومما قال (جراندى) بالحرف: إنك يا سيدى الدوتشى فرضت سياستك الديكتاتورية على إيطاليا كلها، حتى إنك كنت قد أمسكت بيدك مفاتيح السلطة فى الوزارات الثلاثة المرتبطة بالقوات المسلحة.. ولكن ما الذى أنجزته؟ ما الذى أحرزته؟ لقد كسرت إرادة قواتنا المسلحة، وحطمت روح رجالها القتالية، وقد أدخلتنا جميعاً زنازين بحجم إيطاليا نرتدى قمصاناً سوداء

حداداً على ماذا؟ على سجننا وإذلالنا وامتهان كرامتنا؟ أى غاية كنت تقصدها من وراء هذا القميص الملعون؟ لقد مضت الأيام وتوالت الشهور ودارت السنوات وأنت تختار من هم أسوأ وأبشع وأحط أنواع البشر.

وراح عدد من الحضور يتحدث فى تلك اللحظة التاريخية التى يتحدد خلالها مصير إيطاليا ومستقبل الدوتشى، وكلها لا تخلو من اتهامات قاسية وحادة جاءت فى ساعة متأخرة من الليل ومن حكم موسولبنى، وكان جيتنانو بولفيريللى وزير الثقافة الشعبية وكارلو البرتو بييجنى وزير التربية، وأنطونيو ترينجالى كازانوف رئيس المحكمة الفاشية وايتزوجالياتى رئيس أركان الحرس الفاشى، وتشيانو وزير الخارجية، ولوحظ خلال تلك الجلسة أن الدوتشى بدا قزماً متقوقعاً مسلوب الإرادة فى صورة أسطورية يتعذر على العقل إدراكها وقبولها حتى خيل للحضور أن الصرح العملاق يتهاوى شيئاً فشيئاً، وربما جاءت الكلمة التى ألقاها جالياتى بمثابة قبلة الحياة التى أنعشت الدوتشى، ولا سيما حين صاح على طريقة الدوتشى قائلاً بصوت عال: إن الشعب الإيطالى بأسره يلتف حولك يا أيها الدوتشى وقد اتحدوا فى تأييدك أنت دون سواك.

ولأن كلمة تشيانو مثلت طعنة غادرة فى ظهر وقلب الدوتشى فقد كانت مرارته منه بوصفه زوج ابنته كما يقول الشاعر: وظلم ذوى القربى أشد مضاضة وهو ما اضطر معه لأن يعاود الدوتشى الكلمة مرة أخرى مدفوعاً بالكلمة الرائعة التى ألقاها جالياتى والأبناء السيئة التى وردت حول النوايا الشريرة التى يضمورها له تشيانو زوج ابنته واعتزاه تولى الخلافة، فضلاً عن

رغبته فى تنفيذ آراء المتحدثين ، وقد انبرى الدوتشى قائلاً فى حدة وغضب وهو ينظر إلى زوج ابنته تشيانو: من عادة المرء أن يغفل فى خضم تلك الأحداث تلك الاتهامات التى يوجهها إلى شخص بوصفى الحاكم الفعلى لهذا العهد. . . ولعل التهمة الشائعة التى تتلوها دون كلل أو ملل السنة أبناء الشعب هذه الثروات الخيالية التى جمعها أغلبكم ثم راح ينظر شذراً إلى تشيانو، ثم صاح زاعقاً بقول: أنت بالطبع ستكون على رأس هذا الطابور. ثم عاد يحملق غاضباً فى عيون الحاضرين متوعداً أو مهدداً: ولدى هنا من الأدلة والبراهين ما يكفى لإرسالكم جميعاً إلى المشنقة.

وما من شك أن تهديد الدوتشى قد أدى إلى إحداث فوضى شملت القاعة، وبات الاجتماع مهدداً بالفشل، حيث انقسمت إلى فريقين: أحدهما ينادى ببقاء الدوتش يتحمل المسئولية فى تلك الظروف الراهنة، فيما كان الفريق الآخر ينادى بإعفاء الدوتشى من جميع مناصبه، وعزله حقناً للدماء وانقاداً للبلاد وتجنباً للخراب. . .

ولما لاحظ موسولينى غلبة الفريق المناهض لبقائه راح يقول فى محاولة أخيرة: اسمعونى أيها السادة. . . اسمعونى جيداً، إذا أنتم تخلصتم منى. . . فسأظل أكنم فى نفسى نوعية السلاح السرى القادر على إنهاء الحرب، وينبغى أن تتأكدوا إذا حققتم ما أردتموه فسوف تفقدون فى وقت واحد النصر وأنا ورقابكم.

ودارت مشاحنات عنيفة وكلمات أشبه بلكمات ولطمات بين الجميع، بيد أن دينو جراندى قد نهض قائلاً: إننى أستم فى حديث الدوتشى شيئاً ما من

البلطجة والتهديد، أليس كذلك يا سادة؟ فصاح مؤيدوه نعم... نعم، هذا صحيح.

وفعاد جراندى يقول: إذن ماذا تنتظرون، إننى تقدمت بمشروع الرئيس المجلس الأعلى وأرجو منكم تأييده وتمريضه لإنقاذ إيطاليا... إن مشروعى يا سادة يدعو بصورة عاجلة وفورية إلى عودة أجهزة الدولة للإسكاف بزماف أمورفا كما كانت من قبل، كما يدعو أيضاً إلى أأقية الملك والمجلس الأعلى والحكومة والبرلمان والاتحادات المهنية فى استعادة كافة صلاأياتها المفقودة وجميع واجباتها المقررة لها بموجب الدستور والقوانين الأساسية.

كما أن المشروع يا سادة يدعو رئيس الحكومة إلى مطالبة حضرة ملك البلاد الذى توليه قلوب الأمة جمعاء بالثقة والولاء أن يتولى إذا أراد ورغب للحفاظ على كرامة الأمة والعمل على إنقاذها بقدر ما هو ممكن ومستطاع، وعلى أن يتولى أيضاً قيادة القوات المسلحة متمتعا بكافة الصلاأيات الواجب توظيفها عند اتخاذ ما يلزم من قرارات، وهو حق تملفه علينا قوانين البلاد، وهو تقليد عريق لا أظنه حديث العهد بنا، ولتبقى بلادنا حرة أبية، ولتبقى العزة، وليظل المجد مرفوقاً دوماً على قصور آل سافوى العظيمة.

وفى ختام كلمته التى ألقاها حول بنود مشروعه لاقى جراندى حفاوة بالغة حتى أن الدوتشى نفسه نهض قائلاً: لقد بلغت الساعة الثالثة صباحاً الآن وها هو جدالنا العقيم يطول دون جدوى، حتى أننى أرى أن الإعياء قد استبد بكم ولم ستمنى منكم أحد ومن كم دعوتى أطرح عليكم ثلاثة اقتراحات وإن

كنت أرى من جانبى أن أقترح جراندى ينبغى أن يحظى بالأولوية والقبول، لكن الأمانة تقتضى أن أعرض عليكم ما لدى دون مجاملة. وراح يملأ اقتراحاته الأخرى، بيد أن مشروع جراندى كان قد حظى على ١٩ صوتاً من مجموع ٢٨ صوتاً هم عدد أعضاء المجلس الأعلى.

وعلى أثر ذلك غادر موسولينى القاعة وهو يقول بثقة: إن إنجلترا والولايات المتحدة لا يرغبان فى التخلص فحسب، لكنهما يريدان تدمير إيطاليا أيضاً. . ولن يستطيع أحد غيرى إلحاق الهزيمة بهم، أو أن يعقد صلحاً معهم، بل ما سوف يحدث بدونى إنما هو ذل ومهانة وعبودية.

عاد موسولينى إلى بيته يجر أذيال الهزائم المتنوعة والمتكررة وهو لا يقوى على أن يتأمل وجه ابنته راشيل المضطرب وعيون زوجته الدامعة، وقد أشار عليهم بالاستعداد للرحيل إلى بيتهم الريفى بعيداً عن تلك الأجواء الملتهبة، وهو ما دفع ابنته راشيل لتصرخ فى وجهه ماذا تقول يا أبى. . ألم تصدر قراراً باعتقالهم جميعاً؟ مفاجأها قائلاً: كلا يا راشيل فلم تعد لقراراتى قيمة بينهم!! لكنى بصدد أن ألقى القبض عليهم جميعاً، تأكدى سوف أفعل ذلك.

دارت كل هذه الأحداث الدامية فى ليلة ٢٤ يوليو ١٩٤٣، وفى مساء هذه الليلة تلقى موسولينى برقية عاجلة من ديوان قصر آل سافوى تدعوه إلى زيارة الملك للتباحث فى شئون الحكم، وما يجب اتخاذه من قرارات المرحلة الدقيقة والحرجة.

ولأن الأجواء كانت ساخنة وملتهبة فقد ساورت زوجته الهواجس، وراودت

ابته راشيل طاحونة من الشكوك، وراحت الابنة والزوجة تتوسلان إليه ألا يلبي تلك الدعوة خوفاً من أن يكون الملك قد أعد له مؤامرة الإطاحة به واعتقاله أو اغتياله.

لكن بنيتو موسولينى ما زال على يقينه وإيمانه بولاء الملك ولا تزال كلماته ترن فى مسامعه وتلح على خاطره . . ألم يهمس الملك فى أذنه قائلاً: أعتقد أنك تعيش يا دوتشى أياماً مفرعة، ولكن بمقدورك أن تثق فى وتطمئن إلى . . ومن الحماسة أن تتصور أن جميع الناس سيتركونك وحيداً بمفردك أو يقفون من حولك مكتوفى الأيدي رغم ما قدمته لبلادنا العظيمة . . على أية حال اطمئن يا عزيزى الدوتشى أنا معك قلباً وقالباً . . ولن أتخلى عنك قط، وإذا تخلى عنك الجميع فساكون أنا آخر من يفعل ذلك!

لكن لا يزال البعض يطالب ببقائى، ومن ثم لن يتخلى عنى الملك . . . هكذا كان لسان حال الدوتشى وهو يتجاذب أطراف الحديث مع ابته وزوجته. كانت التعليمات تشير إلى الامتناع عن ارتداء الثياب العسكرية، وألا يتأخر عن الساعة الخامسة عصراً، وألا يصطحب أحداً من رجاله باستثناء سكرتيه الخاص فقط.

ورغم ذلك كان الأمل يحدوه والثقة تستولى على نفسه، على عكس المحيطين به أولئك الذين لم يتخلوا عنه بعد.

كان الملك فى تلك الأثناء قد اتخذ قراراً يقضى بتنصيب المارشال رئيساً للحكومة لا سيما وأنه اشتهر بكفاءته القتالية وعدائه للفاشية، الأمر الذى أزعج

جراندى، ذاك الذى كان يأمل فى استخلاف الدوتشى موسولينى، بيد أن مساعيه وجهوده قد باءت بالفشل.

وفى الساعة الرابعة وأربعين دقيقة انطلقت سيارة الدوتشى إلى مجهول ينتظر قدومه داخل دهاليز قصر آل سافوى لمقابلة الملك الذى وعد وعاهد، ومن يأمن للملوك وعودهم كمن ينكر على التعالب مكرها، وعلى الذئاب غدرها، وعلى الأسود بأسها وعلى الجرذان جنبها فى تلك الأثناء كان الملك يتنزه فى حديقة القصر الملكى بصحبة بعض من رجال الحاشية مرتديا ثيابا عسكرية، وقد أصدر أوامره قبل مجيء الدوتشى بالاعتقال عقب انتهاء المقابلة.

كان الملك يبدو لناظريه مبتهجا سعيداً متألّقا بما لا ينسجم مع الأجواء التى تشهدا البلاد، وسرعان ما اصطحب الملك ضيفه الدوتشى، ومضى به داخل البهو، وقد شرع موسولينى فى عرض تقريره الشفهى حول جلسة الأمس التى كان أحد أبطالها داخل المجلس الأعلى، وحاول الدوتشى التهوين مما جرى داخل الجلسة فى محاولة منه للتأثير على الملك وإقناعه بأن قرارات المجلس الأعلى واقتراحاته غير ملزمة، وهو ما دفع بالملك ليخبره بأنه على العكس من ذلك يحترم ويقدر ويتمشى بجميع قرارات هذا المجلس، ثم انبرى الملك يقول: إن الأمور تتدهور من سيئ إلى أسوأ، وإن الخراب عم البلاد، والجنود لم يعد فى وسعهم وضع أصابعهم على زناد بنادقهم حيث اليأس يعصف بهم..

وكثيراً ما سمعتم بأذنى يتغنون فى أسى: ليسقط الدوتشى قاتل الجنود.
كانت كلمات الملك المطرقة التى هوت على رأس الدوتشى وكأنه لا يزال
داخل قاعة المجلس الأعلى ينصت على غير هوى للانتقادات العنيفة، لكن
بنيتو الذى كان يثق فى إخلاص الملك صاح قائلاً: لكنك وعدتني ألا تتخلى
عني ولو كانوا قد تخلوا عني جميعاً؟

فإذا بالملك يقول وهو يربت على كتفيه: نعم لكن واجبك ألا تشك لحظة
فى حقيقة مشاعر الشعب الإيطالى نحوك، فأنت ربما لا تعرف أنك الرجل
الأوحد الذى أجمعت إيطاليا كلها على كراهيته.. لكن أنا فقط سأظل
صديقك الذى يحفظ صداقتك، ومن ثم دعني أقول لك: لا تخشى شيئاً على
حياتك سأضمن لك للحماية، لكن الواقع يا عزيزي بنيتو أنني قد أصدرت
مرسوماً ملكياً يقضى بتعيين المارشال (بادوليو) رئيساً للحكومة خلقاً لك. وهى
العبارة التى نزلت على الدوتشى كالصاعقة فأفقدته صوابه حتى خر على أحد
المقاعد لا يقوى على الوقوف أن اصفر لونه وتصيب وجهه عرقاً من فرط
دهشته وقد قال للملك: إذن انتهى كل شئ.. انتهى كل شئ، أجل لقد
انتهى كل شئ.

ثم سرعان ما استرد عافيته ونهض من مقعده مجففاً عرقه الغزير ليقول
للملك بعد أن انتصبت قامته واستدعى أعصابه واستجمع قواه: إذا كنت يا
جلالة الملك على حق فيما أخبرتنى به.. فيوسعى الآن أن أبادر بأن أقدم لك
استقالتي.

فما كان من الملك سوى أن أجابه قائلاً: وأنا قبلتها دون شروط!!

ويبدو أن الدوتشى إراد طرح استقالته تجنباً لملاحقته قانونياً، وحتى يجاهر أمام الجميع بأنه هو الذى تطوع من تلقاء نفسه بالتحدى، ومن ثم لا محل لمسأله أو محاكمته وهى الأمنية التى اصطدمت بصخرة العناد الصلبة.

بيد أن موسولينى عاد يقول لجلالة الملك: لاحظ يا جلالة ملك البلاد أنك تتخذ قراراً خطيراً، حيث إن المرحلة الراهنة ستجعل الشعب يعتقد أن الصلح مع الحلفاء على الأبواب .. لأن الرجل الذى أطلق نفيى الحرب قد أقيل من منصبه، ومن ثم سوف تكون الصدمة التى ستصيب معنويات رجال الجيش مرعبة وخطيرة، وستعتبر الأزمة انتصاراً ساحقاً لأعدائنا.. على أى حال، فانا أرجو لمن يخلفنى أن يحالفه التوفيق.

وتصافح الرجلان بحرارة كانت أشبه بحرارة المناخ الساخن داخل بهو قصر سافوى ثم كان أن غادر الدوتشى البهو متوجهاً إلى درجات السلم الرئيسى قاصداً سيارته، فإذا بآخر ضباط الجيش يتقدم منه وقد أدى التحية العسكرية، وقد طالبه باصطحابه إلى سيارة إسعاف كانت فى انتظاره فأدرك الدوتشى أنه بات رهن الاعتقال، فتناهى لمسامع ذاكرته توصلات زوجته ومناشدات ابته، فاتضح له مدى سذاجته لشقته بملك لا يوفى بما يتعهد به، وهو الذى ظن به خيراً.

التزم موسولينى الصمت ولبى أوامر حراسه الجدد المدججين بالسلاح، وثارى فى رأسه هواجس عنيفة وهو يتساءل فى دهشة: ماذا يجرى بالضبط ومن هؤلاء الرجال المدججين بالسلاح.

الفصل الأخير

نهاية موسولينى

لقد كان الخامس والعشرون من يوليو ١٩٤٣ يوماً عصياً ورهيباً وكثيباً، وربما كان أسوأ أيام الدوتشى حتى الآن، لا سيما وأن الرجل كان مفرطاً فى الأمل مسرفاً فى التفاؤل، لا يخالجه الشك فى ولاء الذين من حوله على اعتبار أنهم كانوا قد أقنعوه بملء إرادتهم أنه الإله والأب والأسطورة والإعجاز الذى يمشى على قدمين .

نهايته . . كان الدوتشى قد قفز برشاقة مصطنعة إلى داخل سيارة الإسعاف على أمل أن السيارة وحملة الأسلحة إنما هى لحمايته، وإن تنازعته الهواجس من أنه ربما يكون فى طريقه إلى مكان مجهول يسدل الستار على حقبة امتدت أكثر من عشرين عاماً.

وبعد أن قطعت السيارة مسافة زمنية لا تقل عن نصف ساعة هبط الدوتشى فى فناء معسكر الكارينيرى فى منطقة (كوييتينو سيلا)، وقاده قائد الحرس فى أدب جم إلى مكتب القائد، وقد فوجئ بأن المكتب خاو من المسئولين، وقد أشار عليه قائد الحرس بأن هناك غرفة ملحقة بالمكتب تشتمل على مكتب وأوراق بيضاء ربما رغب فى تسجيل خواطره ويوميياته إلى جانب فراش مجهز خصيصاً له لكى يحظى بقسط وافر من ساعات نوم هادئة.

وهنا فقط أسقط فى يد الدوتشى الذى أدرك أنه بالفعل كما ظن فى بادئ الأمر رهين الاعتقال، وأن الآمال التى راودته بأن السيارة وحراسها جاءوا

لحمايته قد كانت ذلك ضرباً من الأوهام، وإسرافاً وتبذيراً فى التفاؤل الذى لم يكن مشوباً بالحذر.

لكن موسولينى لاذ بالهدوء وتحلى بالصبر على هذا البلاء، بيد أن وجهه قد بدا كمن بات على مشارف الموت مما أثار مخاوف قائد حرسه الذى هرول لإحضار طبيب الثكنة العسكرية، وقد تولى إجراء فحوصات عاجلة أوضحت أن الدوتشى يشكو هبوطاً حاداً فى الدورة الدموية، من جانبه أصر الطبيب على تزويده ببعض الأقراص لضبط الدورة الدموية وتنظيم ضربات القلب، ثم سرعان ما استرد حيويته بعد لحظات كاد يلفظ خلالها أنفاسه الأخيرة.

وغاص الدوتشى فى سبات عميق كأنه لا يريد أن يفتح عينيه ليرى ما لا يمكن له أن يتصوره أو يتوقعه فى أسوأ سيناريو صاغه أكثر الناس تشاؤماً وتبرماً.

لكن الواقع أن الدوتشى لم يعد هو الشيفالييه بنيتو موسولينى، أو الحاكم الزعيم، بل أصبح المتهم السجين، وها هى شوارع روما تتزاحم بالجماهير الغفيرة التى خرجت على بكرة أبيها لتأكد من صدق الشائعات التى راجت حول هروب الدوتشى إلى برلين، وأن هناك من يخلفه لحكم البلاد بموجب مرسوم ملكى صدر فى ساعة مبكرة.

كانت الأنباء غير مؤكدة، ومن ثم اقتصر الحشود الشعبية على مجرد الاستفسار عن مصير الدوتشى ومستقبل الوطن، وظلت التساؤلات والشائعات والأقاويل والأكاذيب والأباطيل تدور بين شوارع روما، وتسرى فى ربوعها

سرى النار فى الهشيم حتى ضاق الناس ذرعاً بالأمر، مما اضطر جموع المواطنين للتوجه مباشرة إلى القصر الملكى ريثما يصدر القصر بياناً ينهى عذابات الناس ويقضى على ظنونهم وهواجسهم.

وعلى أثر الازدحام الرهيب والتدفق المخيف حول أسوار قصر آك سافوى راح الملك يأمر معاونيه بإصدار بيان للشعب يعلن فيه المرسوم الملكى الصادر فجر اليوم.

وتلى مندوب الملك البيان الملكى الذى أكد أن جلالة الملك قبل ليلة أمس استقالة فخامة الدوتشى بنيتو موسولينى من رئاسة الحكومة الإيطالية، ومن السكرتارية العامة للدولة، واختار جلالة الملك خلفاً له المارشال الشيفالييه بيترو بادوليو.

وما أن أنهى المندوب الملكى تلاوة بيانه الذى أذيع عبر الإذاعة حتى انفجرت صياحات الجماهير، وعلت هتافاتهم كالبركان وكالإعصار، كالطوفان، حيث انطلقت جموعهم لتكسير وتخطيم وإزالة وحرق صور الدوتشى وتمائيله وشعاراته التى زينت بها الشوارع والميادين، كما أضرموا النيران فى مقر الحزب الفاشى حتى طالت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان عنان السماء، كما أن المتعصبين منهم راحوا يتقمون من أعضاء الحزب وذوى القمصان السوداء الذين كانوا قد أشاعوا الرعب والفرع فى صفوف الشعب، وقد حانت اللحظة للتخلص منهم.

كانت الحرائق تشتعل فى كل صورة أو رمز أو علم أو سارى أو عمود يتزين بأية شعارات فاشية وتتصدرها صور الدوتشى.

وبلغ الأمر بالجماهير أن طالبت برأس الدوتشى لفصلها عن جسده،
وراحت الجماهير تهتف بأعلى الصرخات: ليذهب الدوتشى إلى الجحيم، أين
أنت؟ أين الخائن؟ أين أنت يا عميل النازية الموت لذيل الفوهرر الموت
للدوتشى . . . الموت للدوتشى.

وبينما كانت حلقات الرقص وحفلات الغناء تعم أرجاء إيطاليا كان الدوتشى
يتفحص رسالة بعث بها إليه الشيفالييه بنيتو موسولينى حيث أكد له فيها ما نصه:
(إلى فخامة المارشال بيترو بادوليو . . . يود رئيس الحكومة الذى ذيل هذه
الرسالة بتوقيعه أن يؤكد لفخامتك أن الإجراءات والتدابير التى اتخذت كانت
تهدف فى الأساس إلى توفير الحماية لكم وتأمين حياتكم، وهو يحرص على
التأكيد لفخامتك بأن تصحبك حراسة كافية وأمنية للمكان الذى ترغبه)
تفضلوا مع وافر الاحترام

التوقيع: رئيس الحكومة

المارشال بيترو بادوليو

وطوى الدوتشى ورقة الخطاب وأشار فى صلف إلى مبعوث رئيس الحكومة
بادوليو لإحضار ورقة وقلم لكتابة ما سوف يمليه عليه، وجاء فى رده ٢٦ يوليو
١٩٤٣ - الساعة الواحدة صباحاً:

بادئ ذى بدء، أتوجه بعظيم الشكر للمارشال بادوليو لحرصه الشديد على
توفير الحماية لسلامتى . . والحقيقة أن المسكن الوحيد الموجود الآن تحت
تصرفى هو (روكاديل كاميناتى) وإننى على استعداد لأن أذهب إليه فى الوقت

الذى ترونه مناسباً.. كما أنى أرغب فى التأكيد للمارشال بادوليو متذكراً
 عملنا معاً فى الأيام الماضية أنه لن يواجه أية متاعب تصدر من جانبى، حيث
 إنى سأتعاون معه فى جميع القطاعات ثم دعنى أؤكد لكم كم أنا سعيد
 لاتخاذكم القرار بالمضى قدما فى طريق الحرب لمشاركة حلفائنا، لأن كرامة
 الأمة تستدعى ذلك، وإنى لأرجو من مكنونات فؤادى أن تتكفل أعمالكم
 الخطيرة بالنجاح الذى تحمل المارشال بادليو مهامه، وليوفقه الله، وإنى أتوجه
 بالشكر لصاحب الجلالة ملك البلاد الذى يتحمل معنا أعباء البلاد، وهو الذى
 كنت خادمه الأمين طوال عشرين عاماً، وسوف أبقى كذلك ما دام فى
 صدرى قلب ينبض بالحياة.

التوقيع

عاشت إيطاليا.. موسوليني

وفى صباح اليوم التالى اقتيد الدوتشى السجين إلى سيارة سوداء برفقة
 البريجادير بوليتو قائد قوات الشرطة العسكرية، وانطلقت السيارة بسرعة جنونية
 تتقدمها دراجة بخارية لتهيئة وتأمين الطريق ثم بعد بضع ساعات توقفت به فى
 منطقة تسمى جايتا للعيش داخل إحدى قلاعها الشهيرة، تلك التى احتضنت
 من قبل البابا لويس التاسع الذى لجأ إليها عام ١٨٤٨، وآن مازيتى البطل
 التاريخى العظيم قد سجن بداخلها عام ١٨٧٠، لكن هذا تعارض تماماً مع ما
 ذكره من رغبته فى الإقامة فى (روكاديل كاميناتى)، وهى الرغبة التى تبدلت
 دون مشورته، لكنها دائرة الأيام وغدر الزمان الذى لا يبقى على حال من

يصدق أن الدوتشى يعيش على غير ما يهوى، وينام على غير ما يرغب، ويأكل على غير ما يشتهى، ويضحك مجاملاً، ويبكى نادماً، فما أقسى هذه اللحظة، على أية حال لم تكن هذه القلعة هى ملاذ الأخير كما ظن، لكنها كانت محطة انتقالية لحين توفير زورق بحرى ينقله إلى جزيرة بونزا.

لكن موسولينى لم يكن راضياً عن مستوى المعاملة رغم ما ورد من تأكيدات وتطمينات فى رسالة بادليو، ومن ثم ثار هائجاً أمام قائد الشرطة، وأبلغه أنه يتعرض لمعاملة غير لائقة بمكانته التاريخية، وأن واجبه يحتم عليه أن يبلغ رئيس الحكومة بتدهور الأوضاع... أما لماذا صاح الدوتشى هكذا ثائراً فقد لاحظ أن الأهالى قد تجمعت لرؤيته فضلاً عن أن أحداً لا يجيب على تساؤلاته باستثناء الاسهاب فى الحديث مع قائد حرسه حول مغامرات قائد الحرس وعملياته التى كانت أهم مسوغات ترقيته وتدرج مناصبه!

ثم حين استقر الزورق البحرى على ساحل سانتا ماريا انتفض كالأسد المصور يحذر من مغبة هذه الأساليب، مهدداً بأن لهذه التصرفات انعكاسات مستقبلية خطيرة لا سيما وأن الصداقة العميقة التى تربطه بالفوهرر أدولف هتلر قد تدفع هتلر لمساعدته على نحو أو آخر؟!!

وبالطبع كان للعبارة الأخيرة وقع غريب على مسامع القائد الذى ابتسم كمن يسخر مما يقوله رجل أصابه مس الجنون، حيث أن الفوهرر الذى غاص فى مستنقع الحرب ما كان ليبحث عن صديقه الذى خذله وأحبط مخططاته بفشله الذريع.

أما الدار التى نزل بها داخل الجزيرة فقد كانت أشبه بالسجن، وربما أحس الدوتشى خلال إلقاء النظرة الأولى عليها أنه بالفعل بات سجيناً، حيث كان المكان لا يخلو من القذارة والروائح العفنة والأثاث الحقير والمفروشات البالية.

وفى صباح اليوم التالى الموافق التاسع والعشرين من يوليو الموافق لعيد ميلاده أقبل بعض صيادى الجزيرة لتهنئته وتسريته عبر إهدائه ما يسمى بسرطان البحر أبو جلمبو، فضلاً عن حبات الفاكهة الطازجة بغرض التخفيف عنه.

وفى هذا البيت القذر بدأ موسولينى يومه بالاستيقاظ المبكر فى الساعة صباحاً ليتناول الإفطار الذى يتكون من كوب حليب وبيضة واحدة، فيما يتناول عند الغداء بعض شرائح الطماطم، وإلى جانبه بيضة واحدة وثمره فاكهة ورغيف من الخبز، أما فى العشاء فقد كان يكتفى بتناول قدح واحد من الحليب، ويقضى طوال النهار فى تسجيل خواطره ويوميته ليصف مأساته التى أرجعته مخلصاً إلى المسيحية التى كان يستخف بها، فضلاً عن تفكيره العميق فى مصيره وما يريده أولئك الأوغاد الذين دبروا له هذه المؤامرة فى ليل.

وبعد مرور سبعة أيام على وجوده داخل هذه الجزيرة التى تكاد تخلو من مقومات الحياة سقط الدوتشى مغشياً عليه، وقد أحضروا طبيباً على جناح السرعة لفحصه ومتابعته وعلاجه، حتى تماثل للشفاء، ولم تمض خمسة أيام على تماثله للشفاء حتى تلقى أمراً بالتأهب لترحيله من الجزيرة إلى مكان آخر.

وفى فجر آخر تلك الأيام وجد الدوتشى نفسه محاطاً بحراسة مشددة لتقتاده إلى سفينة كانت راسية على صفحة مياه الجزيرة، وكانت تدعى السفينة (بانثيرى).

وانطلقت السفينة الحربية تمخر عباب البحر وهى تحمل على متنها الرجل الذى كان حديث أوروبا، ومعبود الجماهير الإيطالية، وزعيمها الأوحدها هو يتأمل صفحة المياه والأمواج اللاهشة والطيور الشاردة، حيث إنه كان أشبه بتلك الأمواج التى تجرى إلى مجهول لا تعرفه، وبالطيور المهاجرة التى لم تكن قد استقرت بعد على عش يأويها، والدوتشى لم يكن أوفر حظاً من تلك الطيور، فلم يكن قد استقر ونام قرير العين وما أبشع قسوة الحياة التى يعيشها المرء بعد نعومة وطراوة ورفاهية وراحة ونعيم.

كانت السفينة قد رست فى قاعدة مادالينا التى كانت موضع اختيار دقيق من جنرالات الجيش وقادة الحكومة الجديدة، بعد أن وردت أنباء تفيد بأن القوات الألمانية تخطط لفك سراحه عبر عملية عسكرية فدائية أمر بها الفوهرر أدولف هتلر صديق الدوتسى الوفى.

والحقيقة أن الفوهرر كان يعتصر ألماً ويتميز غيظاً من المصير الذى آل إليه صديقه ورفيقه فى النضال والقتال والكفاح والعداء للغرب، ومن ثم لم يألو جهداً فى إطلاق سراحه، إما عبر وساطة يقوم بها لدى الملك والحكومة، وإما بواسطة عملية عسكرية إذا فشلت مساعيه مع الملك وحكومته.

وبعد رحله بحرية طويلة وشاقة وجهيدة توجه الدوتشى إلى أحد البيوت الريفية بالقرب من مادالينا، تلك الجزيرة الواقعة شمال سردينيا، وقد كانت جزيرة خالية من السكان بعد أن تعرضت لغارة جوية إنجليزية عنيفة باستثناء عدد من الصيادين وبعض أفراد الجيش الإيطالى الذين هم خفر السواحل.

ورغم أن أثاث المنزل وجغرافيته أجمل من تلك الدار التي غادرها بالأمس بيد أنه أدرك أن المكان يتسم بالوحشة والفسوة والبرودة التي لم يعهدها من قبل فى أى من الأماكن التي قضى بها فسحة من الوقت .

وظل بها ثلاث أسابيع لا يغادر غرفته قط ، يقلب صفحات مجموعة من الكتب كانت السلطات قد سلمتها له كهدية بعث بها هتلر إليه لمؤانسة وحشته وتبديد وقته ، وتحطيم الملل الذى قد يتسرب إليه .

ومضى موسولينى على هذا النحو بضعة أيام حتى تلقى معلومات تشير إلى قرب نقله إلى مكان آخر ، حيث إن المخاطر تحيط به من كل جانب ، وفق ما تذرعت به الحكومة الجديدة .

وفى فجر الثامن والعشرين من أغسطس انتقل الدوتشى من داره إلى رصيف الميناء ليستقل طائرة بحرية ضمن طائرات الصليب الأحمر ، طارت به إلى بحيرة براسيانو ، ومنها استقل سيارة بصحبة حراسه ، اتجهت به إلى روما ثم جهة الشمال ، وعبرت جسراً يعلو نهر النير ثم سرعان ما انحنت جهة طريق سابين ، ومضت السيارة تشق طريقها الطويل حتى استقر بها الأمر فى مرتفع عمودى يبلغ ثلاثة آلاف قدم ، ليصل فى نهاية تلك الرحلة العسيرة إلى هضبة المعسكر الإمبراطورى ، وهى أعلى قمة فى قمم جبال الأبنين ، وترتفع مسافة تبلغ ٦٥٠٠ قدم أعلى سطح البحر ، وبمسافة عشرة أميال تحت قمة جبل كورنو .

وكان على هذه الهضبة فندق يتسم بالهدوء والروعة الجمالية ، ويسمى فندق (البرجو - ريفوجيو) .

وعلى عجل كانت مديرة الفندق فى انتظار قدوم الدوتشى الذى سىستقر
لحين تلقى تعليمات أخرى طارئة وعاجلة.

كانت السيدة بدورها تتلهف لرؤية الرجل الأسطورة الذى كان يلهب خيالها
وتترع حماسها بخطبه الرنانة وشعاراته الملهبة الساخنة، لكنها لاحظت أن
الرجل لم يعد هو الذى كان مثار إعجاب وانبهار الأمة، حيث بدا شاحباً
شارداً تائهاً.

وعاش داخل الطابق الثانى وسط حراسه وموظفى الفندق الذين كان
يدفعهم الفضول للتحدث إليه، وكثيراً ما شوهد شارد الذهن زائع النظرات
يتأمل تلك الصخرة الرائعة من نافذة غرفته، كأنه ينتظر شيئاً ما فى الأفق
البعيد.

وما من شك أن معنويات الدوتشى داخل الفندق كانت أسعد حالاً من
تلك الأماكن التى تردد عليها من قبل، لا سيما وأن السلطات الأمنية قد
سمحت له بالاستماع إلى الإذاعة، ورغم ذلك فقد لوحظ أن تدهوراً سيئاً قد
تعرض له، الأمر الذى أثار موجة من الذعر لدى حراسه خوفاً من أن يتخذ
قراراً سرياً ومباغتاً بالانتحار، ومن ثم تضاعفت الحراسة وتشدد أفرادها على
نحو غير مسبوق، ولم يكن مألوفاً بالطبع له، والحقيقة أن مديرة الفندق
وحراسه حاولوا التخفيف عنه بقدر الإمكان، حتى أنهم ناشدوه أن يلعب معهم
الكوتشينة ويتجاذب معهم أطراف الحديث كما كان حاله فى بدء مجيئه إلى
الفندق، واستجاب الدوتشى لدعواتهم وعاش بينهم.

ولأن موسولينى كان على موعد مع أحد الرعاة الأجلاف الذى أصر على دخول الفندق بغرض شراء زجاجة نبيذ بيد أن الحرس كان قد رفض إدخال الرجل، ولما علا صياح الراعى أمر موسولينى حرس الفندق بالسماح له بالدخول لانتهاء النزاع بينهما، وما أن دخل الراعى حتى راح يشن هجوماً لاذعاً على موسولينى واصفاً سياسته بالفاشلة والمخزية، حيث ارتكزت على فرض الضرائب على الفلاحين والرعاة، وما أن فرغ الرجل من تناول زجاجة النبيذ حتى نهض يربت على كتف الدوتشى قائلاً فى ثقة أثارت ذهول الجميع: حاول أن تحافظ على نفسك يا موسولينى، وأشكرك على زجاجة النبيذ: لكن موسولينى الذى كان يتميز غظياً من هجوم الرجل راح ينفجر ضاحكاً كأنه أصابه مس من الجنون، ولم يتوقف عن الضحك إلا حين ترمى لمسامعه عبر الإذاعة أن الحلفاء يشترطون تسليمه لوقف الهدنة.

بالطبع كاد موسولينى يسقط مغشياً عليه، وتحسس مسدسه بصورة عفوية، وأدرك أنه منزوع السلاح، ومن ثم أسرع إلى غرفته يبحث عن شفرة حلقة لقطع شرايين يده لكى يتخلص من هذا الشرط، حيث إن تسليمه إلى الحلفاء إذلال ومهانة لا يتحملهما قط، ولولا أن أسرع رجال الحرس إلى غرفته لكان آنذاك فى عداد الموتى.

وعلى الفور تخلص الحراس من كافة الأدوات التى قد يستخدمها فى الانتحار وراح قائد حرسه يربت على كتفه ويهدئ من ثورته وسخطه، وكأن لسان حال القائد يقول: لا يا دوتشى لن تسمح بتسليمك أبداً.

مضت الأيام واسترد الدوتشى عافيته، وبينما كان يقضى بعض الوقت ينظر بعيداً عبر نافذة غرفته، لاحظ أن طائرة تهبط على الصخرة المواجهة للفندق، ثم سرعان ما تبعها عدد من الطائرات، وفى أعقاب هذا المشهد المثير لمح فرقة من الجنود يندفعون من باطن الطائرة ومضوا نحو الفندق زاحفين.

وبينما كان موسولينى غارقاً فى تفسير ما يرى واستكشاف حقيقة الأمر فوجئ بقائد حرسه يصرخ قائلاً يا صاحب الفخافة.. إنهم الألمان، إنهم الألمان يا سيدى الدوتشى.

فى تلك الأثناء هبطت طائرة صغيرة أمام باب لفندق خرج من كايبتها ضابط شاب ألمانى يدعى النقيب أوتوسكورزىنى أبرز ضباط وحدة (فريد يتال) إحدى أقوى وحدات الحرس النازى، واندفع نحو الطابق الثانى وقد شاهد موسولينى يطل من النافذة، ثم سرعان ما أمره بالدخول إلى الغرفة لتجنب النيران.

ولبى الدوتشى أوامر الضابط الألمانى الذى أسرع إلى غرفته ليقول له بعد أن أدى له التحية العسكرية: سيدى الدوتشى.. لقد أمرنى الفوهرر أن أحضر إلى هنا لإحضارك، والقرار قرارك يا سيدى.

كانت المفاجأة قد ألحمت موسولينى بعض الوقت، حتى أن عينيه قد اغرورقت بالدموع، ثم وجد نفسه يرتمى فى أحضان لضابط قائلاً: كنت على يقين بأن صديقى الفوهرر سيفعل ذلك.

وعلى الفور أبدى الدوتشى رغبته فى الرحيل إلى أى مكان، واصطحبه الضابط الألمانى إلى الطائرة التى كانت مجهزة من أجله، وقد حرص على

مصافحة حراسه الإيطاليين الذين كانوا فى حالة من الذهول، ورغم الصعوبات التى واجهتها الطائرة فقد انطلقت جهة الجنوب الغربى نحو وادى أفيزانو.

وسرعان ما هبطت الطائرة فى مطار اسيرن بالعاصمة فيينا، ثم استقل سيارة توقفت به أمام فندق الكونتينتال قاصداً أحد أجنحته الفخمة ليقطع قسماً من الراحة بعد رحلة عناء طويلة منذ أن وقع كالفار فى مصيدة أعدائه.

وما أن دخل إلى الجناح حتى وجد أمامه الفوهرر أدولف هتلر يلقى عليه التحية النازية، فارتمى فى أحضانه شاكراً له مسعاه وحرصه وإطلاق سراحه رغم المخاطر العظيمة، وبعد حديث قصير تبادل الزعيمان غادر هتلر الجناح لكى يحظى الدوتشى بالراحة والنوم.

وفى الثالث عشر من سبتمبر ١٩٤٣ وعلى متن طائرة عسكرية طار الدوتشى إلى ميونخ ليفاجأ بوجود زوجته وابنته راشيل وأولادها ينتظرونه على سلم الطائرة، ودارت أحاديث طويلة حول الصعوبات التى واجهها فى الأيام المنصرمة التى كان فيها رهن الاعتقال.

كان الدوتشى يتحدث بثقة حيث استرد كبرياءه المسلوب، واستعاد حيويته وكأنه أمسك بزمام الأمور بيلاده، لكن عجز عن إخفاء كراهيته لقصر آل سافوى الذين خدعوه وشردوه، وكم تاق إلى إحراق هذا القصر للتخلص من الملك وأسرته.

وفى صباح الخامس من سبتمبر ١٩٤٣ كان الدوتشى على موعد مع الفوهرر أدولف هتلر فى بروسيا الشرقية.

وما أن التقى الزعيمان حتى أمسك أحدهما بيد الآخر احتفاء وامتناناً، ثم استقلا سيارة سوداء أقلتهما إلى إحدى القلاع ليتناولوا ما ينبغي عليهما القيام به بعد هذه التطورات، وفي بداية اللقاء بادر الفوهرر بسؤال موسوليني عما يعتزم القيام به، فإذا بالدوتشى يؤكد له رغبته فى اعتزال الحياة العامة، وهو ما أثار فزع الفوهرر، وانتفض غاضباً يلقي محاضرة زهاء ساعة كاملة يلح فيها على الدوتشى ضرورة العمل على عودته رئيساً للحكومة، والتخلص من الملك والخونة الذين غدروا به، ثم أضاف الفوهرر أن مصلحة ألمانيا فى تشكيل حكومة فاشية لتخويف الحلفاء، ولكى نبرهن لهم أن إيطاليا لم تتخلى عن ألمانيا، وأن قدرتهما على مواصلة الحرب ما زالت حية.

من جانبه اضطر الدوتشى الذى كان قد أصابه الوهن ولم يكن مقتنعاً بمحاضرة هتلر، بيد أنه تعذر عليه إفشال مخطط هتلر وهو الذى بادر بإنقاذ حياته وسعى لتوفير السلامة لجميع أفراد أسرته، الأمر الذى دفعه لقبول العرض صاغراً، إيماناً منه برد جميل هتلر.

كان هتلر قد استضاف موسوليني ثلاثة أيام يتبادلان خلالها المشروعات المستقبلية، وقد لاحظ هتلر أن موسوليني لم يعد هو ذلك الدوتشى صاحب الخطوة المليئة بالخيلاء، فقد لمح فى عيون الرجل مسحة من الحزن، وفى حديثه نبرة من اليأس، وهو ما حدا بالفوهرر لحثه على استعادة حماسه واسترداد قواه للانتقام ممن أذلوه.

وبنصيحة من جوبلز وزير دعاية هتلر توجه موسوليني إلى دار الإذاعة لبث كلمة إلى جمهور الشعب الإيطالى يدعوهم من خلالها لنصرته ومؤازرته ودعم

عودته لإحياء إيطاليا العظيمة، ولم تكن الكلمة مؤثرة بقدر ما كانت مدعاة لدهشة الإيطاليين الذين باغتهم أبناء هروبه حيث لم يعد من بينهم من يدرى إلى أين ستهي الحال بهذا الوطن المنكوب بزعمائه.

وما أن فرغ موسوليني من خطبته حتى بادر بإعلان تأسيس ميلاد الجمهورية الإيطالية الاشتراكية، وقد تضمن الإعلان بنود دستور الجمهورية الجديدة، وقد نص على تولى الدوتشى مقاليد السلطة العليا فى توجيه مسار الفاشية فى إيطاليا، علاوة على مسئوليته التنظيمية للحزب الفاشى، وأن يتقى بنفسه أفراد الحراسة ومحاكمة الانقلابيين الخونة.

وبعد أسبوعين عاد الدوتشى إلى مكانه الأثير، والذي كان متلهفاً للعيش به، حيث استقر وسط حراسة ألمانية شديدة بداره فى منطقة (روكاديل كاميناتى)، وقد استقبل بداخلها أعضاء حكومته الجدد الذين وقع اختياره عليهم من الفاشيين القدامى الذين تمسكوا بمبادئها، فى طليعتهم روبرتوفاريناتش وجيوفانى يريزيوسى وجيدو يوفاريتى جيدى وفيرناندو ميزاسوما.

وكان قد استقبل أحد الصحفيين الإيطاليين الأمعين فى مقر داره، حيث كانت علاقة قديمة تربطهما منذ طفولتهما، كما استضاف أيضاً صديقه الشيوعى (نيقولا بومباكى) الذى كان موسوليني لا يدخر جهداً فى مساعدته عندما تعرض لازمة حائقة كادت تعصف به وبأسرته، رغم ما كان بينه وبين موسوليني من عدااء، وقد حملها هذا الرجل فى نفسه وأثر دعم موسوليني حتى الرmq الأخير لعله يستطيع رد صنائع معروفه معه.

ومع توالى التحذيرات بسقوط روما على يد الحلفاء وانسحاب الألمان منها اضطر موسوليني إلى نقل مقر حكومته الوليدة إلى بلدة صغيرة تسمى حرجنانو التى تبعد عن سالو بضعة أميال.

وفى داره الجديدة قضى موسوليني حياته الكثيبة وسط حراسة ألمانية لا حصر لها.

ورغم أن ألمانيا كان لها الفضل فى إطلاق سراحه لكنه ضاق ذرعاً من تلك الحراسات المكثفة التى كانت تهدف إلى رصد تحركاته والتجسس على مكالماته ولقاءاته وأحاديثه.

وأمثالاً لأوامر هتلر جرت محاكمات الانقلابيين رغم أن الدوتشى لم يكن راضياً على ذلك، لكنها التدخلات الألمانية السافرة.

وبالفعل جرت وقائع المحاكمة العاجلة على الخونة بما فيهم تشيانو زوج ابنته إيلد التى توسلت وناشدت والدها العفو عنه بيد أن الدوتشى كان كثيراً ما يصرخ قائلاً: لو قدر لى أن أقتله بيدى لقتلته فهو خائن، وإيطاليا لا تغفر للخونة يا ابنتى.

وبعد عدة جلسات وجهت خلالها عريضة بالاتهامات لخمسة من أبرز الانقلابيين: اميليو دي بونو، وتوليو شيانيتى، وجيوفانى مارنيلى، ولوشيانو جوتاردى، وكارلوباريس، وتشيانو، وقد صدرت ضدهم أحكام تقضى بالإعدام رمياً بالرصاص.

وكعادة الشعوب التى تستظل بمظلة الديكتاتورية والحكم المستبد راحت جموع الشعب الإيطالى تخرج عن بكره أيها لتهتة الدوتشى على انتصاره على خصومه السياسيين وكانت الهتافات تعلو: يحا الدوتشى، أينما وصل، حتى الجدران والأعمدة والبنائات الحكومية والبيوت الأهلية، إنها عادة الشعوب المقهورة دائماً.

وكان موسولينى قد عاودته نوبة صحيان أحييت له كبرياءه وشعوره بالعزة فراح يصيح وسط الجماهير الغفيرة قائلاً فى صلف: لو لم ينجح الانقلاب لكنت الآن فى القاهرة أو فى قناة السويس، وهى أحلام كانت تراود موسولينى من حين لآخر، حيث كثيراً ما تطلع إلى احتلال القاهرة متى سنحت له الفرصة التى لم تأت أبداً.

وكان موسولينى يحاول جاهداً أن يستفسر ممن حوله عما سوف يكتبه المؤرخون عنه، وقد ردد ذلك خلال فترة اعتقاله، ولم يكن يحظى بجواب يشفى غليله، حيث كان يشعر فى نفسه أن التاريخ لن يرحمه، ولن يكون له شفعاً وسيقول حتماً: إنه الرجل الذى أحرق روما وهو يلقي خطبه الحماسية التى كان يستميل بها الجبناء وتنطلى على الدهماء.

ورغم زيارته للجبهة والميادين التى تكتظ بالجماهير فقد كان الدوتشى منكسراً مسكوناً بالحسرة والألم لا تفارقه تلك الأيام التى اقتيد فيها كالفار لا يقوى على الحراك والجدال، بل كان يستجدى سجانه، ويتعطف خليفته، لعله يحظى برضاه السامى.

ومن ثم عاش الدوتشى كأنه يندم على إطلاق سراحه متمنياً لو استمر الحال حتى يلفظ أنفاسه، أو كان يطلق الرصاص على رأسه قبل أن يقتاد إلى أماكن مجهولة بمؤامرة دبرها الملك الخائن.

وفى ذلك وصفت زوجته راشيل حالته المعنوية فى مذكراتها قائلة: وبمرور الأيام كان يزداد وجوماً وإمعاناً فى التفكير، وبات بمقدورى من الطريقة التى كان يتحدث إلى فيها بين الحين والآخر أن أستشعر معاناته من عذاب دائم من هذا الصراع المميت بين الإيطاليين وراء جبهة القتال... وكان يظل على وجومه وحيرته وشروود ذهنه، حتى وهو يتناول طعامه، وكثيراً ما أصغى إلى صامتاً وكنت أسمعه قاطعاً صمته بقوله: عم كنت تتحدثين؟!

وفى عام ١٩٤٤ كانت خلايا المقاومة السرية قد صعدت من حده نشاطها ضد الجنود الألمان المتمركزين فى إيطاليا، وكانت عصابات المقاومة متواجدة فى جميع أنحاء الشمال الإيطالى، وكانت ضرباتهم الموجعة تؤرق هتلر وتمنع نوم الدوتشى، لما لها من تأثير بالغ على معنويات الجنود الألمان، فضلاً عن انعكاساتها الخطيرة أيضاً على معنويات الدوتش نفسه.

كانت حركة المقاومة تتضمن عناصر شيوعية أشعلت جذوة حماسها، وكانوا يقفون وراء الاغتيالات وأعمال تخريبية، الأمر الذى دفع الدوتشى لشن حرب عسكرية ضد المقاومة لإجهاض مخططاتها الرامية لتأليب الشعب على الوجود الألمانى وعلى أركان نظامه الحاكم، وأمر الدوتشى أصحاب القمصان السوداء بحمل السلاح لمجابهة هؤلاء، لتدخل البلاد نفق حرب أهلية شهدت

حامات دم غزيرة، وسرعان ما أصدر قراراً يقضى بالإعدام الفوري حال القبض على أى عضو من أعضاء المقاومة السرية.

والواقع أن قرارات موسوليني لم تلق قبولاً، حيث خشى الشعب الألمانى من أن يطول أمد الحرب الأهلية التى قد لا تبقى ولا تذر، ومن ثم دعا القادة الشيوعيون إلى الإضراب العام لوقف الحرب الأهلية ودغدغة أعصاب الدوتش الذى بدا كالأبله لا يلبى سوى رغبات الفوهرر، ويطيع أوامر العسكريين الألمان ولو كانت على حساب أمته .

ورغم ذلك فقد كان الشعب الإيطالى يهتف للدوتشى ويصرخ متى رآه الأمر الذى كان يشير دهشة الدوتشى، وهو ما جرى بالفعل خلال زيارته إلى مدينة ميلان، حيث شقت الهتافات عنان السماء، وبدأ الدوتشى سعيداً أمام الجنود الألمان الذين أثارهم هذا الجنون الشعبى للدوتشى.

ومضت الأيام والدوتشى يتطلع إلى إمكانيه إحراز النصر على الحلفاء، لاسيما وأن بعض الوحدات الإيطالية قد أبليت بلاء حسناً فى معاركها ضد الحلفاء خلال الأسابيع الأخيرة مما أحيى الأمل فى نفوس الإيطاليين وعلى رأسهم الدوتشى.

وحيث إن الدوتشى لم يكن فى موضع تتوافر لديه من خلاله بيانات ومعلومات دقيقة حول حقيقة سير المعارك، أو أوضاع الجبهات، وظروف الألمان على وجه التحديد، فقد كانت الصورة لديه ضبابية ومشوشة لا يستطيع أن يستبين منها شيئاً سوى خزعبلات وأساطير يروجها الألمان لتحفيزه على الاستمرار والمضى قدما فى طريق الحرب.

لكن على الجانب الآخر كان القادة العسكريون الألمان يتفاوضون سراً مع الحلفاء على استسلام الجيوش الألمانية فى إيطاليا، وكان رئيس أساقفة ميلان الكاردينال ايدلفونسو شوستر يحمل على كاهله أعباء تلك الوساطة لما اشتهر به من حكمة وعقلانية ورصانة وموضوعية.

ومضت المباحثات دون توقف حتى كللت بالنجاح فى نهاية المطاف، حيث إن الوحدات الألمانية كانت قد تلقت أوامر سرية بالانسحاب فى السادس من أبريل ١٩٤٥ فى الوقت الذى كان الجنرال الألمانى فينجوف يبذل قصارى جهده لإقناع الدوتشى بأن هذه الأوامر مجرد خديعة كبرى للحلفاء، وذلك رداً على استفسارات الدوتش الذى ترامت لمسامعه فى الآونة الأخيرة أنباء تفيد بنجاح المفاوضات السرية بين الجانبين، والتي جرت وقائعها فى إحدى المدن السويسرية.

على إثر ذلك ورغم المقاومة الإيطالية العنيفة ضد الحلفاء فقد أدرك موسولبنى أن الأمور على وشك أن تفلت مرة أخرى من بين يديه، وأن شبح السجن عاد يراوده، لا سيما وأن الغلبة باتت جلية لجيوش الحلفاء، وأن الألمان تتدهور أوضاعهم، ومقاومتهم العنيفة ما هى إلا صحوة موت قادم لا محالة. وبالفعل ساءت أحوال الجبهة العسكرية، وخارت قوى المقاومة الإيطالية، ويات العدو قريباً من ميلان، فيما تواصل القوات الألمانية انسحابها.

وأمام هذه التطورات الخطيرة رفض الدوتشى الاستماع إلى نصيحة قدمها له أحد خلصائه تدعوه للهرب سراً مع أسرته إلى سويسرا أو أسبانيا، الأمر الذى

رفضه موسولينى رفضاً قاطعاً، وحين أشارت عليه إحدى عشيقاته بأن يلحق بها إلى الأرجنتين بعد أن يفتعل حادثاً وهمياً يدور حول اغتياله إثره حادث سيارة، كان يسخر ويتهمك من كل هذه الدعوات التى كانت تسعى إلى إنقاذ حياته وضمان سلامته.

كان موسولينى لا يزال يعيش فى أوهام نصر قادم وانتعاشة فاشية قادمة، أو هكذا عاش دوماً غارقاً حتى أذنيه فى مستنقع أوهامه وأحلامه وجنونه.

وكانت الدعوات التى وجهها البعض لموسولينى تستجديه الحرص على حياته قد تحولت بمرور الوقت ومع تعاظم الأخطار إلى مناشدته الحفاظ على حياة الشعب الإيطالى حقناً لدمائه وصيانة لأرواحه، وحفاظاً على ثرواته وتاريخه وأمجاده وكفاء ما لحق به من عار وهزائم مخزية.

كانت التوسلات حادة لا تخلو من تهديدات وتحذيرات قادها بعض وجهاء البلاد، ورغم رفض موسولينى فقد اضطر إلى الرضوخ حين التقى مع الكردينال شوستر الذى همس فى أذنه قائلاً: أرجوك، لا داعى لأن تلهث خلف أوهامك يا دوتش فأنا أعرف من سيتبعك إلى هناك من أصحاب القمصان السوداء، وهم لن يزيدوا على ثلاثمائة لا ثلاثة آلاف كما أوهمك البعض، وقدم له الكردينال قصة القديس بنديكت بعد أن ألقى عليه مواعظه ونصائحه.

وكان وفد من لجنة التحرير الوطنى يترأسه الجنرال كادورنا قد أقبل إلى مقر الدوتشى فى محاولة لمواصلة الضغط عليه، ودار حوار طويل بينهما انتهى إلى الخروج من ميلان.

كانت انتفاضة العمال تهز أرجاء إيطاليا، وقد نما لعلم الدوتشى أبناء كفاحهم ضده حين وصل مع أتباعه الفاشيين إلى كومو، وقد تملكه الذعر واستولى عليه الرعب لا يدرى ماذا ستصنع به الأيام القادمة لا سيما وأن أتباعه لا يزيد عددهم فعلا عما ذكره الكردينال شوستر.

وحيث إن الأخبار لم تكن على ما يرام فى مدينة كومو فقد اضطر الدوتشى إلى مغادرتها فى الوقت الذى خارت قوة الفاشيين من أتباعه . وكانت المعضلة فى انتشار رجال المقاومة السرية فى جميع أرجاء إيطاليا، الأمر الذى بث الرعب فى صدور الفاشيين الموالين له، والذين يتبعون خطواته، ولا يدرى أى منهم إلى أى جهة ذاهبون.

ومن أجل توفير الحماية للدوتش اقترح أتباعه أن يستقل إحدى السيارات المدرعة تجنباً لهجمات المقاومة السرية وهو ما وافق عليه الدوتشى دون تردد بعد أن علم من محافظ كومو مدى قوة أفراد المقاومة وكثرة أعدادهم.

لكن كان الدوتشى على موعد آخر مع الاعتقال، حيث تربص له أبناء المقاومة السرية الذين أعدوا الأكمنة لاصطياده رغم أنه استقل سيارة مدرعة وتبع ذلك اصطياد جميع أتباعه الذين كانوا يرافقونه، وقد استسلموا جميعاً دون أبدأ أية مقاومة .

لكن كانت المعضلة فى أن أبناء المقاومة يجهلون ملامح الدوتشى لا سيما وأن وجهه تغير عما كان قبل الاعتقال الأول، حيث أصبح مخيفاً شاحباً أصفر اللون زائغ النظرات، يتعذر أن يتعرف عليه من لم يلتق معه من قبل بصورة مباشرة.

وراح رجال المقاومة يسابقون الزمن فى البحث عن الدوتشى وسط رجاله الفاشيين وبعض الجنود الألمان، وكان أحدهم يعرف الدوتشى.

ومر على جميع الفاشيين يتفحص وجوههم ويتأمل ملامحهم، وفى داخل إحدى السيارات رفع رأس أحدهم تظاهر بأنه يغط فى سبات عميق، وراح يسأله: هل أنت إيطالى؟ فرك الرجل عينيه ورمقه بنظرة ذات معنى قائلاً: نعم، أنا إيطالى، فصاح الرجل بأعلى صوته . . أوه يا فخامة الدوتشى . . أنت صاحب الفخامة، أليس كذلك؟

وعلى الفور أسرع رجال المقاومة يلقون القبض عليه دون تردد، وقد لاحظت علامات الذهول على موسولينى وبدا كمن شاخ وبلغ من العمر أزدله، فبهت لونه وخارت قواه، وبدا كمن فقد النطق وأصابه العمى، حيث اسودت الدنيا وضاعت بين عينيه، وما كان من رجال المقاومة سوى أن جذبوه إلى خارج السيارة ثم نزعوا منه سلاحه الخاص و استولوا على حقيبتين تكتظ كل منهما بأخطر الوثائق.

وقيد موسولينى إلى مبنى البلدية للتحقيق فيما أقدم عليه من سياسات أضرت بالبلاد، حيث كان المحقق قد أعد عريضة من الاتهامات التى تتعلق بما ألت إليه سياساته المجنونة.

وبعد أن فرغ المحقق اقتيد الدوتشى إلى قمة جبلية خوفا من القيام بأى محاولة أخرى لتحريره من قبضتهم، لا سيما وأن تعليمات لجنة التحرير الوطنية

أمرت رجال المقاومة بإخفاء الدوتشى فى مكان أمين تحسباً لأية عمليات تحدث لإنقاذه.

* * * *

وعلى الرغم من المصير الذى آل إليه الدوتشى فقد تجلّى فى أروع صورهِ حين فوجئ الكونت بليلنى بالسيدة كلاريتا بيتاشى وقد ألقى القبض عليها تطلب أن تلحق بالدوتشى لإخلاصها ووفائها له، حيث بررت علاقتها الشرعية معه أنها كانت تجسيدا لقصة حب عنيفة بينهما، ولم تكن لمجرد أنه حاكم ديكتاتور، بل لأنها أحبت هذا الرجل بجنون.

على أية حال انتقل موسولينى إلى منطقة جيرماسينو ثم إلى قرية بليفيو ثم استقل سيارة أخرى تشق الطرق الجبلية الوعرة وسط سيول من الأمطار إلى إحدى القرى الريفية، وبعد رحلة طويلة كان موسولينى ترافقه عشيقته ينامان ما تبقى من ساعات الليل داخل إحدى الدور الريفية وسط حراسة شديدة من رجال المقاومة السرية.

* * * *

وفاة موسوليني

كان موسوليني يتجاذب أطراف حديث طويل لا ينتهى مع عشيقته لعل ذلك تخفف من وطأة المصير الذى ينتظرهما معاً، لا سيما وأن الإعدام بات فى حكم المؤكد، ومن ثم وجب عليهما إهدار الوقت فى استرجاع ما بينهما من ذكريات مضت وتولت.

وبينما كان العاشقان يتحدثان فوجئ موسوليني برجل طويل القامة يدق أبواب البيت الريفى الذى يقيم بداخله ويتقدم منه قائلاً: لقد جئت إلى هنا من أجل إنقاذك يا سيدى.

فإذا بموسوليني يجيب ساخراً وهو يتأمل مدفعه الرشاش: أوه يبدو أنك رجل لطيف وخفيف الظل.

ثم سرعان ما جذب عشيقه موسوليني بقوة، ودعاها لتلحق بهما قبل أن يداهم الأمريكان المنزل.

ويبدو أن موسوليني قد انطلت عليه الحيلة كغريق يمسك بقشة لعلها تنشله. وأمرهما الرجل الذى زعم أنه جاء لإنقاذهما بدخول السيارة التى كانت تنتظرهما على بعد أمتار قليلة من باب الدار الريفى، أدركت عشيقه موسوليني أن الرجل فى طريقه إلى تنفيذ الإعدام رمياً بالرصاص، ومن ثم صاحت بأعلى صوتها أن يقتلوا قبل أن يطلقوا عليه النيران، وراحت تبكى وهى تحتضن موسوليني الذى كان صامتاً لا ينطق ولا يحرك شففيه قط.

أما الذى ادعى كذباً أنه جاء بصدد انقاذه فقد أشهر مدفعه وراح يصوبه نحو موسولينى، بيد أن عطلاً مفاجئاً قد أصاب المدفع، فانتزع مسدس سائق السيارة ليلتفت ناحية موسولينى الذى رمقه بنظرات قاسية قائلاً له فى ثبات وسط نحيب وصراخ عشيقته أطلق الرصاص على صدرى لا تردد يا رجل.

ودون تردد أطلق الرجل الرصاصة الأولى نحو صدر كلاريتا تبعثها رصاصة أخرى استقرت فى صدر موسولينى، ثم عاود الرجل إطلاق الرصاص بعد أن لاحظ أن صدره ما زال يعلو ويهبط، حتى بلغت عشر رصاصات سكنت وغاصت فى جسده النحيل وسط ضحكات الرجال.

وفى اليوم التالى ٢٩ أبريل ١٩٤٥ انتقل جثمان موسولينى وعشييقته إلى سيارة خاصة بنقل الموتى، توجهت بهما إلى ميدان لوريتو الذى كان قد اكتظ بالجماهير الغفيرة التى جاءت لتشفى فى الرجل الذى أحال حياتها إلى جحيم مستعر بعد أن أولته ثقتها وولاءها وما أن أنزل أحد رجال الإسعاف الحشيتين حتى هجمت عليه الجماهير تضرب جثة موسولينى بالتحديد بالأقدام على مؤخرته وعلى وجهه وسط حالة رضا من البعض وسخط البعض الآخر.

ولم يكن ذلك فحسب، بل إن إحدى السيدات قد أخرجت مسدسها وأطلقت نيرانه على جثة موسولينى، ثم هاجت الجماهير المحتشدة تطالب برفع الجثتين إلى أعلى لا سيما وقد انضمت إلى الجثتين أكثر من خمس جثث لاتباع موسولينى.

وجاء نفر بالحبال ووثقت معاصم الجثث، وبدأت جثة موسوليني معلقة إلى أعلى فتدلت رأسه إلى الأرض، ووجهه بدا أمام الجماهير المحتشدة وقد تلون بالدماء، وراح البعض منهم لا يتورع في أن يبصق على جثة موسوليني إمعاناً في الانتقام من سنوات حكمه البغيض.

بينما ارتفعت جثة عشيقته كلاريتا عارية من ملابسها وقد بلغت الصفاقة بأحدهم أن وضع عصا بين فخذيها وسط هدير من الهتافات والصرخات المدوية التي اقتصررت على شعار لعن الله الدوتشى... إلى الجحيم يا دوتشى.

أسدل الستار على رجل لم يكن أهلاً لشقة أمته، ولم يكن قط جديراً بالأمانة التي حملها، ولم يكن مخلصاً لشعب كان له وفياً.

* * * *

الفهرس

| الموضوعات | الصفحات |
|--------------------------------|---------|
| نافذة الكتاب | ٣ |
| الفصل الأول | ٧ |
| من الطفولة إلى الصبا | |
| الفصل الثاني | ٢٥ |
| رسول العنف | |
| الفصل الثالث | ٥٣ |
| صعود الدوتشى لطاغية | |
| الفصل الرابع | ٦٥ |
| زواج موسوليني | |
| الفصل الخامس | ٩٧ |
| موسوليني . . . رئيساً للحكومة | |
| الفصل السادس | ١٠٩ |
| موسوليني . . . الإنسان | |
| الفصل السابع | ١٢٣ |
| الانفراد بالحكم | |
| الفصل الثامن | ١٣٧ |
| الدوتشى الفاشى والفوهرر النازى | |

| | |
|-----|---------------------------|
| ١٥١ | الفصل التاسع |
| | الطريق إلى الحرب العالمية |
| ١٨٥ | الفصل العاشر |
| | نهاية موسوليني |
| ٢٠٨ | وفاه موسوليني |
| ٢١٣ | الفهرس |



مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

■ جوبلز ■ ديجول
■ مونتجمري ■ آيزنهاور
■ تشرشل ■ موسوليني
■ رومل ■ أدولف هتلر

Bibliotheca Alexandrina



0672785



9 789774 361340

مكتبة النافذة